حدِّثني عن الحبّ

طبعة رابعة

٢٠٠٥

❊

جميع الحقوق محفوظة

❊

مَنشُورَاتُ المَكْتَبَةِ البُولِسِيَّةِ

جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب. ١٢٥

هاتف: ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦

بيروت – شارع لبنان – هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣

زحْلة – الحمراء بلازا – تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

سلسلة
الشباب مستقبل الغد
٥

حدِّثني عن الحبّ

تأليف
ميشيل كواست

ترجمه عن الفرنسيّة
أديب مصلح

عنوان الكتاب الأصليّ:

PARLE - MOI D'AMOUR

MICHEL QUOIST

LES ÉDITIONS OUVRIÈRES
5ème ÉDITION 1987
FRANCE

تمهيد

ميشيل كواست ولد في فرنسا عام ١٩٢١، واضطُرّ إلى العمل منذ صباه، وانضوى تحت لواء منظّمة الشبيبة الكاثوليكيّة العاملة؛ ثمّ لبّى دعوة الكهنوت، وأثناء تأهّبه لها ظفر بإجازة في العلوم الاجتماعيّة، ثمّ بدكتورا في الدراسات الاجتماعيّة.

وانخرط في ميدان العمل الاجتماعيّ ولا سيّما مع الشبيبة، ومن فيض تجاربه الميدانيَّة اكتسب خبرةً ثمينةً اقتسمها مع الآخرين، من خلال محاضراتٍ في شتّى أرجاء العالم، وبرامج تيليفزيونيّة، وخاصّةً من خلال كتبٍ لاقت رواجًا منقطع النظير. فكثير من مؤلّفاته بيع منه ملايين النسخ وترجم إلى عشرات اللغات، وأشهرها كتاب «صلوات».

وهذا الكتاب الذي نقدّم ترجمته لشباب بلادنا هو محاولةٌ للإجابة على تساؤلاتٍ حارقةٍ تؤرّق ألوف المراهقين والشبّان، عندما تشرع قلوبهم تختلج بمشاعر الحبّ المبهمة الجامحة، فيما هم، غالبًا يفتقرون إلى الدليل الهادي إلى الأساليب والوسائل الكفيلة بعيش هذه المشاعر بما يسدّد سراط مستقبلهم، ويساعد على ازدهار شخصيّتهم، ويقيهم من التعثّرات والكبوات والمهالك، وربّما من أضرارٍ فادحة قد تودي بهم أو يُلحقونها بالآخرين.

هذه المخاطر هي أشدُّ تهديدًا، في عالم اليوم، حيث امتُهن الحبّ، وابتُذِل، و«شُيِّئ»، وبات مادّة تجارةٍ وقحةٍ مستهترة، رائجة؛ وحيث انتشرت المذاهب المحلّلة من القيَم، والمنفلتة من كلّ ضابطٍ ووازع. وقد حاول ميشيل كواست الردّ على تساؤلات الشباب في هذا المضمار، وإنارة دروبهم، والأخذ بيدهم، برفقٍ

وحزمٍ، إلى ما يضمن ازدهارهم وسلامتهم، وقد فعل ذلك بدرايةٍ، ومهارةٍ، وطلاوةٍ، وفي أسلوبٍ شعريٍّ فذّ.

وقد حدانا تميُّز هذا الكتاب، وافتقار شبابنا إلى مثل ما انطوى عليه من فوائد وإرشاد، إلى ترجمته، ووضعه بين أيديهم، وجلّ مبتغانا أن يتمتّعوا بأسلوبه ويستنيروا بهديه، ويستعينوا به على اجتياز مرحلةٍ خطيرةٍ من وجودهم بما يضمن لهم مصيرًا مستقرًّا خصبًا، ويجعل منهم عناصر بنّاءة في مجتمعٍ سليم.

أديب مصلح

مقدّمة الكتاب

أصدقائي القرّاء،

أشكر لكم إقدامكم على قراءة هذا التمهيد حتّى نهايته، ممّا سيوفّر عليكم البحث، في طيّات هذا الكتاب، عمّا لم أَبتَغِ إيراده، وسيفسّر لكم لماذا عمدت، في صياغته، إلى أسلوبٍ أدبيٍّ غير مألوف. فإن كنتم قد طالعتم هذا أو ذاك من كتبي الأُخرى، قد تستغربون تباين هذا الأسلوب تباينًا تامًّا مع أساليبي السابقة.

الحبّ المبتذل، «المشيّأ»

تعلمون، مثلي، أنَّ الحبّ، في عالَم اليوم، قد فقد قيمته. فعمومًا، أَحجم البعض عن الإيمان بالحبّ، ولا سيّما في إطار الزواج، الذي بات نافلاً. الأَمانة الزوجيّة؟ باتت مستحيلة؛ التجارب؟ باتت لا غنى عنها. الحبّ؟ متعة جسديّة، «تقنية» يمكن تعلُّمها، وينبغي إتقانها بأيّ ثمن...

مؤكّد أنّ الحديث عن الحبّ لم يعد من المحرّمات، وهذا من حسن الطالع، فالفتيان والفتيات باتوا يُطلَعون على أسراره، ولكن كيف؟ بواسطة دروس في العلوم الطبيعيّة، ورسوم، ونصائح متعدّدة تستهدف «ممارسة الحبّ» من غير خطر، إلخ...

وفي آنٍ معاً، شرع بعض الشبّان يسأمون من تربيةٍ خاليةٍ من الروح، ومن تجارب متعدّدة لم تؤتِ سوى الفشل وخيبات الأَمل، وآخرون، أكثر تقدّمًا في السنّ، بعد أن ازدهوا بتحرّرهم من قيود الماضي وأوهامه، لم يلتقوا السعادة في نهاية شوط مغامراتهم.

أيكون الحبّ «شيئًا آخر»؟ لقد بدأ بعضهم يستشفّونه ويتمنّون اكتشافه. في بعض البلدان، ولا سيّما في الولايات المتّحدة، غدت تُكتَشف، من جديد، قِيَمُ الزواج، والأمانة، وحتّى البكارة قبل الزواج، وانبثقت تطلّعاتٌ جديدة، هي نداء الحياة المهدَّدة بالموت، إن مات الحبّ.

الحبّ، سرٌّ عظيم

ينبغي أن يستعيد الحبّ مكانه وبُعده الصحيحَيْن.

مكانه الصحيح في قلب الإنسان، وفي قلب تاريخ العالم. فالحبّ هو القوّة، والطاقة الجوهريّة، التي لن يعرف الإنسان والعالم، بمعزلٍ عنها، ازدهارًا متناغمًا، ولا سعادة. أمّا حجمه الصحيح، فلا حدود له. الحبّ يتخطّى الحبّ، يأتي من عالمٍ آخر، ويطير نحو عالمٍ آخر. وهو، للمؤمن، يأتي من الله، ويمضي نحو الله، و«كيان» الله حبّ.

والزوجان والأسرة يتبوّآن المركز من هذه المغامرة الكبرى، حيث يتجسّد الحبّ، ويُحيي الحياة، على نحو ما ارتدى الله – الحبّ، ذات يوم، وجهًا بشريًّا، وجعل ذاته «جسدًا» كي يهبنا الحياة.

ما هو هذا الكتاب؟

ليس بيانًا منهجيًّا عن الحبّ، ولا هو كُتَيّب تعليمات لإنجاح الحبّ، ولا هو «قصّة حبّ» تُقدَّم نموذجًا، بل هومجموعة نصوص، وخواطر، وتأمّلات في الحبّ، تبتغي محاولة مساعدة بعض القرّاء على اكتشاف أو إعادة اكتشاف جماله، وعظمته، ولكن، أيضًا، مقتضياته.

صحيح أنّ هذا التأمّل يلبس ثوب قصّة: شابّ يزور، باطّراد، حكيمًا يقوده،

بتؤدة، على درب اكتشاف الحبّ. ولكنّ هذه القصّة ليست سوى وسيلة، ومناسبة تمهّد للتأمّل.

قصّة أريد لها أن يغشاها الغموض، يتحدّث من خلالها شخصان رئيسيّان، لا تظهر من وجهيهما سوى ملامح مبهمة، بُغيةَ فسح مجالٍ من الحرّيّة كافٍ لخيال القرّاء، يُتيح لهم أن يتعرّفوا، من خلال الظروف الخاصَّة، سعي قلبهم الخاصّ.

واقعيّ أو غير واقعيّ؟

علامَ تبنّي هذه الصيغة، البعيدة، ظاهريًّا، بعدًا سحيقًا عن الحياة الواقعيّة؟ بغية محاولة إسباغ طابع شعريّ على الحبّ، وإعادة إبراز عمقه، بالتلويح بسرّه.

لن يخرج الحبّ، أبدًا، مبرمجًا من آلاتنا الإليكترونيّة التي تبتلع بطاقاتها المثقّبة، ولن يفضي بأسراره إثر عمليّات تشريح يقوم بها مبرّزون. بل وحده التأمّل كفيلٌ ببلوغ الواقع في كلّ أبعاده، وقد يكون الشِّعر دربًا مؤهّلاً لبلوغ هذا الهدف. الشِّعر ليس مناقضًا للواقع، بل هو وسيلة معرفةٍ كفيلةٌ بالنفاذ إلى ما يتخطّى صميم الواقع، حيث لا يعبّر الواقع عن ذاته إلاّ من خلال رموز.

حدود هذا الكتاب

مغامرة الحياة تنسحب على الحياة كلّها؛ غير انّ هذا الكتاب، قد أريد له، عمدًا، أن يكون مقتصرًا على بعض ملامح الحبّ، ولا سيّما في قسمه الثاني الذي تناول الحبّ الزوجيّ، والولد.

ومع أنَّ الإنسان ينمو من خلال حياته كلّها: علاقاته بالآخرين، حياته الدراسيّة، وحياته المهنيّة، وأسلوب تزجيته أوقات فراغه، وبيئته، والمجتمع الذي يدور فيه، إلاّ أنّه لا يمكن قول كلّ شيء، وكان لا بدّ من الاختيار، ولذلك أفرزت المسيرة الداخليّة، مسيرة القلب، تلبيةً لطلب العديد من الشبّان، الساعين

نحو أسرةِ المستقبل التي سيبنونها، ومن البالغين الراغبين في اكتشاف بعض جذورٍ جوهريّة لحبّهم الصعب.

وأعترف أنّني قد أكَّدت على مصاعب الحبّ. لماذا؟ من جهة، ردًّا على موقف طوائف عريضة من الفتيان والفتيات الذين يُبحرون في رحلة الحبّ، مثلما يفعلون في رحلة متعةٍ وعَبَث، متخيِّلين أنَّ حياة الحبّ أمرٌ يسير، وأنَّه ليس سوى تجاذبٍ متبادَل، وتلبية حاجةٍ ملحّة، وأنّ لا حاجة إلاّ إلى الاستسلام.

من جهةٍ أُخرى، غالبًا ما التقيت أشخاصًا بلغت بهم خيبة الأمل كلّ مبلغ، كانوا يُضفون على الحبّ ثوبًا مثاليًّا، من غير أن يسبروا مصاعبه. وقد اصطدموا بعوائق الحياة المتعدّدة، وأُصيبوا بجراحٍ بليغة، وفقدوا كلّ أمل، واعترفوا بأسًى: «ليس هذا ما حلمنا به».

لهذه الأسباب، حاولت التدليل على أنَّ الحبّ مغامرةٌ رائعةٌ ولكنَّها شاقّة، تستمرّ طيلة الحياة بأكملها، ولن تبلغ ملء ازدهارها إلاّ في التلاقي النهائيّ مع الله الحبّ.

ليس الحبّ انقيادًا لمشاعر رائعة، بل هو، بدافع هذه المشاعر وبمساندتها، رغبة المرء، بكلّ قواه، وحتّى التضحية بحياته، في إسعاد الآخرين، إسعاد آخر.

ولكنَّني لم أُلوِّح بالمحظورات، ولم أُمعن في إبراز قتام «الخطيئة». وقد يأسف لذلك بعض الذين يودّون أن يُبرزوا لعيون قوم اليوم اللامبالين تراقص لهيب جهنَّم. لا ريب أنّه ينبغي إيضاح الهدف الذي يجب بلوغه، والدرب الذي يجب انتهاجه، غير أنّني موقن أنّ الترهيب قد يُفلح في حمل الناس على احترام نظام، ولكنّه لن يُفلح أبداً في حملهم على الحبّ.

أعلم أَيضًا - أستمحيكم عذرًا عن ثقتي بذاتي - أنّني إن كنت، بنعمة الله، قد استطعت أحيانًا إلهاب شعلة، فقد كانت شعلة الحبّ، لا شعلة جهنَّم.

حدودي الخاصّة

إعادة إضفاء مسحة الشِّعر على الحبّ، والتمكين من استشفاف عمق سرّه اللامحدود...! موضوعٌ ينطوي على الكثير من الطموح، وفي ما يتعلّق بي، على الادّعاء المغرور. فاعلموا أنّني أسبر تمامًا البون المهين بين الهدف المستشفّ ووسائلي.

لقد كان إعداد هذا النصّ وإتقانه يقتضيان الكثير من الوقت، ويقتضيان منّي أن أكون شاعرًا مجلّيًا وصوفيًّا عظيمًا، أي أن أكون إنسانًا يتميّز بنظرة إيمان من الصفاء بحيث ترى، في قلب من يحبّون، اللّه الحيّ الذي يبعث إشارة.

وأنا لست لا هذا ولا ذاك. بل، مثلكم، أحاول أن أُحبّ، ولا أنجح دائمًا.

فليكن، إذن، لديكم من العطف أن تتقبّلوا هذا الكتاب كمحاولة، وعذري في ذلك أنّني دعيتُ إلى كتابته، وثقتي في أنّني حرصت، كما أَلِفت، على التحقّق من أبعاد الكلمات، كلّما مضيت قُدُمًا في الكتابة.

بكلّ قلبي أشكر أولئك القرّاء المتطوّعين، ولا سيّما الشبّان منهم، الذين قدّموا لي – هديّةً ثمينة – ملاحظاتهم، وتشجيعاتهم. لولاهم لربّما كنت تخلّيت عن هذا المشروع.

ويقيني، أخيرًا، أنّكم، بعد أن تتجاوزوا مواطن ضعف هذا الكتاب، وبقراءته ليس مثل رواية يتصفّحها المرء في أُمسيةٍ، بل بتؤدة، مثل كتاب تأمّل، ستتمكّنون من اكتشاف سعيكم الخاصّ، من خلال الكلمات الواهنة.

الحبّ هو، بلا مراء، مغامرة الحياة الكبرى والوحيدة. وفيها ينتظرنا اللّه.

ميشيل كواست

الجزء الأوّل

الحياة هي الحبّ

إِجلس يا ***صديق***،
فأحدّثك....
أَصغِ بقلبك،
وإلاّ فلن تسمع سوى همس الكلمات
ولكنّك لن تتذوّق طعم لبّها...

(١)

كان لي من العمر عشرون عامًا... أو ربّما خمسةٌ وعشرون عامًا، أو أكثر أو أقلّ... لا أهمّيّة لذلك!

كنت أصبو إلى العيش، ولكنّني لم أكن أعرف لِمَا أعيش، ولا كيف أعيش، وكنت أبحث. وبحثت حتّى انتابني القلق، وأنا أَصطدم بسراب قِفاري.

* *

كنت جائعًا!

كان الجوع ناشبًا بجسدي. وكان لحمي الحيّ، مثل ملايين الأفواه المجنونة، يسعى إلى التهام حتّى أصغر فُتات الملذّات التي يلملمها على جنبات دروبي.

وكان الجوع ناشبًا بفكري، ومن أجل إطعامه كنت أجمع، بلا تمييز، كلّ الآراء المتسحّبة في الكتب، والصُّوَر، والكلمات على شفاه البشر؛ غير أنَّ رأسي كان يحاكي خليّةً تدوّي ولا تنتج عسلاً.

أحيانًا، عندما كنت أمضي قُدُمًا في ذلك الرأس المسكين، حيث كنت أَستشفّ نهاية الأرض وبداية عالمٍ آخر، كانت بضعة أشعّة شمسٍ تنير ليلي، ولكن سرعان ما كانت الغيوم تمحو النور.

ولم يكن يبقى لي سوى الحلم الذي يمضي بي بعيدًا جدًّا...

ولكن هل الحلم بالحياة هو الحياة؟ فسرعان ما تُنذر العاصفة، وتزمجر، وتمزّق ثوب أحلامي، وتتركني عارياً، ملقًى على سريري، مثل عاشقٍ مجنون لا عهد له بعشيقة.

وكنت عطشانًا!

وكان الظمأ ناشبًا، على نحوٍ خاصّ، بقلبي، في العمق، في عمق الأعماق، فيما وراء اللحم والدم، في تلك البلدان النائية السرّيّة، التي كنت أسبر، في قلقٍ ورعدة، لانهائيّتها، من خلال لانهائيّة عطشي. يا لذلك الظمأ المتلظّي الذي يشيع الحريق في الكيان كلّه، مثل نارٍ يتراقص لهيبها في هوّةٍ لا قرار لها!

* *

ومع ذلك كنت أعيش، ولكن كيف يعيش من لا يعرف لعيشه هدفًا، ولا طريقةً لتغذيته؟

حياتي كنت أجرُّها مثل رزمةٍ مزعجةٍ يتقاذفها عابثون، لأنَّهم لا يدرون ما يعملون بها، ولأنّها ثقيلةٌ يصعب حملها.

كان والداي قد قالا لي: «لقد أدّينا واجبنا، وأعطيناك الحياة مثلما أُعطيناها». وبسخائهما وحسن نواياهما أعطياني، أيضًا، «قاعدة سلوك» بالية الأسلوب، حروفها شبه ممحيّة، كنت أتهجّؤها بصعوبة. وهل هما أحسنا حقًّا تعليمي القراءة؟

كانت طريقة الاستعمال تقول: يجب فعل هذا، وتجنُّب فعل ذاك، وعندما أستوضح السبب كان والداي يجيبان: «لأنَّ هذا حسن، أو لأنّ هذا سيّئ». ولكنّني لم أكن أدرك لِمَا هوحسن أو لِمَا هو سيّئ. وكان والداي، أيضًا، يجهلان ذلك. وعندما كنت ألجّ في الاستفسار كانا يجيبان: «لأنّ الأمور كذلك».

ولم ألبث أن تبيّنت أنّ أمّي وأبي لم يكونا يعيشان، دائمًا، وفق ما يقولان، وكذلك كان البالغون من حولي. أمّا رفاقي، فكثيرون منهم كانوا يعلنون، ساخرين، أنَّ قاعدة سلوكي، المندثرة منذ زمنٍ طويل، لم تعد قابلةً للتطبيق. ولم يكونوا يعرفون قواعد سواها، مدّعين أنّ مثل تلك القواعد، في جميع الأحوال، لا طائل تحتها، وأن لا فائدة من طرح الأسئلة، إذ لا أجوبة عليها.

وكانوا يقولون إنّ المهمّ هوالعيش، بما أنّه، أخيرًا، لم يعد شيءٌ محظورًا، وبما أنَّه بات متاحًا السير فوق العشب، وقطف جميع أزهار الحدائق التي تروق لنا: «افعل كلّ ما يحلو لك فعله، تنلِ السعادة».

وقد فعلت...

وطفت بالكثير من البساتين، وكثيرًا ما دستُ أعشابها، وقطفت زهور اللذّة. ولكنّني لم أعثر على السعادة الحقيقيّة. أحيانًا لامستها، خلال ساعاتٍ عابرة؛ ولكنَّها مثل لُقَمٍ تذوب في فمٍ نَهِم، كانت تلك المُتَع الهزيلة تتلاشى من غير أن تُشبع من جوعي شيئًا.

* *

وأنتم، يا أصدقائي، أما زلتم تعانون، في قلوبكم، عذاب الجوع والعطش؟ أو إِنّكم ما لبثتم أن استسلمتم، والتحقتم بتلك الزمرة من الأبناء المبذّرين، الذين ابتعدوا عن الأب، وبعد أن بدّدوا إرثهم الوفير، باتوا يكتفون، الآن، بطعامٍ يسترقونه من خنازير المدينة؟

... وحتّى لو كنتم أبناءً أبرارًا، محظيّين، سعداء، مقيمين، منذ زمنٍ، في بيت الأب، وتعرفون طعم الخبز ومذاق النبيذ، ألا ينتابكم، كلّ يوم، الجوع والعطش؟ فقد بتّ أدرك، الآن، أنّ الإنسان مفطورٌ بحيث أنّ جوعه وعطشه لا يُروَّضان أبدًا، وفي ذلك تكمن عظمته ومعاناته في آنٍ واحد. وحتّى عندما

يظنّ أنّه أفلح في ترويضهما ينفلتان، وينبعثان أكثر ضراوة، ويظلاّن يركضان أمامه، وهو يُنهك نفسه في ملاحقتهما، ولا يتوقّف أبدًا إلى اللحاق بهما.

ما الإنسان سوى جوعٍ وعطشٍ لا يرتويان؛ وهو يموت عندما تموت رغباته...

* *

كنت جائعًا.

وكنت عطشانًا، ولكن لم أكن أعلم إلى أيّ طعام أو أيّ شراب.

وليس أقسى من الجوع على من لا عهد له بخبز.

وليس أقسى من الظمأ على من لا عهد له بشراب.

وكنت أتساءل: «من يُعتقني من آلامي؟»

* *

صديقٌ أوّل قال لي: «لن تهتدي إلى طريقك وأنت تحدّق إلى ذاتك. فاخرج من منزلك. فما دمت قابعًا على الشاطئ لن تعرف شيئًا عن البحر اللانهائيّ».

ولكنّني لم أكن أملك بوصلة، ولم يكن لي بالملاحة علم.

وقال لي صديق آخر: «ستعثر على طريقك في «الكتاب» الذي يختزن أقوال الله الكفيلة بهدي البشر وتغذيتهم أثناء سفرهم.»

وكنت قد فتحت «الكتاب» أحيانًا، وكنت أحترم أقواله، لأنّها كانت تبدو لي جميلة، ولكنّ تلك الأقوال السرّيّة كانت تستعصي على فهمي، مثل حبّاتٍ قاسية القشرة تعجز عن تزويدي بدقيقها.

وقال لي صديقٌ ثالث: «يلزمك من يفسّر لك تلك الأقوال، من يكون قد اطّعمها وتمثّلها وتغذّى بعناصرها الجوهريّة، بحيث يستطيع أن ينقل إليك حياتها بكلمات اليوم».

فامضِ إلى الحكيم! إنَّ الجميع يقولون إنَّه يتكلّم مثل الكتاب وإنّ أقواله تغدو بذورًا في قلب من يُنصتون إليه. والأرض الخصبة تؤتي من الثمار مئة ضعف.

* *

وعزمت على المضيّ إليه.

وسأروي عليكم تلمّساتي، وريَبي، وصراعاتي، تلك التي كانت تراود قلبي، لا تلك التي واكبت كلّ حياتي.

وما سأوافيكم به هو أقوال الحكيم.

(٢)

كان الحكيم يقطن بيتًا صغيرًا في نهاية رواق. لم يكن أحدٌ يعلم من هو، ولا من أين أتى. وكان الذين يلتقونه يحترمون سرّه؛ وسأحترمه أنا أيضًا.

وتقدّمت متلمّسًا طريقي عبر الرواق المعتم. ألم يكن ضروريًّا اجتياز الليل من أجل بلوغ النور؟

وقرعت الباب، فانشقّ، ولمحت الحكيم، وقد ألقى عليه نورٌ خجولٌ متسرّبٌ من نافذةٍ ضيّقةٍ ضوءًا خافتًا.

كان رجلاً طاعنًا في السنّ، ولكن لا شعر مسترسلاً له، ولا لحية بيضاء طويلة كما صوّر لي خيالي الأحمق. وأظنّ أنّ لا شيء كان يميّز وجهه، غير أنّني لم أَرَه. فلم ألمح سوى عينيه، أو بالأحرى نور عينيه. ومنذ تلك اللحظة، اعتقدت اعتقادًا راسخًا أنّ ذلك النور كان قادمًا من مصدرٍ آخر سرّيّ، وأنّه كان شمسًا وحياة، وأنّني إذا ما تقبّلْته لأضاء دروبي اليوميّة؟

ومع ذلك انتابني الشكّ، فيما بعد.

وقال الحكيم: «مرحبًا بك يا صديقي. لقد كنت أنتظرك.»

وحدّق إليّ طويلاً، وكان نظره المستقرّ عليّ ينعش قلبي مثل ندىً يخترق بتؤدة أرضًا جافّة. وعقب صمتٍ متمادٍ تمتم: «إنَّك موفور الحظّ».

فقلت: «لِمَ؟»

– «لأنّك إنسان، وبوسعك أن تبحث. إنَّ الوردة جميلة، ولكنّها تقضي حياتها كوردة، وهي تجهل لِمَ هي جميلة وخصوصًا، لمن؟».

- «وما جدوى البحث إن لم يؤدِّ إلى عثور على الضالّة؟

- «من يبحث بصدقٍ يجدْ، ولكنَّ الأعمى يرفض أحيانًا النور، والأصمّ يرفض السماع».

فتوسّلت إليه قائلاً:

-أرجوك ساعدني على الحياة. إنّني في جوعٍ وعطشٍ إلى الحياة، ولستُ أجد طعامًا يشبعني.

* *

ولم تبدر عن الحكيم حركةٌ أو جواب.

وتسلّل عبر الغرفة صمتٌ طويلٌ عارٍ. كنت مرتبكًا، وأقحّ راجيًا طرد ذلك الصمت، ولكنّه كان مقيمًا، وكأنّه من أهل البيت. وسرعان ما أدركت، من أسلوب بسمة الحكيم، أنّ ذلك الصمت كان له أكثر من صديق، وربّما كان له قريبًا سرّيًّا.

وقد أكّد لي الحكيم ذلك، اليومَ، بعد مضيّ ردحٍ من الزمن، وأردف أنّ هذا القرين كان يُنجب لفكره كلّ البنين الذين ضنّ بهم عليه الضجيج سابقاً. وقالَ لي: «سترى كيف ستحبّه، أنت أيضًا، وستقترن به، وإن أنت كنت وفيًّا له، فإنّي أتنبّأ بأنَّ أبناءً جُددًا سيولدون في كلّ لقاءٍ لك معه.»

يومها، لم أكن أفهم تلك الأقوال الغريبة، أنا الذي كنت ملازمًا للضجيج، وأصطحبه معي كي أونس وحدتي أينما ذهبت، حتّى إلى فراشي.

ولكنّني لم أكن قد جئت آنذاك كي أروّض الصمت. كنت أَبتغي كلمة، وتجاسرت فألححت: «أريد أن أحيا.»

ولم يدعني الحكيم أُكمل حديثي، فرفع رأسه بتؤدة، وتمتم ببطءٍ شديد:

«القضيّة ليست قضيّة حياة، بل قضيّة حبّ».

لم يزدْني ذلك فهمًا، ولكنّني لم أجرؤ على الإفصاح عن عدم فهمي، خشية أن يجيب الحكيم بمثل الأجوبة التي طالما قوبلت بها، والتي ما انفكّت أصداؤها تترجّع في رأسي، مثل صوت بابٍ يُغلَق بعنف: «لأنّ الأمر كذلك». ولكنّني كنت مخطئًا. وبادر الحكيم فتحدّث أوّلاً:

– «أصْغِ، يا صغيري. إنّ ما تعانيه من أصناف الجوع والعطش يؤدّي بك إلى التيه، ويسيطر على تفكيرك ولن تفلح، أبدًا، في إشباعه. فحتّى لوجمعتَ كلّ ما على الأرض من أغذية، وحاولتَ في كلّ ساعةٍ من النهار، أن تلتهم منها حتّى الامتلاء، ستظلّ أسير جوعك، وأرمل السعادة. فهذه الأنماط من الجوع لا تمثّل جوعك الحقّ، وتخفي أنماطًا أخرى من الجوع أشدّ لجاجةً، وتطلُّبًا، لأنّها لانهائيّة.

فأعمق رغبةٍ في قلب الإنسان، كلّ إنسان، وأعمق من رغبة العيش، رغبته في أن يُحِبَّ ويُحَبّ. ذلكم هو جوع الإنسان الحقيقيّ».

وتخشّع ثمّ أردف، بصوتٍ خافت، وكأنّه يحدّث نفسه: «ولا عجب في ذلك، فلقد خلقه الحبُّ من أجل الحبّ».

فقلت:

– ولكنّ الحياة أبدى، إذ لا يستطيع أحدٌ أن يحبّ إن لم يحيَ أوّلاً.

– «لا، فلا يستطيع أحدٌ أن يحيا إن لم يكن، أوَّلاً، محبوبًا.

... إنَّ الحياة نهر، وليست نبعًا! وأنت...

أنت تغطس في النهر وتتلوّى فيه، ولكنَّ النهر ينساب تحت بطنك، وتعجز ذراعاك عن الإحاطة به بيديك النَّهِمتين، تحاول الإمساك بمياهه الحيّة، ولكنّك لا تحتفظ منها بشيء، فالقطرات المتمرّدة تتسلّل من خلال أصابعك المتلازّة، لتلتحق، جاريةً، بأخواتها المتنائية.

وعندما تعود، متعبًا، إلى نهرك، تكتشف، حانقًا، أنّه مضى وتخلّى عنك... وأنّ زهرتك قد ذوت؛

ويرهقك الصراع، فتتوقَّف في وسط مجرى النهر، متأمّلاً نهرك، محاولاً إماطة اللثام عن سرّه.

فتشاهدُه يتدفّق، ويستمرّ، أبدًا، في التدفّق، ولكن لا تتعلّم منه شيئًا، لأنّك ما زلت تجهل منبعه ومصبّه.

هكذا هي الحياة، فإن هي تدفّقت فيك، وفيّ، وفي البشريّة جمعاء، فلأنّها ابنة النبع، ونبعها هو الحبّ.

فإن شئت أن تحيا، لا تحتفظ بحياتك لنفسك، بل دعها تداعب شواطئ أُخرى، وتروي أراضي أُخرى، أمّا أنت فاركض إلى النبع.

وستفقد الحياة إن احتفظت بها لذاتك، وحبستها في قلبك كي تتمتّع بها، ولكنّك ستعثر عليها، إن أنت ارتضيت بفقدانها، في سبيل النبع».

... كنت مأخوذًا، ولكن مضطربًا، وكان رأسي يدور وكأنّني قضيت فترةً طويلةً في الشمس. وكنت أتخبّط، وأحتجّ.

– أفقد حياتي!... لا، فأنا أَبتغي الحياة!

– «ومن حدّثك عن الموت؟ فأنا دائمًا عن الحياة أُحدّثك.

... ذات يوم ستدرك أنّ الموت ليس التوقّف عن العيش، بل التوقُّف عن الحبّ.»

شكرت الحكيم، واستأذنت بالانصراف. ولم أكن أدري، آنذاك، هل سأجسر، يومًا، على رؤيته من جديد.

(٣)

كنت مستلقيًا على سريري، مضطرب النفس، وجيع الفؤاد. فغالبًا، لدى عودتي من العمل، وعندما لم أكن أفرّ من البيت فزعًا من خلوتي العقيمة الشاقّة مع ذاتي، كنت أحطّ هنا، على السرير، مثل سفينةٍ مهجورةٍ تتسرّب إليها المياه من كلّ صوب.

وفي ذلك المكان، كنت أُحاول إعمال الفكر.

نحو شهرٍ كان قد انصرم منذ زيارتي للحكيم. وكانت تعتمل فيّ مشاعر الغواية، والفضول، والخوف، متشابكة، فلا أقوى على حزم أَمري على رؤيته من جديد.

رأسي كان يبحث عن أعذار، لأنّه كان يرفض أقواله: أفكانت إجابته تجيب حقًّا على تساؤلاتي؟ أمّا قلبي فكان قلقًا، ويدفعه الخوف إلى الهرب تحسُّبًا لخطرٍ داهم، وكان يتمتم خافتًا: وماذا لو كانت كلمات الحكيم هي كلمات الحقيقة؟

ولحسن طالعي، شرع جسدي يصرخ، فقد كان جائعًا، ولم يكن يدور في خلدي من فكرٍ سوى أن أوفّر له الطعام.

إستغثت، أوّلاً، بالضجيج، حليفي الأمين، فهرع إلى المجيء، وغزت غرفتي الأناشيد والأنغام. وكنت أمتلك قدرةً سحريّةً على زيادة حجم ضجيجها، ففعلت ذلك بحنق، متجاهلاً الجيران..

سأُخرس جسدي، وسأخنق تمتمات قلبي.

وقد أفلحت في ذلك، ولكنّ القلق ظلَّ ناشبًا بي، لأنّني كنت أشعر بدنوّ عاصفة، واحدةٍ من تلك العواصف التي كنت أخشاها كثيرًا.

* *

وكانت من أَعتى العواصف التي عهدتها.

وقد انقضّت عليّ انقضاض إعصار، فدمّرت، في طرفة عين، كلّ ما جهدت، بين فينة وفينة، ورغم كلّ شيء، من أجل إشادته في جزيرتي، حجرًا فوق حجر، جامعًا شمل بعض أفكارٍ كنت أظنّها أكثر وضوحًا، وبعض نوايا حسنة كانت توقظ قلبي. وراودني انطباعٌ بأنّ لا شيء فيّ، أو من حولي، كان ما يزال قائمًا، لا شيء إطلاقًا، فقد انتشر الدمار في كلّ مكان. وأسوأ من ذلك: الفراغ، وعلى حافّة الفراغ، كان قلبي يخفق، ويجرحه، حتّى الموت، شعورٌ رهيبٌ بالغياب، والافتقار... ولكن افتقار إلى أيِّ شيء؟ وإلى ماذا؟

هذا ما كان يُضنيني.

وتساءلت هل أَنا ما زلتُ سويًّا، طبيعيًّا، أو أَنَّني ربَّما جُننْتُ. ولكن هل محاولة العيش جنون؟ وهل جنونٌ هو البحث عن مصدر الحياة ومآلها؟ هل جنون...؟ وفجأة اتّضح لي أنّني كنت، للمرّة الأولى، أطرح هذا السؤال: هل من الجنون البحث عن جدوى الحياة؟

... وفي نوبة اشمئزاز أخيرة، جال في خاطري: ما لا يفيد في شيء، يُقذَف به! وكانت قد راودتني، مَرَّة، فكرة رمي الحياة. ولكن هل كنت جادًّا؟ ربَّما، وبكيت.

* *

بكيت.

كم دام بكائي؟ لست أدري.

لِمَ يخجل بعض الرجال من البكاء؟ ففي كلّ مرَّة – وهي نادرة للأسف – استسلمتْ مآقيَّ للدموع، آنستُ منها انتعاشًا، وفي مكانٍ ما من كياني تفتّحت زهورٌ جديدة.

وسمعتُ صوتًا مبهمًا، بعيدًا، يدعوني: «هيّا إلى المائدة!» ويا لسخريّة القدر، صحت: «لست جائعًا!»

* *

وشيئًا فشيئًا خيّم عليّ السكون من جديد، ولكنْ، من خلال النسمة المنعشة، كانت تتسرّب، مثل تمتمة، أقوال الحكيم. وكان لا بدّ لي من الاعتراف بأنّها هي التي كانت تعذّبني، وأنّها هي التي كنتُ أصارعها

وسأستمرّ في مصارعتها!...

كلاّ، لن أتخلّى عن حياتي في سبيل سرابٍ مجهول.

أجل، كنت أودّ أَن أحيا، وأبحث عن الحياة، وسأستمرّ في نشدانها، حتّى لو جُرحتُ من جديد. سأُحكِم قبضتي عليها، ومثلما تُسحق الثمرة كي تعطي عصارتها، سأعتصرها بكلّ قوّتي كي تهبني سعادتها.

وهببت واقفًا ووثبت نحوالنافذة وفتحتها، مستدعيًا كلّ قوى الريح. وكان في ذلك هلاكي.

في الخارج كانت أنشودةٌ تنشر نغماتها، أنشودة حبّ تنزلق فوق الريح وتنفذ إلى قلبي. وتبيّن لي، فجأة، أنّ جميع الأناشيد تُنشِدُ الحبّ... وأنّ جميع الأفلام تتحدّث عن الحبّ... وأنَّ جميع الروايات تروي قصص الحبّ... وأنّ جميع البشر... كنت أشهدهم في الشارع يسيرون، ويركضون. كانوا عائدين إلى منازلهم للقاء أحبابهم، أولئك الذين جعلوهم في الصباح يخرجون كي يسعَوا في سبيل إطعامهم. وإن كان بعضهم لا يلبثون أن يخرجوا من جديد، ممزَّقين، خائبين، فلأنّ حبّهم كان يُحتضَر، فراحوا يبحثون عن سواه يهب ذاته أو يبيعها.

وفي ذلك المساء، وحتّى بعد تقدّم الليل، عندما أخذ الشبّان يعودون، هم أيضًا، إلى منازلهم، بعد أَن داعبوا الحبّ محاولين ترويضه، وعندما انطفأت

أنوار النوافذ، الواحد تلو الآخر، كنت أعلم أنّ في تلك المنازل، الأبناء والأهل، والأزواج والزوجات، والوحيدين، كلاً بأسلوبه، من خلال أحلامهم وأفعالهم وأقوالهم، وصمتهم، وضحكاتهم، ودموعهم، وصلواتهم، وتجديفهم، وقبلاتهم، ولكماتهم، كانوا، كلّهم وكُلُّهنَّ، يجدّون في التقاط ما يطعمونه: بضع لُقَم حبّ...

ذلك الحبّ الذي يهب الحياة، والذي شرعت أُومن، بخجل، أنَّ الإنسان، بمعزلٍ عنه، يموت، لأنّه يَنفُق جوعًا.

* *

كنت ما زلت متّكئًا على النافذة، أحدّق إلى الشارع....

ولمحت ولدًا يجتاز الشارع بطَيْش، وتنقضُّ عليه أمّه كي تمسكه وتحميه، وخُيّل إليّ سماع تمتمة – ولكنّها كانت في قلبي –: «سأبذل حياتي من أجلك!». ولمحت عاشقَيْن يتعانقان بحنان، وها هما الآن يبتسم أحدهما للآخر ويتبادلان أقوالاً رقيقة. وخُيِّل إليّ سماع تمتمة – ولكنّها كانت في قلبي –: «سأبذل حياتي من أجلك». ولمحت رجلاً يقرأ في صحيفة: «المُضرب الثاني عن الطعام لقي حتفه أخيرًا...» وخيّل إليّ سماع تمتمة – ولكنّها كانت في قلبي –: «سأبذل حياتي في سبيل العدل والسلام». وأخيراً استسلمت للصمت، ولكن في قلب الصمت – هل تصدّقون؟ – سمعتُ بوضوح صوتاً، كان صوت الحكيم يقول: أترى، يا صغيري، أنّ الحبّ أثمن من الحياة؟.

* *

هل هُزِمتُ؟ لستُ أعتقد ذلك. ولكنّني على أيّة حال، رقدت في سلام، قد غمرتني سعادةٌ غريبة.

وفي سباتي حلمت بأنّني أقرع باب الحكيم.

(٤)

هاأنذا عند باب الحكيم، ولكن ليس في الحلم، هذه النوبة؛ وقرعت الباب. أيّامًا طويلة، كنت قد تردّدتُ، واعتراني الانطباع بأنّني أَستسلم أمام أحدٍ أو شيءٍ أقوى منّي.

وأنا لا أُطيق الهزيمة.

وكنت، على نحوٍ خاصّ، خائفًا، يتملّكني الرعب من التورّط في مخاطرةٍ مجهولة، على دروبٍ مجهولةٍ لم أكن راغبًا في انتهاجها. ولكي أشجّع نفسي كنت أتّهم ذاتي بالجبن. ثمّ إنّني كنت قلقًا ممّا سيقوله لي الحكيم، في أعقاب ذلك الصمت المتمادي...

وقال لي برقّة: «هيّا اجلس، يا صغيري، فلا ريب أنّك متعب».

– وعلامَ أتعب؟

– «لأنّ الصراع مع الذات ينهك... عديدون هم الذين، على هذا النحو، يهدرون الكثير من وقتهم ومن قواهم. يتخبّطون سنين طويلة، ويُجرَحون، ويمزّقون ذواتهم، ويَتركون على الدرب نُتَفًا من حياتهم، فيما تطير، بعيدًا، سعادتهم المذعورة.

«وما هوأخطر أنّ هناك من يجهلون حتّى نشوب الصراع، فقد قاموا بكلّ ما من شأنه أن يلهيهم ويشتّتهم، بحيث ما عادت أصوات صراعاتهم تبلغ إلى آذانهم الميتة. ولكنّ الحرب أشدّ قسوةً في الليل. فدماء الحياة تنزف بصمت. وذات يوم سيستيقظون خائري القوى، متعثّرين على حافّة الدرب.

«تأكّد، يا صغيري، أنّ من يقبلون النضال... ويستسلمون، ليسوا هم الأضعف، بل من المؤكّد أنَّهم الأقوى.»

وحدّق إليّ الحكيم مطوّلاً، ولم أَستطع مقاومة نظره فَغَضضْتُ الطَّرف، وأنا أعلم أنَّه يقرأ في قلبي المكشوف، ولكنّني، في كبريائي، كنت أودّ ألاّ يعلم عنّي إلاّ ما سأبوح به له.

وعزمت على البوح، فأطلعته على «عواصفي» تلك التي تنذر طويلاً ولكنّها لا تنفجر، كما يحدث في بعض ليالي الصيف الخانقة، وتلك التي تمزّق كلّ شيءٍ بشفار نيرانها.

* *

وتكلّمتُ، وأسهبتُ في الحديث، إلى أبعد ممّا كنت قد توقَّعت.

وكان ينصت إليّ، ساكنًا، في خشوعٍ تامّ، وكان صمته الرائع يحرّر كلماتي الحبيسة، واحدةً تلو الأُخرى.

وعندما كنت أصمت، لأنّ بعضًا من كلماتي المدفونة في أعماقي كانت تلقى صعوبةً في زحزحة حجر قبرها، كان ينتظر، وهوأكثر اهتمامًا، وعندما كان يراها، أخيرًا، تظهر على شفتيّ كانت نظرةٌ من نظراته الوضّاءة تلتقي بناظري، تمدُّ بينه وبيني جسرًا، وكنت أمضي في الكلام.

وفي أثناء حديثي كنت أتساءل: لِمَ قليلون هم الذين يعرفون الإصغاء؟ ما أكثر الكلمات التي تتعفّن في قبور القلوب، كلمات وصيحات وُجِدت لتمتطي الريح وتنفذ إلى قلوبٍ أُخرى، قد تكون تعاني الجوع!

وسيموت بشرٌ لم يعثروا، قطّ، على ذواتهم. كنت أُدرك ذلك، أنا الذي غالبًا ما رغبت في الكلام، ولا سيّما عندما كنت أُسأل: «ما رأيك؟» فأجيب: «لا شيء». وإنّني لأعترف بأنّ بعضهم كانوا يحاولون حملي على الكلام، ولكنّ

الكلمات التي انتزعوها منّي احتفظت بجذورٍ عميقة الغور في داخلي. وقد عادت فانبعثت أشدّ منعةً وحيويّةً، وكادت تخنقُ قلبي، فكنت أختنق، وتستغلق عليّ الأمور. ولكنّي، في ذلك اليوم، أدركت أنّ بوسعي الإفضاء بكلّ شيء للحكيم، وشرعت أبتسم، فسأل:

– علامَ تبتسم؟

– لأنّني أتحرّر!

– «ها إنّك اكتشفت حقيقةً عميقة. فكثيرون هم الذين لا يتعارفون، لأنّهم، في كبريائهم، يظنّون أنّهم يستطيعون أن يتمخّضوا، بمفردهم، عن ذواتهم. في حين أنّه لا يسع أحدًا أن يتجلّى في عينَيْ ذاته، ما لم يتجلَّ أمام آخر يبدي له اهتمامًا ويكنّ له حبًّا.

إِمضِ الآن، فقد تأخّر الوقت.

وعدْ غَدًا، فسأتكلمّ بدوري».

(٥)

وتكلّم الحكيم

وكنت أُصغي إليه، فبعد أن تحرّرتُ من أقوالي، باتت في قلبي فسحةٌ أكبر لاستقبال أقواله.

– يا صغيري، لقد أدركتَ بنفسك، هذه المرّة، أنَّ الحبّ يتبوّأ الأولويّة في قلب الإنسان، وأنّ الإنسان قادرٌ على التضحية بحياته كي يحيا حبٌّ ما.

وأنت عندما تكون حبيسًا في حجرتك الداخليّة، وجيعًا، تعاني من عواصفك، فمردّ ذلك إلى أنّك وحيد، عاجز عن الكلام، ومفطوم، بقسوة، عن الحبّ.

ففي ذلك المساء عندما أضناك العذاب، لو أنَّ صديقًا – صديقًا حقيقيًّا – كان قد جاءك، وقدّم لك يده وبسمته، وقال لك: «تعالَ، إنّني في حاجةٍ إليك، من أجلي ومن أجل الآخرين»، كم من الغيوم كان من شأنها أن تتبدّد في سمائك المنقشعة!

ولكن لم يأتِ أيّ صديق.

إنَّ وحدة الناس «الحبيسين» مرضٌ مريع، إنّها سرطان القلب، الذي ينتشر بلا رحمةٍ في عالمنا المتألّم.

أُنظر:

«في المدينة الفظيعة، زَرَبَ بشرٌ بشرًا آخرين لكي يعيشوا معًا مثل نحلٍ في خليّة، محشورين في علبهم المشرئبّة نحو السماء. إنّهم يعانون، وكأنّهم في سجن، ولا يتسنّى لهم التلاقي إلاّ عند المداخل.

«الأُسَر المحطَّمة لم تعد أجسادًا حيّة، أعضاؤها المبتورة تنزف ولا تشفى لها جروح،

«والأزواج أنفسهم الذين كانوا يظنّون أنّ حبًّا جمًّا يجمعهم، ما عادوا سوى وحداتٍ حزينة، يضطجعون في سريرٍ واحد، ولكنّهم يرقدون جنبًا إلى جنب.

«وكم من البحّارة الوحيدين، الذين لم يعثروا على مرفأ يتزوّدون فيه، ويقتسمون الذهب الخالص الذي يغرفونه من صناديق قلوبهم!

«يتيهون فوق الأمواج، تتقاذفهم الرياح، وهم يطلقون في أعماق الليالي إشارات استغاثة.

«ولكن ليس من يرى الإشارات، ولا من يخرج من منزله،

«فالبرد في الخارج قارس، والناس يرتاحون إلى الدفء.

«بعض الناس يصمتون، في انكماشهم الوجيع، في حين يتكلّم آخرون، ويقذفون بأقوالهم في وجوه الآخرين..

«وفي الآن نفسه يقذف الآخرون بأقوالهم، وتصطدم الكلمات، وتتدحرج على الأرض وتتحطّم.

«يحلمون باللقاء، ولكنّ كلاًّ منهم يقول: كنت راغبًا في أن آتي به إلى منزلي، غير أنّه كان هو راغبًا في المضيّ بي إلى منزله،...

«ويقبع كلٌّ منهما في منزله، مضاجعًا أحلامه.

وفي تلك الأثناء، يبكي أطفال بحثًا عمّن يستطيعون أن يَدعوه «أبًا»،

ويجأر مرضى يعضّهم الألم،

ويحتضر مسنّون، وهم يودّعون ساعاتهم الأخيرة.

وندفع لهم مالاً لنُسبغ الطمأنينة عليهم، وعلى ضمائرنا،

ولكن ما من مرهم، مهما كان رقيقًا، يقوم مقام قبلة.

وهكذا يا صغيري، يظلّ قوم، ما تفتأ أعدادهم تتكاثر،

مسجونين في وحدتهم القاتلة، رغم الجموع المحتشدة،

رغم الضجيج والأغاني،

رغم الأيادي الممدودة والأجساد المقدّمة،

رغم الخواطر الخيّرة والنوايا الطيّبة،

رغم الصراعات في سبيل العدل والانتصارات،

رغم الشرائع وجميع القوانين،

رغم العلم وكلّ التقنيات،

رغم.... كلّ شيء،

ولن يفلت الناس من سجونهم،

ما لم يكونوا محبوبين وما لم يعرفوا كيف يحبّون.

– «آه يا صغيري، بما أنّك قد شرعت الآن تدرك، فاجهد كي تحبّ، فتخلّص إخوتك وتخلّص نفسك».

لم أكن أُحير جوابًا، ويمسكني الخوف عن قول «نعم».

وكان هو يلجّ، برقّة:

– حاول. أَشرع بابك للآخرين. وإن كنت لا تسمعهم ينادون، إلاّ أنّ كثيرين هم الذين ينتظرون أن تأتي فتفتح لهم.

أُخرج من معقلك! إذ إنّك ستظلّ فقيرًا إلى الآخرين، طالما لم تغتنِ بحياتهم، بمساعدتهم على الاغتناء بحياتك أيضًا.

حاول، وعندما تقرّر، أخيرًا، فتح بابك، أضمنُ لك أنّ الشمس ستتدفّق من فرجته. وما الليل الذي تقيم فيه، إلاّ لأنَّ بابك موصد.

وحينئذٍ، مثل مظلّيٍّ يلقي نفسه في الفراغ إكرامًا للمدرّب الذي يرمقه – أجل، إكرامًا لنظرة الحكيم – قلت: سأحاول، وأَعترف أنّني فعلت ذلك من غير إمعانٍ في التفكير.

وقال لي الحكيم: شكرًا

شكرًا لك، وشكرًا للعالم....

ولم أدرك ما عناه بكلمات الشكر هذه.

(٦)

كنت عازمًا، فقد وعدت أن أحاول

وقد حاولت مرّةً، ومرّتين، ومرّاتٍ عديدة...

وأعترف بأنّني آنست شيئًا من الفرح: لا بدّ أنّه كان «الشمس» التي أَلمحَ إليها الحكيم. وبتُّ أقلَّ وحدةً، وأقلّ اضطرابًا، وبتُّ أَستيقظ مبتهج القلب، بعد أن كنت أتوجّس خشيةً من الاستيقاظ. وفي بعض الصباحات، ولا سيّما في أيّام العمل، كان يبدو لي النهار، منذ ابتدائه، من الكآبة والتفاهة، بحيث لا أحلم إلاّ في الوقت الذي أعود فيه كي أرقد... وأنام.

بالإجمال، كنت أكثر سعادة. أوَلم يكن ذلك اعتزازًا بانتصاري على ذاتي؟ ومن لا يدري أنّ محاولة إسعاد الآخرين تسعد الذات؟

ولكن ماذا كنت أعلم عن الحبّ؟ فكرتي عنه... وتجربتي له كانتا تبدوان بعيدتَيْن جدًّا عمّا كان الحكيم يتحدّث عنه.

غير أنّني قد وعدت، ومرّةً أُخرى، التزمت بوعدي.

كنت أحاول أن أنسلخ عن ذاتي، وأن أنسى، بعض الشيء، مشاكلي ورغباتي، كي أمضي نحوالآخرين. أليس هذا ما كان الحكيم يتوقّعه؟

* *

أحد رفاقي كان راغبًا في التحدّث عن ذاته، فيما كنت توّاقًا إلى التحدّث عن ذاتي، ولكنّني، عملاً بنصيحة الحكيم، أصغيت لرفيقي الذي بدا دهشًا، ثمّ سعيدًا، واعترف لي بأنّه باح لي بهمومٍ لم يبُحْ بها، قطُّ، لأحدٍ سواي.

ولكنّه عاد في الغد ليتحدّث أيضًا. وعندما خرجت من عملي قُدِّمت لي عريضة.. من قبل، كنت أقذف بهذه الأوراق أرضًا... ولكنّني أخذتها، وقرأتها. فقيل لي: بما أنّك مهتمّ، شارك في الاجتماع، هذا المساء. وذهبت... ولكنّ الاجتماع أعلن عن اجتماعٍ آخر؛ وطُلب منّي أداء خدمة، فقبلت أداءها... ولكن بعد ثلاثة أيّام، التمسوا خدماتي مجدّدًا.

ولم يكن بوسعي الاستمرار على هذه الحال. فما مصيري إن بقيت على هذا النهج؟ وإلى أيّ بلادٍ مجهولة سأنتهي؟ وما سيحلّ بي «أنا» ومن سيفكّر بي، إن كان تفكيري مشدودًا إلى الآخرين؟

ثمّ إنّني كنت أقسر نفسي. وهل هو حبٌّ حقًّا الحبّ القسريّ؟ فتخلّيت.

* *

رغم الأعذار التي كنت أستنبطها، كنت متضايقًا، مهانًا. ألم أكن قد تخاذلت؟

ألم أكن قد أخطأت خطأً فادحًا، باستسلامي، مرغمًا، لسطوة الحكيم الغريبة؟

كان قد قال لي: «إن شئت» ولكنّه قالها، ونظره محدّق إليّ، ذلك النظر الذي يبعث الطمأنينة، وفي الآن عينه، يدعو إلى الخروج من الذات، لأنّ جوّ البيت الموصد خانق، ذلك النظر الذي كان يبدو يقول «أحبّك» ويدع لي حرّيّة القرار، ومع ذلك يُلزمني...

ومرّةً أُخرى، تراكمت الغيوم في سمائي الواطئة، في حين كان الضوء الذي طالما رغبت فيه وتوقّعته ينطفئ ببطء. ألن أعهد ليلاً أشدّ ادلهمامًا، الآن وقد استشففت نور النهار؟

أجل، كنت قلقًا، خائب الأمل..

وكنت ناقمًا على الحكيم، وأعد نفسي بمصارحته بذلك.

(٧)

كنت قد أعددت كلماتي وعباراتي، مثلما تُعَدّ الذخيرة للمعركة، ولكن عندما مثلتُ أمام «خصمي» تبدّد مزاجي الحربيّ، وبخجل، رحتُ أَلتمس حجّةً، أو ربّما، في سرّي، كنت أتمنّى تشجيعًا، وما استطعت إلاّ أن أتمتم: «إنّ الحبّ صعب».

وأجاب الحكيم:

– **بل أصعب ممّا تظنّ**

وأُسقِطَ في يدي، فهل بهذا الأسلوب كان يأمل أن يحصل منّي على بعض جهود؟... ومضيت في محاولة تبرير نفسي فقلت:

– لقد حاولت، بصدق، إرضاءً لك.

ولكنّه قاطعني بحدّة، معترضًا:

– الأطفال هم الذين يبذلون جهودًا «إرضاءً» لوالديهم. أمّا الشبّان والكهول، فجهودهم يبذلونها من أجل أنفسهم، فهم، في المقام الأوّل، المسؤولون عن حياتهم.

وأَجبت بعنف:

– ولكن لست أنا من طلب الحياة!

ـ صحيح. لا أحد يهب ذاته الحياة، بل هو يتلقّاها... الحياة هي، أَوّلاً، القبول بالحياة.

كثيـرون هم الذين يهدرون عمرهم حزانى لأنّهم لم يقولوا:

«نَعَم» لحياتهم. ولكن إن هم قبلوا هذه الحياة، وقطفوا ثمارها؛ فعليهم أن يقبلوا، أيضًا، بإنمائها.

ليست الشجرة مسؤولة عن ثمارها، أمّا الإنسان فهو مسؤولٌ أو إنّه ليس إنسانًا.

– ألذلك عندما عزمت على بذل جهدي قلت لي: «شكرًا»... من أجلك؟

– أجل

– ولكنّك أضفت... «ومن أجل الآخرين»

– لأنّ الآخرين جياع، ولأنّ من واجبك أن تقدّم لهم ثمارك.

فعندما تقتطف ثمارهم، ولا تقدّم لهم ثمارك، تكون طفيليًّا.

ولئن كانت البشريَّة تعاني آلامًا شنيعةً في ملايين وملايين أعضائها، فلأنَّ كثيرين يتغذّون بحياة الآخرين، ولكنّهم لا يغذّونهم بحياتهم.

وبوسعي، لكي أبيّن لك ذلك، أنَّ أَعرض نظريّاتٍ كبيرة، كما بوسعي الاستشهاد بذوي اختصاص من علماء نفس، واجتماع، واقتصاد وسياسة، فهؤلاء قد يعلّمونك بألفاظٍ علميّة.

أمّا أنا فلن أفعل.

أنا نفسي قد درست طويلاً، وبِنَهَم، كي أنير فكري القلق، وطالعت الكثير من الكتب ولكنّي كنت أَفتقد أحدها: كتاب الحياة.

وحينئذٍ تلفَّتُّ حولي، وأصغيت، وأدركت ما لم أكن قد أدركته.

وأدركت، خصوصًا، بعمقٍ أكبر، لأنّ الأفكار الخالية من الحياة، هي هياكل عظميّة لا لحم عليها.

واكتشفت، أخيرًا، إمكانيّة التحدّث عن قضايا خطيرة بألفاظٍ بسيطة، بل قد تبدو للمتحذلقين مفرطةً في البساطة، ولكنّها وضّاءة لمن يقرؤونها بعيون القلب».

كنت دهشًا وسعيدًا لأنَّ الحكيم تحدّث، للمرّة الأولى، قليلاً عن ذاته. وقد استشففت بصيص نورٍ في سرّه العميق.

منذ لقاآتي الأولى به كنت قد لحظت، في الحجرة التي كان يستقبلني فيها، رفوفًا مزدحمة بالكتب التي كانت تغطّي الجدران. كنت، مسحورًا ومجذوبًا، أتساءل: هل هو طالع كلّ تلك الكتب؟ لم أجسر على استيضاحه حول ذلك، ولكن لم يساورني، لحظةً، الشكّ بأنّه عالِم. ولكنَّ ما كان يدهشني أنّه لا يتحدّث مثل عالم، بحيث أفهم كلّ ما يقول. وها إنّي أكتشف أنّه، هو أيضًا، كان قد بحث – وتوغّل في البحث على حدّ قوله – وقد عزّتني معرفتي بذلك وشجّعتني.

وتابع الحكيم:

«أترى، يا صغيري، ها إنّني، اليوم، بفكري، وأيضًا بقلبي، وبحياتي كلّها، أعرف ما أعرف...

«**أعرف:**

أنّه إن مات آلاف الناس جوعًا، في حين أنّ آخرين، في الآن عينه، يموتون من التخمة، فذلك لأنّنا لم نعرف اقتسام القمح، وعجن الخبز من أجل إخوتنا في البشريّة،

وأعرف

أنّه إن انفجر الكثيرون من الشبّان عنفًا، رغبةً في أن ينتزعوا، عُنْوَةً، ما حُرموا منه، فذلك لأنّهم وُلدوا خطأً، بفعل مضاجعةٍ عابرة، أو لأنّ والدين غير ناضجين أرادوهم دمىً يعبثون بها، بالإضافة إلى السيّارة والكلب الصغير؛

وأعرف

أنّه إن لم يَرَ الناس، على صفحات كتاب، سوى إشاراتٍ سوداء صامتة، فمردّ ذلك إلى أنّ البعض يحتكرون العلم لأنفسهم.

وأعرف

أنّه إن كانت الأرض ملكًا ومغنمًا للبعض، في حين هي ليست سوى ورشة عمل وشقاء للجماهير، فذلك لأنّ الناس نسُوا أنّ الأرض للجميع، وليست للأقوى.

وأعرف

أنّه إن كان بعض الناس، حقًّا، أوفر من الآخرين ذكاءً، وصحّةً، وجرأةً، فثرواتهم هذه دَيْنٌ عليهم تجاه المحرومين،

ولكنّني أعرف، أيضًا، أنّ هذه الديون غالبًا ما تتراكم ولا تسدّد.

وأعرف

أنّه إن عاش ملايين البشر وهم عاجزون عن الإسهام، بحرّيةٍ ومسؤوليّةٍ، في بناء العالم، فذلك لأنّ البعض يظنّون أنّهم خُلقوا ليكونوا أسيادًا، ويلزمهم عبيدٌ ليظلّوا أسيادًا.

أعرف

أنّه إن احتضر آلاف الموقوفين في سجونهم، وجأروا تحت وطأة التعذيب، فلأنّ بعض القوم يدّعون امتلاك الحقائق، ويقتلون الأجساد قتلاً وئيدًا، لكي يموت الفكر.

وأعرف، أيضًا، قومًا شجعانًا يثيرون إعجابي، يهبّون في كلّ مكانٍ واقفين، ويقذفون بأجسادهم النازفة في النضال من أجل العدل. ولكنّني

أعرف، أيضًا، أنَّ النصر لا يولد من نضال جسمٍ خالٍ من قلبٍ يخفق، فالصراعات الخالية من الحبّ، صراعاتٌ باطلة، والدمِ الذي تسفكه يستدعي دمًا آخر.

أعرف

أعرف... أمورًا كثيرةً أخرى.

وأنت، أيضًا، تعرف، يا صغيري، ولكنّك، ربّما لا تجرؤ أن تسمع وأن تشاهد.

تشجّع، وانظر هذه الإنسانيّة المأساويّة التي تتسحَّب متمرِّغةً بدمائها على درب صليب التاريخ المتمادي.

أُنظر أعضاءها الممزَّقة المصلوبة على جهات المدى والزمان الأربع.

إِستمع إلى صيحاتها التي تتصاعد من الأرض، وتتّحد وتتشابك في صيحة ليلٍ، مدويَّة: «أنا عطشان»

وأكرّر القول: إنّ البشرية تتألّم وتموت، معذَّبةً، مصلوبةً، بخطيئة البشر، بخطيئتنا جميعًا».

* *

وكنت أعرف، بيدَ أنّني كنت أرفض المعرفة.

(٨)

أجل كنت أعرف، فقد أصغيت ورأيت.

فمن يقوى، اليوم، على الإفلات من الأصوات والصُّوَر، التي باتت، كلّ يومٍ، تقريبًا، تهاجمنا بضراوة، أثناء طعامنا، وأثناء نومنا، مثل صفعةٍ على كامل الوجه؟ من يستطيع تفادي اقتحام البشريّة المتألّمة جدران قاعات جلوسنا الضيّقة؟ ومن يسعه الحؤول دون أن تردّد أصداء سرّيّة، إلى ما لا نهاية، صيحات المسحوقين، في أغوار بعض فسحات صمتنا؟

ولكن أيّ ذنب اقترفته، أنا، إن كان لي أبٌ وأمٌّ، وسقفٌ فوق رأسي، وخبزٌ على مائدتي؟ أكان ذنبي أن تعلَّمت القراءة، وظفرتُ بعمل يُقيم أَوَدي؟...

وكنت أتخبّط، فآلام العالم تنصبّ عليّ مثل ملامةٍ كاوية، ولم أكن أُطيق احتمالها.

أجل كنت قد أصغيت ورأيت، ولكنّني أَوَدّ الإقلاع عن الإنصات والمشاهدة، وإيصاد جميع أبوابي بالمزلاج.

ولكن، في بعض الأيّام، كانت الصُّوَر أبلغ مأساويّة، والصيحات أكثر تمزيقًا، وكانت أقفالي تتحطّم الواحد تلو الآخر.

وأعجز عن المقاومة.

وكان الغزو خطيرًا. ففي أعماقي كانت تغفو ثورةٌ مُبهَمة، مثل ديناميتٍ رهيبٍ كامنٍ في أغوار كياني. كان قلبي يتفجّر، ويفجّر رأسي. وحينئذٍ، كانت أفكاري تفور، وتتدافع وتتصادم، وكنت أعترف أنَّ جميع الآلام بشعة، ظالمة، وحشيّة.

وكان لا مناص من العثور على المذنبين، فأجدهم في المجتمع، والسياسة، والدّين... واللّه، وكلّ الذين يعلّموننا، ويثقّفوننا، ويحكموننا... أولئك المستغلّين، العاجزين، الحمقى... كلّ القادرين والذين لا يفعلون شيئًا!

كنت أثور، وكلّما أمعنت في الثورة أزداد افتخارًا بذاتي، لأنّني أبرهن لنفسي أنّني لست فاقد الحسّ، مغلقًا على نفسي.

وكنت أبتدع حلولاً جذريَّة: «يكفي أن»... «طالما لم». وأحيانًا تتولاّني جرأةٌ قصوى، فأعرضها بعنف، في مكان عملي، وسط رفاقي، أو في المنزل. وكنت أتكلّم بثقة، فأُفحم البعض، وأثير أحيانًا، كما أظنّ، إعجاب آخرين.

وحينئذٍ، عندما أكون قد أحسنت التفكير، والكلام، والصياح، والحلم، أيضًا، - فقد كان يتّفق لي أن أرى نفسي منطلقًا، بمجد، نحو معارك كبرى - كنت أنام أكثر هدوءًا، بعد أن أنَمْتُ، لفترةٍ، ضميري.

ولكنّه كان يستيقظ، ويؤرّقني، وبين فينةٍ وفينة، في فترة صمتٍ رهيبة - ولذلك كنت أتوجّس من الصمت خشيةً - وكأنَّ شخصًا آخر في داخلي كان يفكّر، ويتكلّم، وأسمعه يقول: وأنت ماذا فعلت؟ وحينئذٍ كنت أسارع، كيلا أدع الصوت يتعاظم تعاظمًا خطيرًا، وأتمتم حانقًا: وما عساني أفعل، أنا المتناهي الصِّغَر وسط هذه الكتلة البشريّة؟..

وحتّى لو قمت ببعض مبادرات، فما جدواها ما دام الآخرون لا يفعلون شيئًا؟...

ولا أفعل شيئًا.

* *

اليوم تكلّم الحكيم، وأصغيت إليه، مُرغمًا. وكان عليَّ أن أراه من جديد وأسائله: ولكنّني، مرّةً أُخرى، تردّدت. ومن المحقّق أنّني كنت أخشى نظراته بقدر ما أخشى أقواله... وفجأةً، عثرت على وسيلةٍ للتملّص منه: سأراسله...

وراسلته. ولكنّني لم أحسب حسابًا لمشكلة شائكة: كيف أستهلّ رسالتي؟ وجرّبت جميع الألفاظ، واحدة تلو الأُخرى، ولم أستحسن أيّة منها. وأخيرًا كتبت: «صباح الخير».

وكان لا بدّ من ختام، وبرزت المشكلة من جديد، ولكنّني تجاوزتها، ربّما بطيش، فكتبت: «إلى لقاءٍ قريب»!

* *

وكان الوقت متأخِّرًا، فخرجت، ودسست الظرف تحت شقّ باب الحكيم، ولُذْتُ، سريعًا، بالفرار.

فقد كنت أخشى أن يفتح بابه.

(٩)

كان ردّ الحكيم بين يديّ، وقد انتهى إليّ في الغد، وأدركت أنّه قد كتبه في آخر الليل أو عند الفجر.

وكنت فخورًا بامتلاك رسالة «منه»، فهذا يعني أنَّ لي شأنًا لديه. وربّما كان يكنّ لي بعض الحبّ. هذه الفكرة كانت تبعث في قلبي دفئًا رائعًا، ولكن سرعان ما نال الشكّ من تفاؤلي؛ فربّما كان يحبّ بدافع الواجب. كان يتوجّب عليه أن يحبّ بما أنّه كان يطالب الآخرين بأن يحبّوا.

ومع ذلك، كنت أكاد أرتجف وأنا أفتح الظرف، وقرأت:

«لو قالت النغمة: ليست النغمة هي التي تصنع موسيقى... لما وُجِدتْ سيمفونيّة.

ولو قالت الكلمة: ليست الكلمة هي التي تصنع صفحة...لما وُجِد كتاب،

ولو قال الحجر: ليس الحجر هو الذي يبني جدارًا... لما قام بيت.

ولو قالت قطرة الماء: ليس بوسع قطرة ماء أن تؤلّف ساقية... لما كان هناك محيط.

ولو قالت حبّة القمح: ليس بوسع حبّة قمح بذر حقل... لما كان هناك حصاد.

ولو قال إنسان: ليس بوسع مبادرة حبٍّ واحدة إنقاذ البشريّة... لما قام أبدًا عدلٌ وسلام، ولا كرامةٌ وسعادةٌ، على أرض البشر».

* *

– قد تقول: «وما بوسعي أن أفعل؟»

– وأنا أقول لك: «أحبب بالفعل والحقيقة»، فالحبّ وحده قادرٌ على قهر الألم، وإنَّ وزن الحبّ الذي تسكبه في العالم، حتّى لو لم تشاهد ثماره، يرفد جسم البشريّة المنهك بدمٍ جديد.

– وقد تقول، أيضًا، : «وماذا عن الآخرين؟».

– وأنا أقول لك: هم أيضًا، عليهم أن يحبّوا.

– وقد تفكّر: وماذا لو هم أحجموا؟

– «أَحبب أكثر، فيشرع آخرون من حولك يحبّون. إنّهم، مثلك، ينتظرون أن يضع أخٌ قريب منهم الحجر الأوّل. وسيضعون حجرهم، إن أنت وضعت حجرك، فمن يحبّ، يحمل على الحبّ.

ومثلما تحتاج السيمفونيّة إلى كلّ نغمة،

ومثلما يحتاج الكتاب إلى كلّ لفظة،

ومثلما يحتاج البيت إلى كلّ حجر،

ومثلما يحتاج المحيط إلى كلّ قطرة ماء،

ومثلما يحتاج الحصاد إلى كلّ حبّة قمح،

البشريّة بأكملها تحتاج إليك

حيثما كنت،

فأنت فريد،

ومن ثمّ، لا غنى عنك،

فماذا تنتظر، بعد، كي تلتزم؟»

(١٠)

وأعدت قراءة رسالة صديقي مثنًّى، وثلاثًا وأكثر...

كان الحكيم مصيبًا. كنت أفهمه، و«أُحسُّه». غير أنّي، مرّةً أُخرى، كنت أسبر ثِقَلَ كياني. كنت أتوق إلى السير، والجري، والطيران، غير أنّي كنت أظلُّ ملتصقًا بالأرض، جامدًا، ويغمرني الخزي، أكثر فأكثر.

كان، ثمّة، رجالٌ يتعيّن خلاصهم، وعالَمٌ يتعيّن بناؤه، وكان عليّ أن ألتزم، ولكن لم يكن بوسعي أن أرضى بألاّ أكون سوى قطرة ماءٍ في المحيط، وسوى حجرٍ في جدار، وسوى حبّة حنطةٍ في بيدر...

كنت توّاقًا إلى أن أكون أكثر من ذلك، وإلى أن أفعل أكثر من ذلك.

وكان يجول في خاطري: إنّ الأيّام تمضي، وأعجز عن اللحاق بها. وإنّني أُنفقها لصالحي، وليس في سبيل خدمة الآخرين.

وقد وطّنت العزم على ألاّ أعود أطرد صور الشقاء، وألاّ أُصمّ أُذنيّ عن صيحات المتألّمين. وبات لا طائل من إيصاد أبوابي: فالصور والصيحات كانت قد تغلغلت داخل منزلي، ولن تخرج منه أبدًا.

* *

وعدت لزيارة الحكيم. أَوَلم أكن قد وعدت برؤيته من جديد، «قريبًا»؟

وحدّق إليّ، صامتًا؛ لم تكن نظرته تنطوي على أيّة قسوة، أو إدانة، بل، كان يشعّ منها عطفٌ لا نهاية له، يُشيع فيّ الطمأنينة. أمامه لم أكن أشعر أنّني مدان، بل مدعوّ.

كان ينتظر أن أتكلّم. ولم أكن أُطيق البدء بالحوار، إذ كنت أبحث، دائمًا، عن كلماتي الأولى التي كانت متردّدة، خرقاء. وعندما كانت تظهر، خجولاً، متعثّرةً، في فسحة الصمت المرهِق، كنت أخجل من تفاهتها وأتمنّى أن أعيدها إلى مكمنها.

وقلت متلعثمًا: ... أشكر لك رسالتك.

فأجاب برقّة، بل أكاد أقول «بحنان»، لكي يُظهر لي أنّه لم يكن غاضبًا:

«كنت أوثر، يا صغيري، أن أسمعك، وأتحدّث إليك، وجهًا لوجه.»

ورحت أبحث عن عذر، ولكنّني لم أَستطع أن أعترف للحكيم أنّني كنت خائفًا منه. لم أكن خائفًا من شخصه الذي كنت أتهيّبه وأنجذب إليه، في آنٍ واحد، بقدر ما كنت أخاف من النور الذي يُضرمه فيّ، والذي كان يقسِرني على الرؤية أبعدَ من ضبابي، في حين كانت قوّةٌ جديدة، مقلقة، تنبعث في أغوار كياني، وتدفعني، بلا رحمة، خارج قوقعتي. وأكّدت له، وأنا غير مقتنع: «لم أكن أريد إزعاجك، فمشاغلك كثيرة جدًّا»!

وبدرت من الحكيم بسمةٌ مكتومة ضقتُ بها، لأنّني أدركت أنّ أقوالي لم تخدعه. واعتراني الخجل، فغطّيت محيّاي براحتيّ عساني أخفي تأثُّري.

وأَهداني صديقي فسحة وقتٍ قصيرة، كفيلة بمساعدتي على استعادة جأشي، ثمّ سمعته يقول بصوتٍ ثابت:

— «قد يحدث، في بعض الأيّام، ألاّ أستطيع الإسهاب في التحدّث إليك. ولكنّني، آنذاك، سأصارحك بذلك. ولكنّك لن تزعجني أبدًا، يا صغيري، أبدًا. والوقت الذي سأهبك سيكون وقتًا لك، وبعضًا من حياتي لأجلك.»

وصدّقته، وبذلك شعرت أنّني اجتزت شأوًا بعيدًا. وبعد أن غمرتني الطمأنينة والسعادة، قرّرت أن أطرح عليه أسئلتي.

* *

وشرعت بالسؤال :

– يا صديقي، كيف لي أن أعرف ما يتوجبّ عليّ أن «أكون»؟

– «ستعرف ذلك، وأنت تكبر...

هكذا الشجرة وهي تنمو؛ فلو هي كانت تدرك، لما اكتشفت إلاّ شيئًا فشيئًا ماذا تصبح أو ماذا ينبغي أن تصبح عليه: دلبة، أو سنديانة، أو حورة. ولو رغبت الدلبة في أن تصبح سنديانة، أو شاءت السنديانة أن تصبح حورة لما استطاعت، ولو استطاعت، لكانت تعيسة، لأنّها لن تكون مرتاحة داخل قشرتها».

«كن ما أنت». إغتنِ بالآخرين، ولكن لا تكن لهم نسخة. فالآخرون بحاجةٍ إليك. لا تكن حياتك تمثيلاً، فحتّى لو نجح «شخصك»، فالعالم في حاجة إلى حياتك، لا إلى «مسرحيّتك».

– وكيف لي أن أعرف ما يتعيّن عليّ «فعله»؟

– «ستعرف وأنت تكبر، حيث ستكون، وفي اللحظة التي ستعيش فيها، ومع الأشخاص المحيقين بك... كالشجرة».

وتخشّع الحكيم، برهةً، ثمّ استأنف، وكأنّه يلقي، ببطء، ما يشبه قصيدة. وكنت أستعذب موسيقى كلماته التي كانت تتناثر، واحدةً فواحدة، من شفتيه، مثل حَمامات يحملها النسيم الخفيف، أو تهزّها، بعنف، رياح هواه، وكنت أُصغي :

«أيّتها الشجرة،

الشجرة المتينة الجميلة،

أُغرسي في التربة جذورك،

إذ لا حياة لك بمعزلٍ عن الجذور والتربة.

واغرسي أغصانك في السماء،

فمن غير أغصان، ومن غير سماء، لن تقوَيْ على العيش،

علَّ جذورك في الأرض، وجذورك في السماء،

تأكل وتشرب خصب التربة والماء، والهواء والشمس.

* *

أيَّتها الشجرة، يا صديقتي، إنمي من أجلك، ومن أجلي، ومن أجل جميع البشر فنحن في حاجةٍ إليكِ

لكي نتنفّس، وندفأ،

ونوفّر الملجأ والأثاث،

لكي نتحابّ وننام،

لكي نعيش ونموت.

* *

لستِ وحيدةً في العالم، أيَّتها الشجرة، بل أَنت جماعةٌ في غابةٍ كثيفة.

مع أخواتك، أنصتي إلى ضجيج المدينة الذي يزوّده الضحك بأجنحة، وتُثقله الدموع.

بأغصانك المنبسطة، مثل سواعد ممدودة تعبّر عن جاهزيَّتها،

استقبلي البشر الذين يهرعون إليك، فهم سيُخصبونك، وأنت تهبينهم الحياة.

ولكن كوني ذاتك، واطردي الكواسر التي لا تقيم لك حرمة، وتسعى إلى استغلالك في سبيل ملذّاتها ومغانمها.

إن كان قلبك الـمُشرَع قد وُجد لكي يكون لبيتٍ سقفًا، فارفضي النار التي تودّ أن تستمدّ من جسدك دفئًا،

وإن تعيّن عليك أن تظلّلي بفيئك عبث الأطفال، في الغابة الكثيفة، فارفضي أن تكوني مكتبًا لطالب، أو مقعدًا لشيخٍ مسنّ.

وإن كان عليك أن تصبحي، يومًا، هيكلاً للكاهن، فارفضي أن تكوني مائدةً للأسرة، أو سريرًا للعشّاق.

* *

أختي الشجرة،
اغمُسي جذورك في الأرض
وجذورك في السماء،
كوني الشجرة التي عليك أن تكونيها،
ولكن كوني شجرةً للآخرين».

وعندما فرغ من إلقائه، قلت له:

– أخشى، يا صديقي، ألاّ أكون قد فهمت كلّ شيء من قصيدتك. فهل تفضّلت بتفسيرها لي.

– كلاّ يا صغيري. بل عِش، واكبر، ثمّ اسأل قلبك وهو سيعلّمك. وكما لو كان يحدّث نفسه، أضاف بصوتٍ خافت: ربّما ألقيتُ الكثير من البذار، والبَذْر الكثيف يمنع البذرة من النموّ. ثم التفت إليّ من جديد، وقال أيضًا:

– عدْ إليّ من جديد. فلدينا العديد من الكلمات التي ينبغي إيداعها الأرض، وعلينا أن نُعِدّ لها الكثير من الأثلام. ولكن لا تُغفل إعداد الأرض، فلا طائل من البذْر، إن لم تكن الأرض محروثة...

ولّما انتهيت إلى العتبة، استدعاني من جديد وقال:

– تذكّر: «جذورك في الأرض، وجذورك في السماء».

وصمت، مرّةً أُخرى، وبدا متردّدًا، ثمّ أستأنف القول بصوتٍ خفيض:

«... ولكن هل تعرف سماءك؟...»

* *

وأَغلق الباب، وبتّ وحيدًا، أحمل، بين يديّ، سؤاله الأخير.

(١١)

وشيئًا فشيئًا بتُّ أدرك أقوال الحكيم، التي كانت تنبت في قلبي، كما تنبت البذور في الأرض، ومع أنّني لم أتبيّن حَمْلها البطيء، كنت أكتشف، كلّ يوم، ثمارها.

كنت أحيا، وأحيانًا كنت سعيدًا بالحياة، وكانت تلك، لي، تجربةً جديدة، وكنت أدرك، أكثر فأكثر، أنّ تفكيري الطويل الكئيب، وكذلك أحلامي المجنونة، كانت تلتهم وقت حياتي، ولا تغذّيها.

وغالبًا ما كنت ألحظ أنّني «هنا»، مع أنّني كنت غائبًا، وعيناي المغمضتان تبحثان في ليل قلبي، عن حقيقة كياني، وعن دليل طريق، ولكن عبثًا.

وعندما، أخيرًا، كنت أفتح جفوني، لم أكن أتلقّى نور الواقع الفجّ، بل كنت أحدّق، على نحوٍ مبهم، إلى شبه شاشةٍ سرّيّة، تتلاحق عليها بلا انقطاع، بالأبيض والأسود والألوان، صُوَرأحلامي.

أجل، كان عليّ أن أحيا، ولكي أحيا كان عليّ أن أتحرّر، **وألتحق بأرضي**. كنت أكتشفها وأكتشف جذوري. ألم أكن أحمق عندما تجاهلتها ورفضتها؟

وكيف كان لي أن أحيا، وأنا لا أقوى على الحياة بمعزلٍ عنها؟

كنت سنديانةً أو دلبة، فعليّ أن أكون سنديانةً أو دلبة.

كنت مغروسًا «هنا». و«هنا»، سأنبت وأُثمر.

أرضي الأمّ كانت واقع حياتي: أسرتي، بيئتي، عملي، حيّي، تسلياتي... وكانت، أيضًا، الأشخاص المحيقين بي، الذين أُحبّهم، والذين لا أُحبّهم؛ وكانت فترة عيشي، والأحداث، صغارها وكبارها، التي تحيق بي، وتمسّني، وتستدعيني.

وعزمت على أن أكون حاضرًا. ولكن ما أعسر أن يكون المرء «هنا»: جذوره راسخة في الأرض، وغصونه ممتدّة إلى السماء!

.... السماء؟

كان الحكيم مصيبًا، أيضًا، فأيَّةً كانت سمائي؟

سأعرف ذلك... وأنا أكبر .

وكنت أدرك، أيضًا، أنّني لم أكن وحيدًا، بل جماعة، مثل شجرةٍ في غابة. حينئذٍ كان رأسي يعرف ذلك، ولكنّ عينيّ، وأذنيّ، ويديّ تجهله. فمن يحدّق إلى ذاته، لا يستطيع التحديق إلى الآخر، ومن يصغي إلى ذاته، لا يستطيع الإصغاء إلى الآخر.

ولكنّني شرعت أقابل هؤلاء «الآخرين»، و«ألمس» حياتهم، وأدعهم «يلمسونني».

ولكن بقدر اقترابي من الآخرين، كنت أسمع، أكثر فأكثر، نداآتهم. واتّضح لي أنّه لزمني وقتٌ طويل كي أدرك أنّ فُرَص «الالتزام» كانت بمتناول يدي، كلّ يوم، على مقربةٍ منيّ، ومن حولي. وكان يبدو لي ذلك الالتزام أكثر فأكثر ضرورة، ولكنّه أكثر فأكثر صعوبة، وعديم الفاعليّة. غير أنّني بتُّ أرفض الحلم بحقل الحصاد الفسيح، طالما حبستُ، في يدي، حبّة البذار، وأَقلعت عن النقاش الحادّ في بناء «المجمّع العظيم»، وأنا أحتفظ بآجرّتي، ملقاةً عند قدميّ، بلا فائدة.

كلّ ذلك، كانت أقوال الحكيم قد أوضحته لي؛ واليوم، بتّ، أنا، أقوله وأردّده.

* *

وبقي عليّ أن أنفّذ.

وحاولت أن «أخرج من ذاتي» كي أمضي إلى الآخرين. وكنت أستشفّ كم التفاوت المذلّ بين الفهم والتنفيذ قد يكون دعوةً للنضال، أو مصدر إحباط.

واخترت الكفاح، مدركًا أنّه، حقًّا، كفاحٌ جديرٌ بإنسان.

وعوضًا عن التطلّع إلى الكفاح «بعيدًا»، دفعني إخلاصي لواقعي إلى الشروع من «هنا»؛ وعوضًا عن الطموح في أن أكون رئيس ورشة في مؤسَّسة كبرى، ارتضيت أن أكون، أوّلاً، عاملاً لدى مهنيّ.

وهكذا كنت أعلم، الآن، ما عليّ أن أفعله اليوم، وكنت واثقًا من أنّني لو بقيت أمينًا، فسأكتشف، وأنا أكبر، ما يتوجّب عليّ عمله في الغد.

* *

ومع ذلك قرّرت أن أتريّث، أسابيع عديدة، قبل أن أرى الحكيم من جديد. فقد كنت حريصًا على ألاّ ألتقيه قبل أن أكون قد حرثت أرضي.

(١٢)

لم يكن كلّ شيء قد اتّضح. وما زال، في قلبي وفي حياتي، مساحات ظلٍّ فسيحة، كنت أخشاها، فقد تقودني إلى التيه، من جديد، في غياهب الليل!

وما زلت أتهيّب النور، الذي ينتصرعلى ذلك الليل، ويقسِرني على مواصلة دربي.

كنت أسير، سعيدًا بالسير، ولكنّني شرعت أتوجّس خشيةً من ألاّ أستطيع الجلوس من بعد.

بعض أقوال الحكيم كانت تؤرّقني على نحوٍ خاصّ، ولا سيّما وإنّني كنت أستشعر أنّها تخفي شيئًا جوهريًّا مثلما تخفي الشجرة نُسغَها. ذلك النسغ الذي هو حياة، ولكنّه لا يُسفر عن وجوده إلاّ عندما يُقطِّره غصنٌ مكسور.

الحبّ هو علّة الوجود، ونسغ الإنسان. كان ذلك يقينًا راسخًا لدى الحكيم الذي تمتم: «الإنسان صُنع بحبّ، من أجل الحبّ»

وكنت بعيدًا عن مقاسمته هذا اليقين.

* *

فأوّلاً، هل أنا نفسي «صُنعتُ بحبّ؟»

في صغري، كانت أمّي، في طاعةٍ عمياء لكلّ ما يوعَز إليها به، قد شرحت لي بوضوح «أسرار الحياة»؛ ونادرًا ما حذا أبي حذْوَها. وكان شرحها من الوضوح «والطبيعيّة» - فهكذا كان يُقال إنّه ينبغي أن يتمّ التفسير - بحيث لم أكن أجد أيّ شيءٍ سرّيٍّ في تلك الأسرار.

ولكنّني كنت قد أدركتُ، وحفظتُ، أنّ بوسع الأهل إنجاب طفلٍ لم يرغبوا فيه...

وكنت أعرف السبب: إغفال، أو خطأ، أو ضعف... وحينئذٍ، وأنا متقوقع على ذاتي في زاوية الغرفة، وقد شلّني السأم، أو متكوّر في حفرة سريري، بانتظار تحيّة مساءٍ تتلكّأ في المجيء، كنت أطرح على نفسي هذا السؤال الحارق: هل كنت ولدًا مرغوبًا فيه، أم لم أكن سوى ولدٍ استُقبل واعتُرف به، بعد أن غدا مجيئُه أمرًا واقعًا؟ وإن كنت، حقًّا، ثمرة حبّ والديَّ، فلمَ لم يمتلكا قدرًا كافيًا من الحبّ الذي يهب الحياة، كي يقدّما لي أخًا كنت شديد الرغبة فيه، سواء بدافعٍ أنانيٍّ مؤكّد، كي أعبث معه، أو، أيضًا، لكي أحبّه؟ فيما بعد، أثناء كهولتي، علمت مثل الجميع، أنّ الإنسان قد اكتسب «حقّ» تدمير الحياة التي لا يرغب فيها، وأنّه بات بوسعه أن يكون له فقط الأبناء الذين يرغب فيهم، بما أنّه بات قادرًا على إلغاء... أخطائه!

لقد شقّ عليّ الاعتراف بأنّ ذلك كان نصرًا مبينًا، مع أنّ والدي قد احتفل به، في حين التزمت والدتي الصمت. وجال في خاطري: وماذا لو كان لديهما هذا «الحقّ» في زمني؟ ومن غير نفقات....؟ هل كنت الآن موجودًا؟

ولم أجسر على الإجابة.

إنَّ الكبار لا يشكّون بما يجول في رؤوس أبنائهم وفي قلوبهم!

* *

اليوم كانت المشكلة لي أكثر تشعُّبًا، وكان مجرّد إعمال الفكر فيها يضرم بركان ثوراتي. إذ كيف يمكن القول إنّ عشرات ملايين الأطفال في البلدان المتخلّفة، قد صُنعوا بحبّ، وهم الذين حُكم عليهم أن يموتوا قبل الأوان! ياله من إجهاضٍ جماعيّ، لم يُندَّد به، في رأيي، بما يستحقّ من عنف!

وكيف يمكن القول إنّ البشر قد «خُلقوا من أجل الحبّ»، في حين هم يعيشون من أجل ذواتهم، يستغلّون بعضهم بعضًا، ويقتلون بعضهم بعضًا؟

لا، لم يكن بوسعي القبول بأقوال الحكيم هذه!

... ومع ذلك، كان الحكيم قد أفهمني، وكنت قد تبيَّنت بنفسي، أنّ الحبّ هو جوهر الإنسان.

الحبّ، هو، في أعماق كياني، الطاقة الخارقة التي تحمله على السير، والسعي، والنضال، والحياة. وهو تلك النفحة السرّيّة التي، بانتزاعه من ثقل رغباته، تؤهِّله للتضحية بحياته. وهو أخيرًا، كما كنت أختبر بألم، ذلك الجوع السرّيّ، وذلك العطش المقيم، الذي لا يرتوي أبدًا، والذي يولد دائمًا من جديد.

وحينئذٍ، كان يستعصي عليّ الفهم.

أوَلم نكن ممثّلين مُجبرين على المشاركة في مسرحيّةٍ جسيمةٍ خرقاء؟ فقد صُنعنا من أجل الحبّ، ولكنّنا عاجزون عن الحبّ! محكومٌ علينا أن نرغب دائمًا، وأن نحاول السعي إلى ما لن نبلغه أبدًا.

والبشريّة!

مسكينة هذه البشريّة، وهي ضحيّةُ هزليّةٍ مريعة! وحتّى متى ستتمادى آلامها؟

ما لم يختزل مجنونٌ، أو رجلٌ جريء، زمَن آلامها – فليس للإنسان قِبَلٌ على ذلك – بإفنائها وإفناء أرضها الأمّ، المنهكة هي أيضًا.

يا لها من فكرةٍ وحشيّة!

أوَلا يكون الحبّ، في الواقع، سوى حلمٍ جميلٍ يراود ولدًا، حلمٍ يصلح لأَولادٍ عاقلين؟

* *

كنت قد جئت إلى الحكيم لأبوح له بكلّ ذلك، راجيًا أن ينيرني ويهدّئ العاصفة التي كانت تتصاعد في داخلي، كلّما أوغلت في الحديث.

وكنت أخشى على مركبتي الهشّة، بعد أن انطلقت في اليمّ، فوق أمواجٍ صاخبة، من أن تحنّ إلى المرفأ، وتسعى إلى الفزع إليه.

ولم يهدّئ الحكيم عاصفتي، بل، على نقيض ذلك، انضمّ إليّ فيها، ولكأنّه يعانقها.

وفيما كنت أتحدّث عن الحبّ، وأبسط ثوراتي وشكوكي، قاطعني فجأة، وتضرَّج بالحمرة محيّاه الذي يكسوه، عادةً، الشحوب، واتّقدت عيناه بنورٍ لم أكن أَعهده. وأعتقد أنَّ الغضب هو الذي كان يلتهب فيه. وغدا صوته جهيرًا، قاسيًا، وهتف:

– «إنَّك مصيبٌ يا بنيّ، فكثيرون من البشر، اليوم، ينتهكون حرمة الحبّ، وكثيرون فقدوا الإيمان به. وهم، بذلك، يعرّضون العالَم للخطر، أكثر ممّا يفعلون بتخزين قنابل الرعب؛ فمن قبلُ، كان يبقى لهم الحبّ، أمّا اليوم فما الذي بقي من الحبّ؟

كان هناك «شكّ» الفلاسفة، الذي يدمّر، بلا رحمة، دائبًا على زعزعة الأدمغة المتكبّرة، وتدمير أكثر قواعد الإيمان رسوخًا، ببطء.

ولكن كان يبقى الحبّ في قلب بشرٍ مندفعين،

وكان هناك في العالم، الجوع، والأمّيّة، والتخلّف .

ولكن كان يبقى الحبّ غير المقهور، الذي يضع بين يدي البشر أسلحةً تؤهّلهم لمعارك الحياة.

وكانت، هناك، قيودٌ تكبّل الحرّيّة، ولامساواة، ومظالم،
ولكن كان يبقى الحبّ الكامن في أعماق الأجساد المقيّدة، حبٌّ لا تطاله أصابع الطغاة والجلاّدين الملطّخة بالدم.

كانت هناك صراعاتٌ، وحروبٌ وأموات،

ولكن كان يبقى الحبّ، حبٌّ نازف، حبٌّ منتحب، ولكنّه حبٌّ حيّ... وها إنَّ الحبّ يصاب في قلب قلبه.

الحبّ «المتحرّر» يتفجّر في جهات الإنسان الأربع،

وفيما جسده يمارس الحبّ، يتيه قلبه بعيدًا،

ويبحث قلبه عن الحبّ، في حين هو يكتفي بعناق جسد.

بات الحبّ يُعلَّم كما تُعلَّم الرياضة،

ويُنتزَع من مخدع العشّاق كي يُعرَض في الساحة العامّة، ويُعلن عنه بين إعلانٍ عن آخر مسرحيّة، وإعلانٍ عن طعامٍ للكلاب،

ويُعرض على شاشةٍ كبيرة، حيث الأضواء مسلطةٌ على الجنس، من أجل إثارة مهووسين محرومين.

الحبّ في السوق: كاسيتات وصور؛ أضواء حمراء، ودمىً من هواء، من أجل أُسرٍ منطفئة، وأجسادٍ ميتة،

الحبّ يُعرض للبيع على الأرصفة، حسب الطلب: كلّما كثر مالك، حصلت على مزيدٍ من الحبّ.

الحبّ شُوِّه، وخُنِقَ، وتحجّر، وأصبح شيئًا؛

وفُتات هذا الشيء منثور في كلّ مكان، في وحل الطرقات.

كان يبقى الحبّ....

ولكنّ الحبّ، اليوم، نارٌ تنطفئ،

في حين أنَّ قومًا عراة، مرتجفي الشفاه، محمومي العيون، يموتون بردًا وهم يضغطون، بين أصابعهم النهمة، نُتفًا من هذا الشيء الذي يُصرّون، في نزاعهم، على تسميته «حبًّا».

وقال الحكيم، أيضًا: «يا لنا من بشرٍ تعيسين، فنحن لا نعلم أنّنا بقتلنا الحبّ، نقتل الحياة!».

* *

لحسن طالعي، كان الحكيم قد أشاح بصره عنيّ، إذ لم أعد أُطيق نظراته. كان مطرقًا بحيث لا أرى سوى شعره الجميل الأبيض تتسحّب فوقه بعض انعكاسات ضوء، بقايا أنوار نهارٍ يُحتضَر.

وعندما تجلّى محيّاه من جديد لعينيّ، دهشت، فلقد كان استعاد ذلك السكون وذلك السلام اللّذين باتا لديّ مألوفَيْن.

واكتفى بتمتمة: «وا اسفاه، واحرّ قلباه!.... ولكنّني أعلم، وأومن، بكلّ قواي، أنَّ الغلبة للحبّ».

... ومرّةً أُخرى كنت مضطربًا، أضيقُ ذرعًا برأسي حيث كانت طبقاتٌ كثيفةٌ من الضباب تكتنف النور الوليد، وأعاني من قلبي الممزّق، الذي كان يتحرّق رغبةً في الإيمان، وكنت أقول في ذاتي: أجل، هناك سرّ، لا محالة.

هناك سرّ حبّ هو سرّ الحياة... وهذا السرّ يعرفه الحكيم .

ولكن لِمَ، لِمَ لا يكشفه لي؟.

(١٣)

وعزمتُ على المضيّ بحثًا عن السرّ.

ولكن ما مقدار معرفتي للحبّ؟

كان الحبّ، لي، هو كلّ ما قال لي عنه الحكيم، وقد بتّ أُدركه على نحوٍ أفضل مذ شرع صديقي يفتح عينيّ، شيئًا فشيئًا. ولكنّ الحبّ ما برح في نظري حلم الأزواج، حلمًا قد يتحقّق أو قد يُمنى بخيبةٍ ذريعة، وهو حنان الأمهّات، وقوّة الآباء، من أجل أبناء أعزّاء؛ وهو الصداقة المرتجاة، ولكنّها، غالبًا، متعذّرة، أو هي مبعث خيبة آمال. والحبّ في نظري، إلى ذلك، ومنذ وقتٍ طويل، وكلّ يوم أكثر، هو رغبةٌ في «الفتاة» التي كانت تمرّ في دربي الموحش، التي كنت أهاجمها أو أداعبها بنظري، التماسًا لنظرة، أو التي ألامسها بشفتيّ المصابتين فجأة بالخجل، أو التي ألمسها وأجسّها بأصابعي المتحرّرة، أو التي أحاول أحيانًا أن أستولي عليها بذراعيّ المهتاجتين.

غير أنّ الحبّ كان لي، أيضًا، أكثر من ذلك، ما يتخطّى الأزواج، والوالدين، والأصدقاء، و«الفتيات»، وفرح القلوب، ورعشة الأجساد، كان...

لست أدري .

... كان جزيرتي المجهولة، ومرفإي في الليل،

جوعي وعطشي، وأبحاثي وصراعاتي،

جروحي وآلامي، وندمي...

كان رغبتي وعذابي، القادمان من حيث لا أَدري، والميّمان إلى حيث لا أدري.

وما الذي كنت أعرفه عن الحبّ؟

* *

وقال لي الحكيم:

- «***الحبّ يتخطّى الحبّ، يا صغيري.***

الحبّ هو خفق جناحَيْ عصفور في سماءٍ بلا حدود،

ولكنّ طيران العصفور، هو أكثر من ذلك المخلوق الصغير، المترنّح في الأجواء، وأكثر من جناحيه العاشقين اللّذين تغازلهما الريح، وأكثر من الفرح الذي لا يوصف عندما يموت خفقان الأجنحة، ويسبح الجسد بسلامٍ في الضوء.

الحبّ هو غناء الكمان، الذي يُنشد نشيد العالم،
غير أنّ غناء الكمان هو أكثر من الخشب والقوس،
وأكثر من النغمات المتأنّقة التي تتراقص على التقاسيم،
وأكثر من أصابع الفنّان التي تسري فوق الأوتار.

الحبّ هو نورٌ على دروب البشر.
غير أنّ النور المبذول، هو أكثر من دعاباتٍ صباحيّة تفتح عيون الليل،
وأكثر من أشعّة نارٍ تدفئ الأجساد،
وأكثر من ألف ريشة حرير تلوّن الوجوه.

الحبّ ساقيةٌ من فضّة تسري نحو البحر،

ولكنّ الساقية الحيّة، التي تتباطأ أو تستعجل، هي أكثر من مجراها المضياف، الغِمد الذي لا يحتفظ بسيفه،

وأكثر من الماء الذين يتضرّج بالأرجوان تحت أنظار المغيب،

وأكثر من الإنسان الواقف عند الحافّة، ملقيًا طُعمه لأجل التقاط ثمار النهر.

الحبّ سفينةٌ شراعيّةٌ فوق الماء، تشقّ الأمواج،

ولكنَّ جري السفينة هو أكثر من مقدّمها المفتون، الذي يقتحم اليمّ مستسلمًا أو مناضلاً،

وأكثر من الأشرعة المرتعشة تحت دعابات النسيم أو صفعات الريح،

وأكثر من يدَي البحّار، الملتصقتين بالدفّة، اللّتين تلاحقان، بلا هوادة، محبوبةً متوحّشة.

.... الحبّ يتجاوز الحبّ

الحبّ نفحةٌ لانهائيّة، تأتي من عالمٍ آخر وتطير نحو عالمٍ آخر،

الحبّ هو روح إنسانٍ يعرف النفحة ويتعرَّفها،

إِنّه حرّيّة إنسانٍ تلتفت بأكملها نحو تلك *النفحة*؛

الحبّ هو تلبية الإنسان لدعوتها ،

وقلب الإنسان المشرع لاستقبالها، وإعطائها،

إِنّه جسد الإِنسان الذي يتخشّع ، جاهزًا ، وقد سكنته النفحة ، وغمرته ، لكي يطير نحو الآخرين، نحو... الآخر.

وفي نهاية المطاف،
فليلتقِ ويتوافق كلّ ما تباعد،
وليتوحّد كلّ ما انفصل،
ولتنبجس من الواحد حياةٌ جديدة».

فهتفت قائلاً:

– «يا صديقي، اكشف لي عن هويّة تلك النفحة القويّة السرّيّة، فأُشرع قلبي، وأقدّم جسدي، للنفحة التي أنتظرها، لكي يعيش فرحي ولكي تحيا ***حياتي***.

* *

وتخشّع الحكيم، وأغمض عينيه، صامتًا.

ولم أَضق بصمته ذرعًا، بل على نقيض ذلك، كنت أعلم، الآن، أنّه فجر شمسٍ مشرقة. ولكنّ صمته، يومها، تمادى.

كنت أراقب صديقي فألحظ، دهشًا، أنّ محيّاه لا يفقد شيئًا من تعبيره، وهو مغمض العينين. كان وقورًا، ثابتًا، شبه مجمّد، وبغتةً شرعت شفتاه تتحرّكان برقّة، وكأنّه كان يهمس، وانفرجت أساريره شيئًا فشيئًا، وسَرَت رعشة حياةٍ على وجهه، مثلما تحرّك نسمةٌ خفيفة حقل قمح، ثمّ تغيّرت ملامحه، وغدا محيّاه مشرقًا، شفّافًا، وكأنّ نورًا سرّيًّا قد اتّقد في داخله.

ثمّ فتح عينيه، وأطال فيّ النظر وقال:

– صلِّ، يا بنيّ، صلِّ.

ثمّ نهض وواكبني حتّى الباب،

وخرجت صامتًا، وفاتني أن أودّعهُ.

(١٤)

أن أصلّي؟ أنا؟

كان طلبُ الحكيم قد أذهلني، ولكنّني لم أستغربه، إذ كنتُ واثقًا من أنّه كان شديد الإيمان. لم يقل لي ذلك، ولكنّني قد أدركته منذ لقاآتنا الأولى.

الكلمات تحمل النفس، والنفوس الحيّة تُسرّب حياتها من خلال الكلمات.

كان الحكيم يهبني شيئًا من حياته، وحياته كانت غنيّةً بحياةٍ أَجهلها، ولكنّني كنت أختبرها من خلاله، إذ لم يكن بوسعي الاعتقاد أنّ النور الذي يُشيعه في قلبي، والقوّة التي يبعثها فيّ، كانا يأتيان منه فحسب. فما من شجرةٍ تؤتي ثمرًا إن لم يسكنها النسغ.

لم يكن صديقي يتحدّث عن الله ولكنّني كنت واثقًا من أنّه يعيش به، وأنّه كان يصلّي.

ولكن هل كان عليّ، أنا أيضًا، أن أُصلّي؟ وهل كانت الصلاة ضروريَّةً لاكتشاف عمق الحبّ؟... كان الأمر مستغلقًا على إدراكي .

* *

كنت أومن بالله، لا لأنّ والديّ كانا يؤمنان به – كان إيمان أمّي راسخًا، وإيمان والدي مُبهَمًا – ولكن لأنّني كنتُ أَرفض أن أكون معلّقًا في العدم، قادمًا من (لا مكان)، وماضيًا إلى (لا مكان)، نهرًا لا نبع له، وطريقًا مسدودًا. كنت أرفض أن أكون ثمرة مليارات الصدف، ألف مرّة أكثر «إعجازًا» من جميع المعجزات التي حدّثوني عنها، أثناء التعليم الدينيّ. كنت أرفض ألاّ يكون فكري سوى تفاعلات بعض حوامض في جسدي المعرّض للموت. وكنت أرفض أن

تموت، إلى الأبد، علاقتي الرقيقة بجدّيَّ، التي رسّخها حبّي الطفوليّ المجنون لهما، عندما يتوقّف قلبهما عن الخفقان، ويصبح جسدهما ترابًا في أرض مُغْفَلة.

كنت قد أعملت الفكر في كلّ ذلك، وفي أشياء أخرى كثيرة، مطوّلاً، وبجدّ، ولكن وحدي، في وحدةٍ مطلقة، مثل مكتشفٍ وحيدٍ يتوغّل في غابةٍ كثيفةٍ بكر، بحثًا عن نبع نهرٍ سرّيّ.

ولافتقاري إلى الرفاق، والنصيحة، والبوصلة، كنت تائهًا، وفقدت العزم، فأقلعت عن البحث، مُحبَطًا.

ولكنّني كنت مؤمنًا بالنبع، وذلك هو الجوهريّ. كان بوسعي أن أعيش، وأنا لا أعلم عنه شيئًا: فكثيرون من البشر يعيشون على هذا النحو، ومع ذلك يعيشون.

ومع ذلك، بين حينٍ وحين، كانت تعود فتستبدّ بي رغبةٌ حارقةٌ عنيفةٌ في المضيّ بحثًا عن منشإي – عن إلهي – ولكأنّها دعوة.

قبل لقائي الحكيم كانت تلك الدعوة قد باتت لا تقاوَم، وكانت تتفجّر وسط همومي، وسأمي من العيش، من غير أن أعرف لعيشي سبباً.

كنت قد تطوّرت. وما عدت أبحث عن شيء، بل أبحث، أكثر فأكثر، عن أحد، مثل ولدٍ أنجَبَهُ أَبٌ مجهول، وبات لا يُطيق العيش، قبل أن يعرف اسم أبيه، ويشاهد وجهه.

بفضل الحكيم كنت أتمنّى، بكلّ قواي، أن يكون ذلك الوجه وجه حبّ. وكان يزيد من اضطرابي أنّ ذلك لم يكن متوافقًا مع الصورة الراسخة في ذاكرتي عن إله صباي، كما «علّموني» إيّاه، والتي لم أكن قادرًا على التخلّص منها تمامًا. فهذا اللّٰه كان إلهي، الذي لا أرتاب فيه، إذ لم يكن لي سواه. وكان لا بدّ من أن أؤمن به، وأحيا معه، من غير إدراك، ولا حبّ.

ولذلك كنت أجد من الأسهل محاولة إغفاله . الإله الذي كنت أؤمن به، هو الكلّيّ القدرة، الخالق، السيّد المطلق: منذ الأزل كان يمسك بكلّ السلطات، وبالتالي يوزّع إنعاماته، كما يحلو له، وفقًا لمعايير مجهولة، كنت عاجزًا عن إماطة اللثام عنها، غير أنّها كانت تبدو لي مجحفةً إجحافًا ذريعًا. كان سيّد الحياة والموت، يحاكم، ويدين، وخصوصًا، خصوصًا، كان يدع الإنسان يعاني آلامًا مريعة. وربّما كان هو الذي يعذّب إذ كنت أسمع مؤمنين يؤكّدون: «لقد أرسل لي الله تلك المحنة... هذه هي مشيئته»؛ وكان الاستسلام لتلك المشيئة قمّة الإيمان.

وأنا لم أكن أسلّم بذلك... كنت أؤمن بالله... ولكنّني لم أكن أمتلك إيمان المسيحيّين، ومع ذلك، أعترف أنّه كان يتّفق لي أن أصلّي، بدافع الحاجة أو الخوف. كنت أحاول الحصول على نِعَم ذلك الله الكلّيّ القدرة. مرّاتٍ عديدةً ظننت أنّه قد استجاب لي، ولكنّني، في الغالب، كنت أصطدم بصمته الرهيب، وأُمنى بالإحباط.

ولكن منذ لقاآتي بالحكيم، راودتني الرغبة في الصلاة، لا بل شعرت بحاجةٍ إلى الصلاة، وكان ذلك غريبًا. لقد كنت أبحث عن مُحاوِر، وأبحث عن الله، بعد أن صَدَفت عن إلهي .

وكنت أقول له:

«بما أنّني مؤمنٌ بوجودك، يا إلهي المجهول،

أيُّها الذي يؤرّقني، الله الصامت،

اجعلني أعرف.

إن كنتُ، اليومَ، أدعوك، فلست أفعل ذلك بغية الحصول على «شيء» ما، بل التماسًا للنور،

فأنا بحاجةٍ إلى النور لكي أُضيء دربي،
والتماسًا للحبّ،
فأنا بحاجةٍ إلى من يحبّني، كي أستطيع، أخيرًا، أن أُحبّ.

يا إلهي المجهول
أنا لا أدركك، وأحقد عليك، ولا أحبّك ،
...ومع ذلك أودّ أن أُحبّك.
أجل، أودّ كثيرًا أن أُحبّك».

هكذا كنت أتجاسر فأخاطب الله، ولكنّني كنت خائفًا، أَوَليس ما أقوله كفرًا؟

* *

وعندما تولاّني القلق وكاشفت بالأمر صديقي، حدّقت إلى وجهه كما لم أفعل قطّ. ذلك الوجه الذي كان يتكلّم قبل أن تنفرج شفتاه. وتساءلت عمّا سيقوله لي ودهشت، فقد كان محتفظًا بسكونه، وفيما أنا ماضٍ في حديثي، كان يسكنه فرحٌ متعاظم .

وقال: «إنّها لجميلةٌ صلاتك هذه، يا صغيري.» وداهمني فرحه مثل ربيعٍ ينبعث بعد شتاءٍ طويل.

وكنت سعيدًا بفرحه الذي بات فرحي على نحوٍ لا يقاوَم، ومرّةً أُخرى، استغلق عليّ الأمر، فما الذي كان يجري فيّ فيولّد هذه السعادة العارمة؟

كان الليل ما برح مخيِّمًا،

واستشفّ الحكيم ما كان يجول بخاطري، فكما أسلفت، كان يخمّن كلّ

شيءٍ قبل أن أُعبّر عنه. في مستهلّ لقاآتي به كان ذلك يضايقني ويذلّني، كما يحدث لرجل يُقسَر على التعرّي أمام غرباء.. أمّا اليوم، فكنت سعيدًا بذلك، فالصديق يبتهج بصديقٍ ينفذ إلى أعماقه، متخطّيًا اللباس وضجيج الكلمات، فلا يعود بحاجة إلى التعبير عن ذاته، بل حَسْبُه أن يكون هنا. .

وقال لي الحكيم: «الليل الآن يخيّم عليك، ولكنّه ليل الميلاد، فابتهج: فاليوم يولد في قلبك، مثل طفلٍ، إله السماء والأرض الحقّ.

إنّه يأتي إليك، ويتوغّل فيك، لأنّك قلت «نَعَم» فتقبَّله وأحببه».

واعترضت:

– وكيف سأتعرّفه، وأنا لا أعرفه؟

– «عرِّ إلهك، يا صغيري، فإلهك ليس الإله الحقّ، وأنا مثلك، لن أستطيع السجود له.

إخلع عنه ثياب الكلّيّ القدرة، والديّان، والساحر، انتزع عنه كلّ مهازل التمويه التي دثَّره بها، في نظرك، العلماء، ورجال الشرائع والقوانين، وكذلك آراؤك المسبّقة، وعلمك الزائف، وخيالك، ورغباتك، ومخاوفك، وجُبْنُكَ؛ عرِّ إلهك، وعندما ستسقط، واحدةً فواحدة، كلُّ البهارج التي غطّت بطبقاتها المتراكمة الله الحقّ، حينئذ سيتجلّى لعينَي قلبك، وستعرفه، ***وسترى أنّ الله الحقّ ليس له سوى وجه واحد، وجه الحبّ العاري، يسوع المسيح***

العاري في المذود

العاري على الصليب».

ورفع الحكيم رأسه، وراح يحدّق أمامه، ولاحقت بصره، فرأيته يتأمَّل صليبًا رائعًا من الخشب المنحوت، مثبتًا على الحائط إزاءه، تجلّى منه وجهٌ مشعٌّ ليسوع، ميتًا، ولكنّه يحيا متخطّيًا الموت.

وعلمت آنذاك، علم يقينٍ مطلق، أنَّه به كان يؤمن، وأنّه، **هو**، من كان يحبّ. ثمّ قال الحكيم، وعيناه ما زالتا شاخصتين إلى الوجه الحبيب:

«هذا هو الإله الحقّ الذي جاء إلينا في شخص يسوع المسيح،

لا يلبس ثياب البشر،

ولا يمتلك قدرة البشر، ولا سلطتهم،

مُهمَلاً، مزدرًى، وحيدًا، عريانًا،

لكي يؤمن البشر، أخيرًا، ***أنّ الحبّ وحده يهب الحياة***، ويخلّص الحياة، ويجعل الحياة تزدهر في فرحٍ أبديّ.»

وصمت رفيقي، وأطرق، ورأيت شفتيه، من جديد، تتحرّكان برقّة، فأدركت أنّه كان يصلّي، واحترمتُ صلاته.

* *

وصلّى طويلاً، ولحظت أنّ الصمت لم يعد يزعجني، لا بل قد أضحى يبهجني، واستقررتُ فيه، استقراري في سرير سلام، وخرجت منه وقد داخلتني راحةٌ فريدة.

ولكنّ الحكيم رفع رأسه وقال، فجأةً، بصوتٍ مرتفع: «اغفر لهم، يا أبتاه، لأنّهم لا يعرفون ما يفعلون»،

«فهم لا يعرفون تعرّف الحبّ،

وينتهكون حرمة الحبّ،

ويقتلونه،

الأمس، واليوم، وغدًا،

فيك، يا ربّ، وفي أعضائك.

إغفر لهم، يا أبتاه، لأنّهم لا يعلمون ما يفعلون،

واغفر لنا، يا أبتاه. وأعِطنا الحبّ من جديد».

* *

وعاد فلاذ بالصمت، واسترسل في الصلاة،

وأطرقتُ، محاولاً أن أعيش داخليًّا، وأعتقد أنّني أنا، أيضًا، قد شرعت أصلّي، إذ شرعتُ أتمتم بغتةً:

«أيّها الآب، اغفر لي، لأنّني لم أكن أعرف ما أفعل».

ومنذ تلك اللحظة انتابتني الرغبة في أن أظفر بالغفران .

وقطعت، أنا، الصمت، هذه المرَّة، وقلت للحكيم:

إن كان الله الذي تتحدّث عنه طيّبًا، فأنا مستعدٌّ لحبّه، فما أجمل أن يكون الله قريبًا جدًّا، ولا يوحي بالخوف!...

«ولكن كيف يسعني أن أومن بهذا الإله المغرق في الفقر، والبعيد كلّ البعد عن إلهي، ذاك الذي كنت أومن به ولا أحبّه.

وأجابني الحكيم:

– «امضِ إلى الآخرين، يا صغيري... وواصل الصلاة،» إذ لا يأتي إلى يسوع أحدٌ ما لم يجتذبه الآب» .

(١٥)

كان الآب يجتذبني، وقد بتّ الآن متيقّنًا من ذلك. منذ زمنٍ طويل، منذ الأزل كان يجتذبني.

«**هو**» من كان يبعث لي إشاراته من خلال جوعي وعطشي اللّذين لا يرتويان، ومن خلال اشمئزازي من ذاتي ومن خلال أفكاري الحزينة، وتقريع ضميري، وثوراتي حيال مظالم الناس وآلامهم، وصُبوّي المجنون إلى الحقيقة، والسلام والحبّ؛ أجل، هو من كان من وراء كلّ هذه.

«**هو**» اللّه – الحبّ.

كان يجتذبني، ولكن أنّى لي أن ألتقيه، وأنا سجين بيتي الموصد. كان لا مفرّ لي من النهوض، والخروج من مكمني.

ولّما هببت ناهضًا، وخرجت، تردَّدتُ عند عتبة البيت، ولكنّ الحكيم كان يدفعني.

كان يدفعني على درب إنسانيّتي، على دربي الأصيل، لا درب أفكاري، وتخيّلاتي، وأحلامي، ولا درب انطباعاتي ومشاعري، بل على درب إخوتي الذين ألتقيهم كلّ يوم، في حياتي اليوميّة.

كان يقول لي: «أحببْهم»، وإذ كان يضعني على دربهم، كان يضعني على درب اللّه، اللّه الحقّ.

وأنا كنت أجهل أنَّ «اللّه لم يرَه أحدٌ، قطّ»، ولكنّه اتّخذ وجه إنسانٍ في يسوع، وأنّه منذ مجيء يسوع، لم يعد بوسع أحدٍ أن يحبّ ويخدم اللّه الذي لا يراه، إن لم يكن يحبّ ويخدم أخوته الذين يراهم.

وكنت أتلمّس اللّه في الليل، ولكنّني لم أكن أبحث عنه في الطريق الصحيح، واللّه الذي كنت أبحث عنه كان إلهًا زائفًا.

وكان عليّ، الآن، تعلّم كلّ شيء،

وكنت، بكلّ قواي، أرغب في معرفة وحبّ إلهي المجرّد، العاري في المغارة، والعاري على الصليب.

* *

وعدت إلى الحكيم وقلت له: «يا صديقي، حدّثني، أيضًا، عن اللّه».

سأتحدّث، يا صغيري، نزولاً عند رغبتك، ولكن اعلم أنَّ اللّه لا «يُعلَّم» بل هو يعْتلن. ربّما من خلال أقوالي، ستظفر ببعض أضواء عنه، ولكنّه «**هو**» لن تلتقيه، ولن تتعرّفه إلاّ إذا كرّست حياتك للحبّ.

– ومع ذلك أوضح لي إيمانك .

– كلّ إيماني؟ – أجل .

– ما زلت غير مستعدّ، وأخشى ألاّ تفهم إلاّ برأسك، في حين سيتخلّف قلبك عن اللحاق.

– ومع ذلك أوضح لي إيمانك وسيلحق قلبي... ولو من بعيد».

حينئذٍ قال:

«أومن أنَّ اللّه «هو» حبٌّ
وأومن أنَّه أسرةٌ
أبٌ، وابنٌ وروحٌ قدّوس،
ثلاثة أقانيم يجمع بينهم من الحبّ، ما يجعل منهم واحدًا،
وأومن أنّ اللّه سعادةٌ بلا حدود،
لأنّه حبٌّ بلا حدود.

* *

أعتقد أنّ الخليقة هي ثمرة الحبّ،
لأنّ الحبّ يريد أن يُشرك في سعادته،
وأومن أنّ كلّ إنسان، حتّى قبل أن يكون،
محبوبٌ من الله شخصيًّا، حبًّا لانهائيًّا،
وسيظلّ محبوبًا، أيًّا كان وجهه، وأيّةً كانت دروب حياته.
أومن أنّ الإنسان هو خاطرة حبّ الله المتجسّد،
وأنّ «صورة» الله هذه، فيه،
قد تُمسَخ، ولكنَّها لن تُدمَّر أبدًا.

وأومن أنَّ الإنسان الذي صُنع بحبّ، قد خُلق من أجل الحبّ، ومن ثَمَّ، خُلقَ حرًّا، ومدعوًّا إلى سعادة الحبّ اللامحدودة.

* *

أومن أنَّ الله أعطى البشر كلّ الخليقة، لكي يشتركوا في امتلاكها، وإكمالها ووضعها بخدمة الجميع .

أومن أنّ الله قد خلق الإنسان شريكًا له في الخلق
– بواسطة الأسرة البشريّة وهي صورةٌ لأسرته –
وخلقه حرًّا بتفجير الحياة، أو برفضها

* *

أومن أنَّ الله أحبّ العالم بحيث أرسل له ابنه.
وهكذا، اتّخذ الحبّ اللانهائيّ، بواسطة مريم، وجه إنسان،
وجسم إنسان، وقلب إنسان: يسوع الناصريّ،

وثلاثةً وثلاثين عامًا من الحياة المغروسة وسط التاريخ البشريّ، وشاملة هذا التاريخ كلّه.

أومن أنَّ يسوع، لأنَّه إنسانٌ، هو أخٌ لجميع البشر،

ولأنّه أخٌ لجميع البشر، هو متضامنٌ مع خطاياهم المتمثّلة في عدم الحبّ،

ويعاني آلامهم، بقدر ما عانى آلامه الخاصّة.

أومن أنّ يسوع، بمنحه حياته، حبًّا بإخوته،

قد أعاد لكلٍّ منّا، وللبشريّة جمعاء، كلّ الحبّ الذي أفسدناه.

وبإعادته الحبّ، أعاد لنا الحياة،

أومن أنّ يسوع قد اجتاز الموت، وأنّه حيٌّ فيما بيننا، حتّى منتهى الأزمان، وأنّ البشر يستطيعون، به وفيه، أن يحيَوا الحياة التي لن تنتهي.

أومن أنّ المؤمنين، وأحبّاء يسوع، يؤلّفون، معًا، شعبًا عظيمًا، وجماعةً عظيمة: الكنيسة .

وأومن أنَّ هذه الجماعة – الكنيسة، وأنا عضوٌ فيها، في يسوع ومع إخوتي، هي – بنا – فقيرةٌ وخاطئةٌ ولم تُفلح في الحفاظ على وحدتها،

بيد أنّي أومن أنّها مدعوّةٌ لتكون مقدّسة، واحدة، وعلامة حبّ، وأومن أنّ يسوع أراد لها مسؤولين.

والمسؤولون عنها بشرٌ، وبالتالي خطأة، ومعرّضون للخطأ .

ومع ذلك أحترمهم، وأحبّهم، لأنّ يسوع أرادهم، واختارهم، ودعاهم. وأومن أنّ روحه يواكبهم على دروب التاريخ الطويلة.

* *

وأومن أنّ روح يسوع، *الروح القدس*، هو روح حبّ

يأتي إلى الإنسان الحرّ،

حرّيّةً قادرةً على الانفتاح عليه،

لكي تستقبله، وتمكّنه من اجتياحها، واختراقها، ولكي تمضي إلى الآخرين، نفحة حبّ توحّد الإنسان بالإنسان، والبشر بالبشر وبالكون، وتشيد «ملكوت الآب» ،

ملكوت حبٍّ متجذّر في حاضر التاريخ البشريّ، لكي يزدهر، غدًا، في *الحبّ الثالوثيّ*.

* *

.... ولذلك، يا صغيري، أومن أنَّ ***الحياة*** مع يسوع المسيح، وفي يسوع المسيح، ***هي الحبّ بنفحة الروح***،

وأومن أنّ الحبّ لا يمكن أن يموت ،

لأنّه من اللّه آتٍ وإلى اللّه يعود».

* *

أصغيت إلى الحكيم، مأخوذًا، مسحورًا. صحيحٌ أنّني لم أكن أفهم، ولكنَّني كنت واثقًا. هكذا الإنسان المتخشّع يحدّق إلى خطّ الأفق القاتم، حيث ما زال الليل يتسحّب، ثمّ يمّحي، بتؤدةٍ، أمام الشمس المشرقة، وإذ بمداعبة النور لأكمام الزهور، تنشّف دموع الليل، قطرةً فقطرة.

كان، «**هو**»، شمسي، «النور الذي يضيء كلّ إنسان»

كان قد أشرق في غياهب قلبي، وكان قلبي قد تعرّفه من غير أن يعرفه معرفةً كاملة.

كان الفرح يغمرني، فهتفت:

– أهو، إذن، يا صديقي، ***النفحة السرّيّة*** التي تأتي من عالَمٍ آخر وتطير صوب عالَمٍ آخر؟

– أَجل يا صغيري، ***إِنّه الروح القدّوس، روح الحبّ، اللّه***

– وهل روح اللّه حاضرٌ في مشاعر حبّنا؟

– أَجل، يا صغيري، مثلما الشمس حاضرةٌ في كلّ شعاعٍ من أشعَّتها، والنبع حاضرٌ في كلّ قطرةٍ من ماء الساقية.

أشعَّة الشمس، كما ترى، ليست هي الشمس؛ والساقية ليست هي النبع، ولكن لن يكون هناك ضوء ولا ساقية، بمعزلٍ عن الشمس والنبع، اللّذين يهبان ذاتيهما.

هكذا الحبّ أكبر من قلبك، وأكبر من جسدك. الحبّ هو نفحة اللّه التي تغزو الأرض وتتغلغل في قلبك وجسدك، مثلما هي تخترق كلّ إنسانٍ يحبّ، «فكلّ حبٍّ حقٍّ من اللّه يأتي»، وإلى اللّه يطير، عبر الإِنسان الحرّ، والمنفتح، الذي يتلقّى، ويعطي بدوره.

واعترضت، وقد انتابني قلقٌ مفاجئ:

– ولكن كيف بوسعهم أن يحبّوا، أولئك الذين لا يعرفون اللّه – الحبّ؟

– «أشعّة الشمس لا تعرف الشمس، والساقية لا تعرف النبع، ومع ذلك يشرق النور على العالم، وفي مجرى النهر يتدفّق الماء نحو البحر. وهكذا، يا صغيري، كثيرون هم الذين يحبّون إِخوتهم، وهم لا يعرفون الحبّ الذي يحدوهم، وفي حين يحبّون إِخوتهم، ولا يعرفون اسم الذي يحبّونه ووجهه. فإن كانوا مخلصين سيكتشفون، فيما بعد، عندما ستتفجّر الحياة من وراء الموت المزعوم، موت الحبّة التي يقال إنّها ماتت عندما دفنت.. حينئذٍ ستتفتّح عيونهم وآذانهم، وسيقول لهم يسوع: **أنا من أَحببتم.**

كنت أنا الجائع الذي أطعمته،

الجائع إلى الرغيف والكرامة والصداقة،

كنت أنا: الغريب الذي استقبلته،

الإنسان القادم من وراء حدودٍ، أنتم، فيما بينكم، نصبتموها..

كنت أنا: السجين الذي حرَّرته،
العبد الراسف في جميع القيود التي صاغها البشر؛

كنت أنا.... كنت أنا....

كنت أنا: الفقير، الفقير بك، طالما أنت احتفظت بحياتك لنفسك،

ولم تهبني ذاتك في حين كنت تهب الآخرين ذاتك.

... وهؤلاء سيدخلون في ***فرح الحبّ*** اللاّنهائيّ، لأنّهم أحبّوا».

فقلت:

– إذن حَسْبُ الإنسان أن يحبّ، فما حاجته إلى معرفة الله، ما دام له مُخْلِصاً؟

– لا تقل ذلك، يا صغيري؛ فشيئًا فشيئًا، ستكتشف أنّ من يحبّ لا هوًى له سوى الإعلان للمحبوب، وأن لا رغبة لدى المحبوب سوى معرفة اسم حبيبه ووجهه، وحينئذ يتسنّى لكليهما أن يتقبّل أَحدهما الآخر ويهبه ذاته، في النور، والحرّيّة».

* *

وانسحبت من غير ضجيج، سعيدًا، خاشعًا، مثل إنسانٍ يعود من لقاءٍ أثّرَ فيه أبلغ أثر. فقد بات لي الله «***أحدًا***».

(١٦)

كان الأمر فائق الروعة، وكنتُ سعيدًا ولكن قلقًا.

لم يكن بوسعي مواصلة السير؛ كان قلبي يطفر فرحًا، غير أنَّ رجليّ المثقلتين كانتا تتسحّبان ببطءٍ على الدرب، هكذا يسير الأسير المتحرّر والذي ما انفكّ مذهولاً، يسير القهقرى على الدرب الذي اكتشفه من جديد.

من حولي، كانت الحياة على حالها، لم تتغيّر. وكانت الحقيقة هناك، عنيدةً، ولكنّها أقلّ بهاءً من أحلامي... أوَلم أكن قد حلمت؟

وقد استعادت أسرتي، وعملي، والعالم، ألوانها الخالية من الشمس، ولم أكن قد أدركت بعد أنّ النور كان فيّ، وأنّ الطريق كان يستنير عندما يضطرم قلبي.

وكان الآخرون، من حولي، يبدون بعيدين جدًّا، وكنت واثقًا، ولو أنّني لم أتحقّق من ذلك، أنّهم لا يفكّرون مثلما أفكّر، ولا يرون مثلما أرى. مع من، إذن، سأقتسم فرحي، وآمالي، وشكوكي؟ فضلاً عن أنّني حتّى لو وجدت الألفاظ لأُعبّر عنها، لافتقدت، في سبيل ذلك، الجرأة، خشية أن يسخروا منّي.

ومرّةً أُخرى، كنت وحيدًا.

غير أنَّ الاكتشافات، وما كانت تفرزه من يقينٍ يستقرّ في أعماقي، كانت تدفعني، دفعًا لا يُقاوَم، إلى تغيير نمط حياتي. فبتّ لا أَخرج إلاّ نادرًا، وفي غرفتي التي لم أعد أفرّ منها، غالباً ما كان يقيم الصمت، فلا أطرده، وتلك ظاهرةٌ على جانبٍ من الأهمّيّة.

وعندما كنت أخرج، غدوت أُصغي إلى الآخرين، وأَرمقهم بنظرة عطف؛ فيولد التوادُّ، حيث كان يسود، حتّئذٍ، اللامبالاة، بل العداء، أحيانًا.

وكنت ألتزم، أكثر فأكثر، بخدمةِ إخوتي، وأكاد أُدفع إلى ذلك دفعًا، بفعل قوّةٍ كانت قد تحرّرت هي أيضًا، وأصبحت جاهزةً. أكانت تلك هي «النفحة»؟

لم أكن أَجسر على الإجابة، ولكنّني كنت أَبسط أشرعتي.

وأعترف أنّني ما عدتُ أتعرَّف ذاتي، فلقد أَمسيت أشدّ عزمًا، وقوّةً، وفي آنٍ واحد، أكثر صغرًا ووهنًا. وكان بداخلي إحساسٌ بأنّني، بمفردي، لن أقوى على الحياة والحبّ كما كنت أشتهي.

كنت بحاجةٍ إلى « أحد». أهو الله؟ ربّما، وعلى أيَّة حال، لا لإلهي القديم، بل لإله الحكيم، الله الحبّ، الحقّ، ومع أنّني لم أكن أعرفه، كنت أجد نفسي أَدعوه أكثر فأكثر، أو، أقلّه، كنت أظنّ أنّني أُصلّي، إذ إِنَّني لم أكن أَعرف، دائمًا، ما هي الصلاة.

* *

كنت على هذه الحال من العيش والتفكير، عندما تلقيّت هذه الرسالة من الحكيم: ... «مرَّةً أُخرى، يا صغيري، ألوم نفسي لأنّني أسرفت في الحديث في أثناء لقائنا الأخير. علينا التدرّع بالصبر، فبين أوان البذار وأوان الحصاد لا بدّ أن ينقضي وقتٌ طويل، ولا فائدة من شدّ النبتة المنبثقة.

«سامحني، ولكن افهمني. فترةً طويلة، قبلَك، عانيتُ الجوع والعطش إلى الحياة، ومثلك اكتشفت أنّ تحت هذا الجوع وهذا العطش، وفي أغوار قلبي، كانت تكمن رغبتي في أن أُحِبّ، ورغبةٌ أَشدّ في أن أكون محبوبًا.

«وبحثتُ إلى أن لقيت الله، الذي جاء إلينا، في شخص يسوع الناصريّ، وآمنت به، وبكلامه؛ وبتّ الآن أعلم أنّني محبوبٌ منذ الأزل. وإنّني أُحِبّ ذاك الذي يحبّني... ويزداد حبّي له بقدر ما أَسبر عمق حبّه.

«وكما أَسلفت لك القول، يا صغيري، من كان مُحبًّا ومحبوبًا، لا يستطيع الإمساك عن التعريف بمن يحبّ. ولذلك أنا تكلّمت .غير أنّ ضجيج كلماتي، ينبغي ألاّ يخنق كلامه. أنا لا أَملك سوى هديك إلى الدرب، إلى موعد القلب، ولكنّه، هو، من سيصرّح لك عن حبّه.

«فهُبَّ واقفًا وامضِ إلى لقاء من يأتي إليك.

«ما أحمق من يزعم القدرة على العيش بلا ***حياة***، وعلى الحبّ في معزلٍ عن ***الحبّ !***

«للمؤمن، إغفال الصلاة يعني إغفال الحياة.

«كثيرون هم الذين يذوون، اليوم، لأنّهم، بقدر ما يكبرون، يظنّون أنَّ بوسعهم الاستغناء عن الله. إنّهم يسيطرون على الأرض، ويُمعنون، كلّ يومٍ أكثر، تمكُّنًا منها، وتعنو الحياة نفسها لأياديهم الحاذقة.

«إنّ الله شاء ذلك، فهو جيّدٌ وجميل.

«ولكنّ الناس ينسَون أنّ أشرعة السفينة ليست هي التي تولّد الريح؛ ومع ذلك يكرّسون من الوقت لتصميم السفن الرائعة، ونصب السواري، وإِصلاح الأشرعة أَكثر ممّا يكرّسون للتعرّض للريح التي تدفعهم، فوق اللجج، إلى اجتياز البحار.

«وبقدر ما يُغفلون الله، يزعم المتكبّرون أنَّ بوسعهم الاستغناء عنه. كلٌّ منهم يظنّ نفسه إلهًا، وأنَّ بوسعه أن يكبر، وحده، باستغلال الآخرين، في حين أنَّ الناس سيحيون حقًّا، وسيجعلون من الأرض عالم عدلٍ وسلام، عندما سيستطيعون التوجّه، معًا، إلى الله الواحد بقول «***أبانا***»، ممّا يعني: إنَّك حياتنا، وإنّك ***حبُّنا***، وإنّنا أبناؤك، وأخوةٌ فيما بيننا.

«ولذلك، يا صغيري، أوعزت إليك أن تصلّي.

* *

«الصلاة هي المضيّ أمام «أبينا» اللّه الحبّ، كما ينطلق النهر أمام نبعه، والنور أمام شمسه؛

«الصلاة هي أن نقول للّه:

«أيُّها النبع: منك ألتمس الماء الحيّ، المتدفِّق يوميًّا بين ضفافي، فبمعزلٍ عنك لن أكون سوى ماءٍ آسِنٍ يتعفَّن ويموت.

أيَّتها الشمس: منك ألتمس النور لطريقي، فبمعزلٍ عنك، لن أكون سوى ابن ليلٍ، تائهٍ على دربٍ لا منفذ له.

أيَّتها الريح: منك ألتمس القوَّة التي تنفخ أشرعتي المنبسطة، وبمعزلٍ عنك لن أكون سوى سفينةٍ مهجورة، لا تتخطّى أبدًا، رصيف المرفأ.

أيُّها النسيم: منك ألتمس النفحة، كي أنطلق، فبمعزلٍ عنك لن أكون سوى طائرٍ ملوَّث يتسحَّب في الحمأة.

... ومنك، أيُّها الفنّان، أتوقَّع أن تفجِّر من عودي ومن أوتاري، حياةً سرّيّة، فبمعزلٍ عنك لن أكون سوى أداةٍ لا طائل منها، ترقد جامدةً وصامتةً في غمد أيّامي.

... ولكنّني إليك آتي، فها أنذا، أيُّها الفنّان الذي لا يحيط بوصفه قول، ومثل كمانٍ لاطٍ بين ذراعيك العاشقتين، متخشِّعًا وحرًّا، تحت أصابعك التي تبحث عنّي، أقدّم ذاتي لكي أقترن بك، في عناق حبّ، وسيكون ابننا موسيقى تُطرب العالم.»

* *

أجل، يا صغيري، الصلاة هي النهوض، والسعي نحو الله القادم إلينا، والاعتراف بأنّه ***حياتنا وحُبّنا***،

هي خشوعٌ كامل، وتقدمةٌ كاملة،

واستسلامٌ لحبّ الغير، قبل ابتغائنا الحبّ.»

(١٧)

كنتُ أُصلّي.

هذه المرّة، كنت أُصلّي حقًّا، واثقًا من ذلك، وفي آنٍ واحد، كنتُ دهشًا. وكنت أبتسم وأنا أُفكِّر أنَّ ذويّ وأصدقائي، لم يكن لهم علمٌ بهذا التطوّر العميق في حياتي؛ وأَعود فأعترف بأنّني لم أَكن لأجرؤ على إطلاعهم عليه، لا بدافع الخجل، بل خشيةَ أَن يُفسدوا بعبارة، أو ببسمة، الجمالَ الذي كانَ يولد فيّ.

فالزهرة هشّة عندما تتفتّح في صباح ربيع!

لم أكن أُصلّي فقط بالكلمات، بل بكلّ قوى كياني، محاولاً أن أكون حاضرًا لمن كنت أَعرف أنَّه، في الليل، حاضرٌ حضورًا لانهائيًّا. وعملاً بنصيحة الحكيم، كنت أحاول، بكلّ بساطة، أَن أستسلم للحبّ، بصمت.

وكنت أَستشعر أنّ ذلك هو الأمر الجوهريّ؛ وهذا ما أكّده لي صديقي، فيما بعد، زاعمًا أنَّ اكتشافي هذا يقتضي منّي وقتًا طويلاً.

وقد بتُّ أعلم أنّني لن أستطيع، بعدُ -كما كان يحدث لي سابقًا، بين فينةٍ وفينة، يوم كنت تائهًا، واهنًا، ومرتعدًا - أَن أستجلب رضى الإله الذي كنت آنذاك أعرفه، ذلك السيّد الكلّيّ القدرة، وكأنّه مَتْجرٌ يؤمّه بشرٌ جياع. لم أكن أَطلب شيئًا، والقوّة الوحيدة التي كنت أَلتمسها كانت قوَّة الحياة والحبّ. ولم يكن الأمر سهلاً، ففكري كان شاردًا، والرغبات تضرم قلبي. كان يقطنني عالمٌ مجنون، يرقص القوم في ساحاته، ويتشاجرون ويصيحون .. كنت أَمرُّ بهم بلا

قلق، لا بل كنت، في أَثناء مروري، أَشدّ على أيدي أصدقائي، وأَحمل متاع همومهم، ومشكلات العالم، وغالبًا ما كنت، مُثقَلاً بهذه الأحمال المرهقة، في تؤدة، وغالبًا بمشقّة، أُصعّد بسفينتي الهشّة سعيًا إلى نبعي .

وكنت أكافأ، فمن ينهل من النبع يرتوي. وعلمت، فيما بعد، أنَّ يسوع قال :

«**من يشرب من الماء الذي أُعطيه أنا، لن يعطش أبدًا، فالماء الذي سأعطيه ينقلب فيه نبعًا يتفجّر حياةً أبديّة**».

ثمّة كانت الحياة، كنت موقنًا من ذلك، ولكنّني أعود فأقول إنّ الأَمر لم يكن سهلاً.

* *

لم يكن سهلاً، من جرّاء عاداتي القديمة، وبلادتي، وبعض تساؤلاتي التي لم تحظَ بجواب، والتي باتت الآن أكثر جدّيّةً، وأَبعد عمقًا، وبالتالي أشدّ إزعاجًا. كنت ما زلت في حاجةٍ إلى أنوار الحكيم، وسأَظلّ أَحتاج إليها فترةً طويلة.

* *

في ذلك المساء قلت له :

– يا صديقي، أَنت تنصحني بتوقّع كلّ شيءٍ من الله، ولكنّني إِن توقّعت كلّ شيءٍ منه، فما الذي يبقى عليَّ عمله؟

فأجاب : يبقى عليك أَن تفعل كلّ شيء.

إِفهمني :

إِنَّ أَعظم فنّان يعجز عن العزف على أوتارٍ مقطَّعة؛

وهبوب الريح يغدو عاجزًا حيال سفينة لا ساريَ لها، وأَشرعتها مطويّة.

وأنقى جبل جليد لا قِبَلَ له على ولادة نهرٍ رائع، إن كانت أكوام

القاذورات تسدّ مجراه،.... واللّه - الحبّ لا يستطيع شيئًا، إن لم يَهُبَّ الإنسان الحرُّ واقفًا، صانعًا، بدأَبٍ، حياته الخاصّة، وصانعًا العوالم، متّحدًا مع إِخوته.

علينا أَن نفعل كلّ شيء - ولكنّنا، في ذلك، أَحرار - وفي آنٍ معًا، علينا أَن نلتمس كلّ شيءٍ من الحبّ الذي لا حياة ولا استمرار في الحياة، بمعزلٍ عنه.

- ولكنّنا نسلك سلوكًا سيّئًا، مريعًا. فِلمَ يدعنا اللّه نركمُ كلَّ هذه الأَخطاء، ونعاني كلّ هذه الآلام؟

- لأنّه لا يستطيع الحؤول دون ذلك.

- ولكنَّه قادرٌ على كلّ شيء.

- كلّ شيءٍ ما خلا سلبنا الحرّيّة

* *

كنت آبى أن أَفهم،وكنت أَشعر أَنّ جميع ثوراتي السابقة كانت تستيقظ فيّ. وجالت في خاطري فترات حياتي المهدورة من جرّاء هذه الحرّيّة، والشرّ الذي ألحقته بنفسي وبالآخرين، وتركَّز تفكيري على شقاء العالم: من أمراضٍ، وجوعٍ، ومظالم، وحروب... وذلك الموكب المريع من الآلام التي لا حصر لها، ولا وصف يحيط بها، والذي تجرُّه البشريَّة في إثرها منذ ليل الأزمنة السحيق .

فهل كان اللّه يشهد، لا مبالياً، ذلك الهدر الهائل؟ وكيف يمكن القبول بذلك؟

وفي لحظة، عاد فاهتزَّ على قواعده كلُّ يقينٍ كنت أَظنُّه راسخًا لديَّ، وربَّما أَوشك على الانهيار.

وبرز من جديد الشكّ الذي خُيِّل لي أنّي انتصرت عليه، وإذ به ما زال حيًّا، مثل سوسٍ نخّار، تحت طبقةٍ رقيقةٍ من السعادة الهشّة.

أجل، ***كنت أَشكّ في الحبّ.***

وكان وعيي لذلك الوضع يغمرني بالاضطراب، ويُحبطني. غير أنّ الثورة فيَّ كانت أقوى من إحباطي، وكدت أصيح وأنا أُخاطب الحكيم:

– لِمَ أعطانا الله هذه الحرّيّة التي تقتل، وهو يعلم أنّها ستقتل؟

فأجابني برقّة:

– لأنَّه يحبُّنا.

– وأيُّ حبٍّ هو تعريضُ المحبوب للألمِ والموت؟ وهل من الحبّ تركه يتعفَّن في السجون، ويجأر تحت التعذيب، وينفق جوعًا، ويصارِع، ويَقتُل أو يُقتَل!

وكان غضبي يتضخّم بكلّ أَنّات البشر، ويتغذّى بكلّ التضرّعات التي لم تُستَجَبْ، تضرُّعات من يلتمسون سُدًى، منذ قرون، لهم ولذويهم، العزاء والحماية والخلاص.

كنت أبتغي جوابًا، من أَجل الآخرين، ومن أَجلي، وكان لا بدّ لي من الإِطاحة بالشكّ والقضاء عليه قضاءً مُبرمًا، فبوجوده في قلبي لن أقوى على العيش.

وقال لي الحكيم:

– «اهدأ يا صغيري، وأَصغِ إليَّ:

«هل تحبُّ الأمُّ جنينها إِن هي رفضت وضعَه، لأنَّ العالم شرّير؟

وهل هي تُحبّ طفلها إن هي رفضت وضعه على الأرض، لأنّه يجهل المشي، ويتعرّض للوقوع والجرح؟

وهل هي تحبّه، مراهقًا، إن هي سجنته في البيت لأنّه ما زال يجهل الحياة والحبّ؟»

وصمت الحكيم، ولم أُحِرْ جوابًا، إذ لم أكن أَملك ما أقول؛ وكنت أعرف أنّني، في ما بعد فقط، إثر إيابي إلى البيت، سأجد حججًا جديدةً للنقاش.

ولكن، في تلك اللحظة، كان يداخلني انطباعٌ مزعج بأنَّ النقاش مع الحكيم، لا طائل تحته. فقد كان فكري يتمرَّد، ولكنّني كنت أستشعر أنَّ قلبي، في سرّه، كان راضيًا.

ما كان يجرّدني من سلاحي، حيال صديقي الحكيم، سكونه، وعذوبته. فقد كنت أُدرك أنّه لا يبتغي إقناعي كي ينتصر عليّ، بل لكي يساعدني على الفهم. ولذلك كنت أومن، في سريرتي، أَنّه، لاريب، على حقّ.

وقد استأنف حديثه فقال: «ألا ترى، يا صغيري، أَنّ أمًّا تحبّ بصدقٍ، قادرةٌ، بدافع حبّها نفسه، على تعريض ابنها للسقوط، والجَرْحِ، بل للموت، مؤثرةً تلك المخاطرة على سلبه حرّيّة الحياة، مع أنّها تعلم، مسبقًا، أنّه سيتألّم.

«أمّا إن هي رهبت تلك المخاطرة، ورفضت الانفصال، شيئًا فشيئًا، عن ابنها الغالي، وأَبت الانقطاع عن حمله «وحمايته» – بحجّة تجنيبه مِحَن الحياة – ***فهي ستقتل فيه الرجل الذي كان عليه أَن يصيره***».

وأَجبتُ بخجل، بعد أَن همد الحماس الذي كان يوحي لي ثقةً بنفسي:

– ولكن إن جُرح ابنها، فهل ستدعه لمصيره بحجّة أنّه... رجل؟

– لا لن تدعه وحيدًا، بل ستهرع إليه، وتمعن في الاقتراب منه، وتشاركه أَلمه.

– ولكنّ الألم سيبقى.

– بالتأكيد. ولكن إن استسلم الولد لحبّها، سيغدو أَقدر على تحمّله. فالمرء الذي «يمسّه» حبٌّ صادقٌ يتيح لهذا الحبّ أن يفجّر فيه طاقةً خفيّة: طاقة الحياة التي طالما كُبتت.

الحبّ هو تفجير حياة جديدة في الآخر، هو خلقه من جديد.

– وهل الأمر هو كذلك مع الله؟

– بالضبط، سوى أنَّ حبّه لانهائيّ، والحياة التي يهبنا هي حياته الأبديّة.

– فما علينا سوى أَن نُشرع ذواتنا لله!

– أَجل، ولكن في هذا، أيضًا، نحن أَحرار، فأيُّ حبٍّ ذاك الذي نُكرَه عليه؟

* *

وتابع الحكيم قوله:

«هكذا أدركت، شيئًا فشيئًا، أَنَّ الله، بما أَنَّه حبّ، لم يكن بوسعه إلاّ أن يخلقنا أَحرارًا. لأنّه أب – ولكنّه ليس مسيطرًا – لم يكن بوسعه إلاّ أن يجعلنا قومًا واقفين، ومسؤولين مسؤوليّةً كاملة، عن ذواتنا، وبعضنا عن البعض، وجميعنا، معًا، عن العالم وعن البشريّة.

لقد كبرنا، وكبرت سطوتنا على العالم وعلى الحياة، وسنظلّ نكبر، وقد بتّ الآن مؤمنًا أنّ الإنسان قد أَصبح بالغًا.

– ولكنّه ما زال واهنًا.

– صحيح، فالإنسان على صورة الله، ولكنّه ليس الله. وقد ننساه ونسلك بحمق. إنَّنا فخورون بحرِّيَّتنا، ونذود عنها بضراوة، ونحرص على أن تكون كاملة، ولكنَّنا عندما نسيء استخدامها «نتضرّع» إلى الله أن يبادر إلى إصلاح أخطائنا، وتضميد جروحنا. ولأنّ الله لا يتدخّل على النحو الذي نشتهيه، نسخَط، ونرتاب في حبّه... أو في وجوده.

– ولكن ألا يتدخّل أَحيانًا؟

– لا يتدخلّ أبدًا على طريقة البشر، باستخدامه سلطته نيابةً عنّا، ولو هو فعل لدلّل على عدم احترامه لنا، وعدم حبّه لنا؛ وقد يسوغ القول إنّ عدم قدرته على فعل ذلك يؤلمه، فهو شبه «سجين» حبِّه.

«***ولكنّه أرسل لنا ابنه*** كي يعلن عن هذا الحبّ اللانهائيّ، ويجعله على مقربةٍ منّا.

«إنَّ يسوعَ يأتي، لا بصفته إلهًا كلّيّ القدرة غالبًا ما ننتظره، ولكن بصفته إلهًا – إنسانًا، أخًا لنا، متضامنًا مع أَخطائنا، وبمعزلٍ عن أيّة سلطةٍ سوى سلطة الحبّ الذي يهب ذاته، ويخلّص. .

«هو، أيضًا، لا يدعنا وحيدين مع آلامنا، بل يحملها مع آلامه، وإذ يهب حياته من أجلنا، يُعيد لنا حياتنا محرَّرةً، ***حياةً جديدةً،*** حياةً منبعثةً في قلوبنا التي ترحّب بها.

إنّنا نُخلَق من جديد، ولكنّنا، دائمًا، أحرار.

... سرّ ***الحبّ*** هذا لن تَلج حرَمه إلاّ تدريجيّاً، وحينئذٍ سيكون بقدرتك أن تحبّ حقًّا.

* *

– «إطمئنّ بالاً، فثوراتك لا تدهشني، وقد مررتُ بمثلها، فأنا، أيضًا، انتابتني، في بعض الأيّام، الرغبة في أن أعلن لله، عاليًا، حَنَقي إزاء صمته المريع، وكنتُ أَلعن هذه الحرّيّة الجميلة والمأساويّة في آنٍ واحد، التي غالبًا ما تحوِّل العالم إلى ساحة وغىً، وتصيبنا بالعذاب.

غير أنّني قد أَدركت أنّنا لو حقّقنا الـمُحال، وتخلّينا عن هذه الحرّيّة، لتخلّينا عن إنسانيَّتنا، ولغدونا عاجزين عن الحبّ.

وحينئذٍ، في استنارةٍ تامّة، ارتضيت مخاطرة الحياة الرائعة، ومخاطرة الحبّ الجميلة، من أَجلي... – وتريَّث الحكيم هُنيهةً قبل أن يضيف: ومن أَجل الآخرين.

في يومٍ ما، سأشرح لك.»

وتخشّع طويلاً، ثمّ، من غير أَن يريم عن مكانه، صلّى أمامي بصوتٍ عالٍ، للمرَّة الأولى:

«كان بوسعك، يا ربّ، أن تخلقنا شجرةً في غابة، أو نعجةً في حقل،

«وكان بمكنتك أَن تجعل منّا دمًى متحركّة في قصر التاريخ، بحيث، عندما تشدّ خيوط أعضائنا المطواعة، نكون قادرين على لعب المهزلة البشريّة بإتقان.

ولكنّنا بشرٌ واقفون وأحرار ،

فشكرًا لك، يا ربّ.

لأنّك لم تشأ أن تجعلَ منّا دمىً فاخرة، تبعث في سمائك التسلية، بل جعلت منّا أَبناء يحبّونك ،

وإِخوةً يحبّ بعضهم بعضًا.

* *

كان بوسعك، يا ربّ، أن تقدّم لنا عالماً مكتملاً، حيث لا يتعيّن البحث عن شيء، ولا العثور على شيء، وكان بوسعك أَن تهبنا مدنًا مكتملة، وجسورًا ممتدّة فوق أَنهرٍ مروّضة، ومساكن مشادة، وطرقًا مرسومةً على جبالٍ معبّدة، ومصانع تحاكي الفردوس، عمّالها طيّعون،

وخططًا للتنفيذ، في مأمنٍ من أيّ خطأ.

ولكنّنا بشرٌ واقفون، أحرار، نبني العالم.

فشكرًا لك، يا ربّ.

لأنّك لم تشأ أن تجعل منّا منفّذين، بلا روح، أوامر قادمة من السماء،

بل جعلتنا مسؤولين عن العالم ،

وخلاّقين فخورين، تحت أَنظارك الأبويّة

* *

«كان بمكنتك، يا ربّ، أَن تبرمج علاقاتنا، وتبني أُسَرنا، وتهبنا أَبناء مكتملي التربية، وأحفادًا بالعدد المرغوب.

كان بوسعك أن تُحصي قبلاتنا، وتنظِّم عناقاتنا،

وأن تقود أَيدينا نحو أَيدي إِخوتنا،

بحيث يَزدهر، في دنيا من الأحلام،

أزواجٌ مرتبطون ارتباطًا أبديًّا، وصداقاتٌ قسريّة، وسلامٌ مفروض.

ولكنّنا بشرٌ واقفون، أَحرارٌ ومسؤولون عن البشريّة،

فشكرًا لك يا ربّ،

لأنّك لم تشأ أَن تجعل منّا دمىً من لحم، طيّعة بين أَصابعك الحاذقة،

بل أَبناء محبوبين، أَغنياء بما تلقَّوه من حياة،

يختارون الحبّ أو يرفضونه

* *

«وعندما نسينا أَبانا، نحن الأَبناء الأَشرار، وحطَّمنا كلّ شيء في هذا العالم الهشّ، واحتكرنا لأَنفسنا ما يخصّ إِخوتنا،

وتناحرنا على السلطة، واستغلّ بعضنا بعضًا، وتقاتلنا، وقتل أحدنا الآخر، كان بوسعك، يا ربّ، وقد يئست منّا، أن تحرمنا ثقتك وحبّك المجنون، وتستعيد ما أُعطيتنا من قدرات،

وتصنع، عوضًا عنّا، فردوسًا على الأرض.
ولوأنتَ فعلتَ، لما كنّا، بعدُ، بشرًا واقفين، أَحرارًا.

وحينئذٍ، يا ربّ، في سبيل إنقاذنا، ومن غير أَن تقضي على حرّيّتنا، أرسلت ابنكَ، إنسانًا مثلنا، واقفًا وحرًّا.
وأَنت، يا يسوع، كان بوسعك أن تحوّل الحجار أرغفةً،
وأَن تطعم بيدك البشر الجياع.
وكان بوسعك فَتْن البشريّة بقدرتك الكلّيّة، المعتلنة أَمامنا،
ولَكُنّا قلنا لك نعم، وتعذّر علينا قول لا،
ولما كنّا، بعدُ، بشرًا واقفين أَحرارًا.

كان بوسعك أَن تكون، من أَجلنا، اللّه المنتصر، الذي يسحق أَعداءنا،
ولَكُنّا تلقَّينا السلام، من غير أن نكسبه.
ولَكان بوسعك، بعدئذٍ، العودة، من غير عائق، إلى سماء أَبيك،
على دربٍ غير درب الصليب ،
ولَكُنّا بقينا بشرًا واقفين، ولكن وحيدين،
نحمل بين أَيدينا خطايانا، وآلامنا، ونفايات إجهاض الحبّ.

* *

«ولكنّك صعدت على الشجرة الميتة ،

وباقترانك بخشبها، اقترنت بخطايانا وآلامنا،

فأزهرت الشجرة حياةً جديدة

ثمرتها الحبّ الذي يخلِّص ويحرِّر.

* *

إنَّني أُحبُّك، يا ربّ، لأنّك تحبُّني بحيث أَردتني حرًّا، وجازفت بمجدك في سبيل هذه الحرِّيّة،

وجئتنا، إنسانًا «كلّيّ القدرة» ولكن بقدرة الحبّ الكلِّيَّة،

أُحبُّك، يا ربّ، لأنَّ هذه الحرّيّة المريعة التي تكبِّدنا جمًّا من الآلام، هي هذه الحرِّيَّة الرائعة التي تتيح لنا أَن نحبّ.

ولذلك، عندما ننحني تحت صليب أَيّامنا،

ونسقط أحيانًا،

عندما نبكي، ونصيح أمام صليب العالم، ونجأر أَحيانًا،

قد نميل إلى الكفر، والهرب، أو الاكتفاء بالجلوس،

حينئذٍ، أَعطِنا القدرة على النهوض، ومواصلة المسير،

من غير أَن نلعن يدك التي تمتدّ لنا، ولكنّها لا تحمل صلباننا، ما لم نحملها نحن، مثلما حملت أَنت صليبك».

الجزء الثاني

عندما يتّخذ الحبُّ وجهًا

(١٨)

إنَّ الاقتراب من النور خطر. فالظلام الذي يغمر غرفةً في المنزل يستر فوضاها. ولكن عندما يشرق النهار، يظهر الغبار على الأَثاث، والقذارة على الأرض.

لم أكن راغبًا في زيارة الحكيم لبيتي. ومع ذلك...

كان قلبي مزدحمًا. فكلُّ ما كنت قد أعملت فيه فكري، ومخيِّلتي، وكلّ ما حلمت به و... فعلته، كلّ أَبحاثي، وتجاربي، ومحاولاتي لكي أُحبّ - أَو، أقلَّه، ما كنت أَدعوه، آنذاك، حبًّا - كان يرقد مختلطًا في ذاكرة قلبي الجريح. إنَّ الذكريات عنيدة، وإن كان بعضها وُضَّاءً، فكثيرة سواها حزينة وبشعة. إنّنا نحملها معنا، مُكدَّسة، مثل أمتعةٍ عتيقة محطّمة، تتلف وتتعفَّن في أَهرائنا وأَقبيتنا.

يومها، كنت أودّ الانعتاق منها؛ ولكنَّها كانت مقيمة.

كنت راغبًا في التحدُّث عنها، وبحاجةٍ إلى الكلام. وخيِّل إليّ أنَّني، بذلك، سأظفر بشيءٍ من التحرُّر. ولكنَّني كنت أَخشى أن أُخيِّب أمل الحكيم، وأخجل من أن أتجلّى أمام ناظريه على حقيقتي. وبما أنَّني كنت حريصًا على صداقته، كنت أَتساءل عن الصورة التي ستتكوّن لديه عنّي.

* *

ولكنَّ الأمر كان أيسر، كثيرًا، ممّا توقّعت.

حدَّثته، أَوّلاً، عن جميع الأحلام والرغبات المجنونة، التي كانت، منذ أَمدٍ بعيد، تصطرع وتتلوّى في قلبي، وفي جسدي، مثل حيواناتٍ في قفص.

وكان يُصغي إليّ باهتمامٍ وهدوء.

وحينئذٍ، تشجَّعتُ واعترفتُ له بكلّ ما بتُّ أسمّيه هفوات وأخطاء، بكلّ الحبّ المُسِفّ، القذر، الذي كان قد جرحني، وجرح، بلا ريب، كثيرين سواي. كنت أَتوجَّع، وكأنّني، بنبشي تلك الذكريات التي كانت دفينة، كنت أكتشف أنَّها أكثر مأساويَّةً ممّا ظننت.

وبتّ أتكلّم ببطءٍ متزايد، وبين فينةٍ وفينة، كنت أَرفع، بخجل، رأسي الذي كان مطأطئًا، وأتوقّف، مترقِّبًا، على وجه الحكيم، آثار استنكار أو إدانة، ولكن عبثاً، فقد ظلَّ، أبدًا، ساكنًا، بل عطوفًا، وودودًا. وحينئذٍ تجاسرت فحدَّقت إلى عينيه، وأشاع نظره فيَّ الطمأنينة. وأدركتُ أنَّه ما برح يحبُّني بقدر ما كان يحبّني من قبل.

وأَخيرًا تمتم:

– كم كان عليك أَن تعاني!

ورددتُ، بدوري، متأوِّهًا:

– لِمَ لمْ أَعرفك من قبل؟

– إطمئنّ بالاً، يا صغيري، فالذين يعرفون كنه الحبّ لأنَّهم تعلَّموه، وخاصّةً لأنّهم رأَوه يزدهر من حولهم، غالبًا ما لا يقدّرون الحظّ الذي أُوتوه بفضل وفائهم، والذي وقاهم من الأخطاء والجروح. ولكن هل تظنّ أنّ الشجرة عندما تغرس في الأرض جذورها العديدة، تغرسها جميعها مستقيمة في التربة المغذّية؟ إنّ هذه الجذور غالبًا ما تتيه في أراضٍ جدباء، وتصطدم بحجارةٍ تجرحها بقسوة، فتتعثَّر في الظلمة، وقد تسير طويلاً قبل أن تعثر، أخيرًا، على غذائها. ولكنَّها إن ثابرت بوفاء، فستزهر، يومًا، شجرتها وتؤتي ثمارها.

هكذا الإنسان. إنّه يتكوَّن في الليل، وإنّني أَتوجَّس خشيةً على المراهق الذي لم يتعيَّن عليه أن يكافح. فأَوَّل هبّة ريح كفيلةٌ بالإطاحة بشجرته؛ في حين أنَّ من يكافح بشرف، بحثًا عن الحياة، لا بدَّ من أَن يعثر عليها، فالحياة تأتي إليه على أَجنحة الحبّ، والحبّ «كائن» لا يتخلّى عنّا أَبدًا.

وآنستُ بعض راحة، ولكنّني لم أكن مطمئنًّا تمامًا، فألححت مرَّةً أُخرى:

– ولكنّ إخفاقاتي وأخطائي تلازمني، أَحملها، أَجرُّها، فتبطئ مسيرتي، ومثل نُتَف حياةٍ تتعفَّن في قلبي.

غالبًا ما حاولتُ أَن أَنسى. ولكن كيف لي إنكار ما ألحقته من أَذى بذاتي وبالآخرين؟ وهل بوسعي إصلاح قلبي، والقلوب التي أَفسدتها، وجسدي والأجساد التي جرحتها؟»

واعترض الحكيم:

– ليس المطلوب أَن تنسى، أبدًا.

– ما عساني أفعل، إذن؟

– إعطاء كلّ شيء.

– كيف؟

– بأن ترضى، أوّلاً، بألاّ «تدفن» من الماضي شيئًا، بل على نقيض ذلك، أَن تنبش كلّ شيء وتحدّق إليه. فالحياة التي ظننت أنّك سحقتها وأخرستها، ما زالت تعيش فيك. وإن أنت تجاهلتها لانتقمت منك، يومًا.

«لا تخف، يا صغيري، من تذكُّر الأَحداث التي خلّفت فيك أثرًا، ومن تسمية الشرِّ شرًّا، ومن تعرية جراحك والجراح التي ألحقها بك إِخوتك. فلن تستطيع أَن تعطي إلاّ ما تحمله يداك.

– أعطي لمن؟

– لمن جاء ليحمل أَثقالنا: يسوع المسيح.

– وما عساه يفعل بها؟

– ما يُفعل بالحطب الميّت: فعندما تُلقى هذه النفاية النافلة في النار، تحيا من جديدٍ، نورًا وحرارةً، من أجل أَهل البيت.

«أَعطِ يسوع المسيح أخطاءك وآلامك، وسيحرق حبُّه كلَّ شيء، ويعيدُ الحياة.

– ذلك في منتهى البساطة!

– كلاّ، بل عسير جدًّا؛ فمن الصعب الاعتقاد أَنَّ الحبَّ أقوى من أَخطائنا. ومع ذلك هذا هو سرّ تحرُّرنا الحقّ.»

كنت راغبًا في محاولة الانعتاق من الماضي، ولكن ما سيكون ردُّ فعلي غدًا؟

كنت موقنًا أنّ مشاعر الجوع والعطش التي كانت تنتابني أَمس، ستولد من جديد، وهي على نفس القدر من الشدّة والاضطراب. فما الذي أقوى على فعله لأرويها؟

وعلى أيّة حال، هل أَنا من صَنعَ جسدي، وقلبي، ووضع فيَّ هذه الرغبات المجنونة التي تُضني، ولا أَقوى على السيطرة عليها؟

ومرَّةً أُخرى، في سرّي، حنِقتُ على الحكيم، الذي «فتح عينيّ» فبتُّ «أرى» أَخطائي. غير أنّ تلك القوّة السرِّيَّة القادمة ممّا يتخطّاني والتي تستحوذ عليَّ، وتطيح بي، وتعبث بي مثل قشّةٍ في مجرى سيل، كانت تُشعرني بأنّني سأنهج، في الغد، كما نهجت بالأمس.

فأيّ جدوى، إذن، من استشفاف جمال الحبّ، بما أنّني لن أقوى على عيشه؟

* *

إثر صمتٍ طويل هتفت:

– علامَ الحبّ على هذا القدر من الصعوبة؟

– «لأنّ الحبّ هو التوحيد، ولأنّ العالم، من حولنا، محطّمٌ مجزّءٌ إلى شظايا لا نهاية لها، مثل لعبةٍ مؤلّفة من قِطعٍ صغيرةٍ متناثرةٍ يتعيّن جمعها وتنسيقها لإقامة عالَمٍ منها. مليارات من الأعضاء المبعثرة الّتي يتحتّم لمّ شعثها، كي نجعل من الإنسانيّة جسمًا كبيرًا كاملاً.

إنّها لمغامرةٌ رائعةٌ وعسيرة، حيث تتصارع قوّتان: قوّة تفريق من أَنانيّة وكبرياء، وقوّة وحدة قوامها الحبّ. نهاية الأنانيّة الموت، ونهاية الحبّ الحياة. وهذا الصراع هو فيك وفيّ، وفي كلّ إنسان، وقيمة حياتنا تُقاس بقوّة الوحدة التي يرفد بها كلٌّ منّا العالم.

أَيُّها العالَم المبعثر، غير المكتمل،
عالَمٌ في حالة حمل، يلتئم عقده وينفرط،
عالمٌ بمتناول الإنسان لكي يدفعه الإِنسان إلى كماله،
ها أَنت أَمامنا،
مخطوبًا منذ الأَزل، لكي يقودك الإنسان إلى العرس الأبديّ.

ينبغي أن ينفذ النهر إلى أعماق الأرض البكر، المنبسطة، المتأهّبة، لكي تصبح قابلةً للإخصاب،

وينبغي أن يتلقّى الثلم الذي غذّاه عَرَق البشر، البذارَ لكي يولد القمح.

وعلى السنبلة الخضراء التي تداعبها الريحُ أن تتزوّج الشمس لكي ينضج الحصاد.

وينبغي أن يقترن الدقيق المطحون الذي أَخصبته الخميرة، بحرارة النار لكي ينضج الخبز.

ينبغي أن يتّحد قلب الإنسان وجسده، لكي ينهض الإنسان واقفًا؛
وينبغي أن يقترن فكر الإنسان بالمادَّة، لكي تصبح المادَّة كلُّها خادمةً للحياة.
وينبغي أن يتزاوج الحجر والخشب، بفضل الإنسان، لكي ينهض البيت؛
وأن يلتقي، بعمل الإنسان، الحديد والرمل والنار لكي يجمع الجسر ضفافًا منفصلة.

ينبغي أن يمدّ الإنسان يده إلى الإنسان لكي تعيش الأخوّة، وتزدهر الصداقة.
ينبغي أن يُشرَع نضالُ الإنسان، في سبيل العدل، على الحبّ، لكي تنبثق الحرِّيَّة.
وينبغي أن يتزوَّج الرجل المرأة لكي يولد الفرح، وأبناء الفرح.

وكان لا بدَّ، أخيرًا، من أن يكون الله ثلاثة، ومن أن يتّحد هؤلاء الثلاثة في *واحد* لكي يعيش الحبّ في الثالوث الأقدس.
وكان لا بدّ من أن يمسي الله «إنسانًا» لكي يمسي الإنسان إلهًا، بصيرورته ابنًا.
وينبغي الآن أن يلتئم البشر الأحرار، الذين أخصبهم الروح، في كنيسة، لكي يكوّنوا جسدًا واحدًا تسري فيه *الحياة*

وعندئذٍ، باتّحاد الكون والبشر والله، في زواج حبّ،
سنصنع سماءً، وللأبد.

**

أيّها العالم المبعثر، العالم غير المكتمل،
عالم في حالة حمل، يلتئم عقده وينفرط،
رغم تشنّجات أَعضائك المتناثرة،
رغم الانشقاقات، والصراعات والهزائم،
إنَّك تسير، عازمًا، صوب الوحدة التي وُجدتَ من أَجلها.

ففي مساء التاريخ الكبير، قد بعثك، عالَـمًا *جديدًا*، يسوع المسمّر على صليب هذا العالم المتفجّر في قلب قلبه؛

وأنا الصغير والضعيف في هذا المدى الفسيح،
عضوٌ لا غنًى عنه في هذا الجسد العظيم الذي يولد،
وأتطوّع لمعانقة عالَمٍ ينتظر.»

وصمت الحكيم.

كان يرتوي بالصمت، مثلما يرتوي الخطيب بجرعةٍ كبيرةٍ من ماء نمير، بعد أن يكون أَحرق شفتيه بحرارة الكلمات.

ونهضتُ ومضيت من غير أن أَنطق بلفظة. فعندما لم أكن أَدري ما أَقول كان يتعذّر عليّ الكلام.

وكان الحكيم قد اعتاد انصرافي المباغت. فابتسم لي، وكنت واثقًا أَنَّ بسمته تقول لي: «إلى لقاءٍ قريب».

(١٩)

في ذلك المساء جفاني النوم. فالذكريات التي كنت قد أَثرتُها، كانت تستيقظ فيّ، وكأنّ حياةً جديدةً قد سكَنَتْها؛ وفي لحظةٍ، ندمتُ على نبشها، فبعضها كان مدفونًا دفنًا من العمق بحيث خيّل إليّ أنّه ميّت. علامَ، إِذن، أَطلقت سراح تلك الأبالسة السجينة؟

وإلى ندمي انضمّت طائفةٌ من الضغائن؛ فقد كنت حانقًا على والديّ بسبب ما قالاه لي عن الحبّ، وأكثر حنقًا بسبب ما لم يقولاه؛ وبسبب مشهد حبّهما الصعب والعاصف الذي غالبًا ما عرضاه لناظريّ. وكنت حاقدًا على بعض مربّيّ، وبعض رفاقي، ونادمًا على التعرُّجات الكثيرة التي واكبت أبحاثي المحمومة. وكنت حاقدًا على ذاتي، مع أنّي، لفترةٍ قريبةٍ خلتْ، كنت فخورًا «بغنائمي» التي انقلبت في نظري هزائم.

بتّ أحسد المؤمنين الحقيقيّين الذين كان بوسعهم التصالح مع ذواتهم، ومع إخوتهم، ومع اللّه. ولكن، من المحقّق أنّني لم أَكن قد بلغت مبلغَهم، فقد كان يبدو لي مستحيلاً أَن أقصد كاهنًا كي أطلعه على مواطن ضُعفي. ألم أكن بسطتها بين يدي الحكيم؟ فعلامَ لم يهبني غفران إِلهه وسلامه؟

ومع ذلك، كان لا بدّ من تخفُّفي من حملي، ومن تحرّري؛ وقد أَدركت أنّ ما كان دفينًا فيّ، كان يعيش، ومثل طفيليّةٍ نهمة، يقرض حياتي في غفلةٍ منّي. أَوَ ليس ذلك ما كان، غالبًا، يسلبني قدرتي على الكفاح؟

وعملاً بنصيحة الحكيم كنت أُصلّي. وقلت للّه:

«إِنَّني أَهبك ماضيّ، يا ربّ، بما أنّك، كما يبدو، تطالبني به.

وسأظلّ أهبك إيّاه، طالما ظلّت ذكرياتي تتعفّن في أقبيتي.

أَصحيحٌ أنّك تسترجع كلّ النفايات، حتّى تلك التي تدعى خطايا؟

فلا شيء هالكٌ لديك، شرطَ أن تُعطاه.

وأنت تعيد الحياة لِما كان ميتًا.

إِفتح، إذن، قلبي، ويديَّ المطبقتَيْن - حتّى لو كانتا قذرتَيْن - وخذ كلّ شيء.

إنّني أعطيك حتّى ما لا أَرغب في إعطائه».

كنت أردّد صلاتي المتّشحة بهذه الكلمات، وصلواتٍ أُخرى كثيرة، ولكن للأسف، كانت صلاتي تصطدم، مرَّةً أُخرى، وجيعةً، بصمت الله.

* *

عندما كنت أُصغي إلى الحكيم، كنت أُعجب بحديثه، ولا أَستطيع الامتناع عن تصديق أَقواله، وعندما كنت أُنصت لقلبي، وأُمعن في الإِنصات لجسدي، كنت أُؤَيّد، في سرّي، مطالبهما.

ما كانا يتكلّمان بنفس اللهجة. فأيُّهما كان محقًّا؟

وعندما طرحت هذا السؤال على الحكيم أَجاب: «كلاهما على حقّ». فلم أَفهم، وأَدرك هو ذلك، فقال: «سأشرح لك، فينبغي أن تفهم». ثمّ استأنف قائلاً:

«ليس، ثمَّة، حيواتٌ عديدة، بل حياةٌ وحيدة، وقوَّةٌ وحيدة، في قلب هذه الحياة: قوّة وحدة «روح الله الذي كان يرفرف منذ الأزل فوق المياه».

هذه الطاقة الجبّارة، التي، منذ بضعة مليارات السنين، ما انفكّت تدفع

على نحوٍ سرّيٍّ، ولكن بذكاء، بضع عناصر مادّةٍ عضويّةٍ مبعثرة، إلى التلاقي، والانتظام، والاتّحاد، لكي تعيش، أخيرًا، الخليّة الأولى،

ما زالت هي نفس الطاقة التي تتحرّك اليوم، وتُغنّي، وتصيح في جسد الكون، لكي يكبر هذا الجسد كلّ يوم.

هي التي تجعل الجذور تعشق الأَرض،

وتجعل سنبلة القمح تعشق الشمس، والشمس تغازل السنبلة،

هي التي تحمل الطير على اجتياز المحيط، كي يبحث عن أرضه، ويحفر عشّه،

وهي التي تدفع ذَكَر الحيوانات، دفعًا لا يُقاوَم، نحو الأُنثى.

ليس، ثمّة، حيواتٌ عديدة، بل حياةٌ وحيدة.

ومنذ عشرات آلاف السنين، هذه الطاقة الجبّارة عينها، جعلت الحيوان ينتصب ويرفع رأسه.

وهي التي أَشرعت ذراعيه كي يمسك بالأَرض ويصوغها.

وهي التي جعلت جسده يضطرم نارًا لدى نداء جسدٍ آخر.

هي التي بعثت في دماغه الروح كي يقوى على معرفة ذاته ومعرفةِ إِخوته.

وهي، أخيراً، التي جعلت، ذات يوم، قلبه يخفق إزاء نورٍ منبعث عند حدود النظر،

وهي، اليوم أيضًا، هذه الطاقة عينها، القادمة من أغوار الزمن، مجتازةً الكون، والجماعات البشريّة، تنبجس بعنفٍ فيك، مثل ماءٍ جَوْفيّ، يتفجّر بقوّة، باحثًا عن مجراه وبحره.

هي التي تولّد تلك الرغبات المتعدّدة التي غالبًا ما تضنيك، وتؤرّقك،
فهي عنيفةٌ، ويعسر إرواؤها.
رغبات هواء، وماءٍ، وشمسٍ، وأَرضٍ مغذّيّة،
رغبات حياةٍ ونموّ، ورغبات معرفة، واكتشاف رغبات الآخرين،
ولا سيّما رغبات المرأة الرائعة التي تبعث الاضطراب،
رغبات تتدفّق من قلبك لقلبها،
ومن جسدك لجسدها،
وكلاكما تطيران نحو الوحدة الموعودة.

ليس هناك حيوات عديدة، بل حياة وحيدة، ونبعها هو حبّ إلهك الذي ما انفكّ يلد الكون والإنسانيّة.

«أنا الحياة» يقول الله، وأنا أومن بقول الله».

* *

بغتةً، وجدت نفسي واقفًا في مفترق طرق هذه الحياة. لم تكن الحياة منّي، ولي، بل كانت تأتيني قادمةً من بعيد. وكانت تنفث فيّ الروح، كما تنفث الروح في جميع الأحياء، منذ الأبد وحتّى اليوم. كنت متّحدًا بهم، مبحرًا معهم في مخاطرةٍ واحدة،

غير أنَّ تلك الطاقة الجبّارة كانت تخيفني دائمًا. كانت تهبّ، بقوّةٍ، في أشرعتي الموجّهة توجيهًا خاطئًا، وأنا البحّار الجاهل، كنت، منذ زمان، أَصطدم بجميع صخور الطريق.

وكنت، بصمتٍ، أفكّر، في حين كان الحكيم، يتابع، بصوتٍ عالٍ، تأمّله

الطويل، بلا كَلَل، وكان يزداد اندفاعًا بقدر ما كان يتكلّم، وبنبرةٍ قويّة قال لي:
«جميلةٌ هي الحياة! ستقول ذلك لأبنائك:

ستقول لهم إنَّ الحياة جميلة،

ستقول لهم إنّها تسري برقّةٍ في عروقهم الهادئة،
حتّى قبل أن تستيقظ فيهم الرغبة.
هذه الحياة، القادمة من بعيد، وُلدت فيهم،
من لقاء رغبة أبيهم ورغبة أمّهم، عندما قال قلباهما نعم لجسديهما المتعانقين؛

ستقول لهم إنّ ذلك جميل.

وعندما، مثل براعم تتفتّح، بعمل النسغ الصاعد،
سيبحثون، بقلق، عن كُنْه ما يعتمل فيهم من تمزّقات،
ويأخذ قلبهم، الذي نشب به، بغتةً، بردٌ مفرط، ووحدةٌ مفرطة،
ينشد قلبًا آخر لا هو قلب أبٍ ولا هو قلب أمّ،

ستقول لهم إنّ ذلك جميل.

وعندما يشتدّ الضيق بجسدهم من نَزْف حياةٍ تفيض،
فيتساءَلون لمن، ولِمَ تُنفَق هذه الحياة، من غير أن تعطي حياة،
وعندما، مثل مكتشفين يحدوهم الاندفاع، يزورون جزيرة جسدهم ويحاولون أن يقطفوا منها كلّ ثمار اللذّة،
ويتخيّلون أجسادًا أُخرى، ويحلمون بالتحاماتٍ، وبالبحث عن كنوز،

ستقول لهم إنّ ذلك جميل.

وعندما سيضيء، بغتةً، نورُ وجهٍ أفكارَهم، وأحلامَهم، ولياليهم،
وتسيطر على خيالهم، في سرّهم، حنايا جسم،
وترتعش، فجأةً، أصابعهم البريئة،
فيمضون يتحقّقون هل هم يواجهون سرابًا،

ستقول لهم إنّ هذا جميل.

وعندما تستيقظ رغباتهم، واحدةً فواحدة، مثل نارٍ تضطرم عقبَ ليلٍ متمادٍ،

ويكتشفون، بقلقٍ يتغلّب عليه إِغراء اللهيب، أَنَّ حريقاً قد ينشب من النار المُشعلة،

ستقول لهم إنَّ ذلك جميل».

... وانحنى عليّ الحكيم وأَمسكني من ذراعي، وشدّ عليها بقوّة وهو يحدّق إليَّ، مكرّرًا القول:

«ستقول لهم ذلك، ستقول، أَليس كذلك؟ فما أكثر الشبّان الذين يفتقرون إلى من يقول لهم ذلك، فيبحثون متعثّرين، ويجرحون ذواتهم، ويجرحون الآخر، ويقتلون الحبّ وهم يزعمون أَنّهم عثروا عليه.

«**ستقول لهم إنَّ ذلك جميل.**

لأنّ ذلك هو، فيهم، نهر الحياة المتدفّق من أَغوار الأَزمنة، والذي ينشد معبرًا في جسدهم الذي بات أصغر من أن يستوعب.

ولأنّه نفحة الحبّ القادمة من اللانهاية، والتي تجعل قلبهم يخفق ويبحث عن قلبٍ آخر كي يخفق معه على نغمٍ واحد،

ولأنَّ الشابّ يصبح – يا للروعة! – نبعًا، وليس نهرًا فحسب،
ويولد رجلٌ فيما يمّحي الفتى.
ولأنَّ اللّه، من خلال جوع جسدهم السرّيّ، وجوع قلبهم،
الذي يُشيع فيهم القلق والأَلم،
يتمتم فيهم، بصوتٍ خافت: «لقد صنعتك على مثالي، يا ابن قلبي العزيز.
فلا تخنق فيك الرغبات، ولو هي أَخافتك،
إذ، بذلك ستخنق صوتي الكامن في أَعماق تلك النداآت،
بل أَصغِ، ولا تخجل، فما من داعٍ لخجل،
وأَصغِ، ولا ترتعد، فما من داعٍ لرعدةٍ.
إنّي، أنا، من يدعوك، حتّى في صميم العاصفة
إنّني مبحرٌ معك، وأَنا حاضرٌ لأساعدك.»

كان الحكيم قد أفلت ذراعي، وهبّ منتصبًا، وأَغمض عينيه وهو يتحدَّث عن اللّه. وكنت أَعلم أَنَّه، بذلك، يسعى إلى التقاء اللّه، مثلما كنت أعلم أنّه، حتّى وهو مغمض العينين، كان يرى، يرى ما أعجز عن رؤيته.

أليس هذا هو التأمّل؟ أليس هو اكتشاف ما يتخطّى الأَشياء، والأَشخاص، والأَحداث، وكأنَّ المرء يرى، من خلال التربة، جذور الشجرة، والنسغ في الجذور، وفي قلب هذه الحياة، الحبّ السرّيّ الذي ينادي، ويريد الحصاد منتصرًا.

أجل كان الحكيم يستشفّ ما وراء الأَشياء، في حين كنت أقف عند سطحها؛ وأنا الذي لم أَكتمل رجولة، لم أكن سوى فتًى، عيناه نصف مغمضتَيْن، يكتشف، بمشقّة، العالم الذي ينتظره.

وتمتم الحكيم من جديد، ولكنّه قال، وكأنَّه يحدّث نفسه: «يا للروعة!» ثمَّ تابع بصوتٍ خافتٍ، بطيء:

أجل! ما أَجمل شابًّا ينفتح، شيئًا فشيئًا، على الحبّ،

ويتلمّس دربه في الليل، متعثّرًا!

ما أجمل مساعي فتيان وفتيات يراقب بعضهم بعضًا، ويقتربون بعضهم من بعض، ويتلامسون، محاولين أن يتعارفوا،

تدعوهم وحدةٌ أزليَّة، من أجل الطفلِ المرغوب فيه!

وعلامَ لا نرى، أوَّلاً، سوى عثراتهم، وأخطائهم، وكبواتهم.

علامَ نبتسم، ونضحك أوندين، في حين يتوجّب أن نُعجَب، ونحتفل ونشكر، لكي نستطيع، في ما بعد، أن نوجّه توجيهًا سليمًا؟

.... ولكن، من أنا، يا إلهي، كي أتطلّع إلى أن أكون منشد الحبّ؟ ألا يتوجّب عليَّ أن أخرس؟...»

ثمّ التفت الحكيم نحوي، وقال: «عندما ستدرك، أخيرًا، أنَّ الحبَّ يشعُّ بجمال الله اللاّمحدود، لأنَّه انعكاسه الحيّ في الإنسان، حينئذٍ ستستطيع أن تقول لأَبنائك إنَّ بحث شبابهم رائع، وحينئذٍ فقط، تستطيع ألاّ تقول لهم: ممنوع «هنا،» وممنوع «هناك»، بل أن تؤكّد لهم أنَّ المخاطرة من الجمال بحيث ينبغي عدم إفساد أيّ شيءٍ، وعدم تلطيخ أيّ شيءٍ فيها،

وأنَّ الحبّ عسير جدًّا، لأنّه كفاحٌ طويل، كفاح الرجولة الذي عليهم أن يخرجوا منه منتصرين».

(٢٠)

كان الأمر إِذن جميلاً، ولم أكن أَعرف.

لم يكن مخجلاً أَن يجوع المرء، ليلاً، ويبحث عن طعامه. ولكنّني بتُّ أدرك، الآن، أنّ ترك الرغبات تتغذّى حينما تشاء، وكيفما تشاء، يؤدّي إلى دمار الإنسان.

صحيح أنَّه اتَّفق لي، أحيانًا، أَن أُدرك – لا لأنَّ الحكيم قد ساعدني على ذلك، بل من جرّاء اختبارٍ شخصيٍّ – أنّني، متخطِّيًا جوع جسدي، بل أيضًا، جوع قلبي، كنت أَنشد، بلا وعيٍ، غذاءً أَدسم ممّا كانت توفّره لي الملذّات العابرة. ففي بعض الأيّام، إزاء فتاة نقيَّة العينين، ورغم استبداد رغباتي وسخريّة رفاقي، كانت أصابعي وشفاهي تصاب، بغتةً، بالخجل، وكان قلبي يتمتم في سرّه: «ليس مع هذه».

ولمَ لا؟

وكيف كان لي أن أُخمّن، وأنا منحنٍ انحناءً خطرًا على حافَّة بعض عيونٍ صافية، تحاكي نوافذَ مشرعة على آفاقٍ لا نهاية لها، أنّ النور الغريب الذي كنت أستشفُّه آنذاك، لم يكن سوى بسمة الله تدعوني إلى تحطيم قيود سجني، والانطلاق في مخاطرةٍ بعيدةٍ، متمادية البعد، على دروبٍ غير دروبي المسدودة.

واليوم بتُّ أعرف – أوكنت أظنّ أنّي أعرف – وعزمت على المضيّ، بلا توقّف، على دروب اكتشافاتي الثمينة.

* *

كان الحكيم يعرفني، ويعرف أنّ فيّ شيئًا من الحصان الجامح الذي حُبِس طويلاً، مُعتَقَلاً في إسطبله، وكان يخشى، إن أنا تحرّرت، من أن أجمح، فقال:

– لا تحلم يا صغيري. إنّني أُكرّر وسأظلّ أُكرّر أن لا شيء أجمل من شابّ يحطّم، واحدًا فواحدًا، خيوط شرنقته، ويحاول الطيران وهو لا يعلم إلى أين يطير، ويجهل أنَّه ينشد تلك الّتي ستُبرز له، أخيرًا، ***وجهًا*** للحبّ. بيد أنَّ الطريق المؤدّي إلى اللقاء طويل، ولا ريب أنّه أطول وأوعر، ولكنّه أجمل، الطريق الذي يقود المحبّين الملتقين، إن هم كانوا مخلصين، إلى صميم ***الحبّ*** اللانهائيّ، الذي يدعوه الناس سماءً.

الحبّ لا يُفرَغ منه، ولا بدّ من تعلّمه كلّ يوم.

فقلت له:

– أرشدني إلى السراط، وسأنتهجه قبل أن أَدفع أبنائي فيه.

– ينبغي، أوّلاً، أن تجعل من ذاتك رجلاً، يا صغيري.

فأجبته بعنف، مجروحًا بعض الشيء:

– ولكنّني رجل!

– ليس بعد. فإنّ رجلاً يولد فيك، ولكنّه لم يكتمل بعد.

– وما يتعيّن عليّ أن أفعل لكي أَستكمله؟

– ينبغي أن تصبح الحياة التي تتلقّاها من الآخرين، ومن العالم، ومن اللّه، حياتك.

الحيوان، أيضًا، يتلقّى الحياة، ولكن على نقيض الإنسان، لا يسهم بأيّ قسطٍ في خلق ذاته. فكلّ شيءٍ فيه مبرمج، وغريزته هي التي تقوده.

والداك صَنعاك ولدًا صغيرًا، ولكنّك، أنت، تصنع من ذاتك، شيئًا فشيئًا، رجلاً، بتمثّلك كلّ القوى الحيّة، وبتنميتها، وتوحيدها. كذلك على النهر أن

يتغذّى بنبعه وبروافده، وسرعان ما ينضب مجراه، إن نأَتْ عنه مياهه. وبقدر ما تغتني وتصبح سيّد نفسك، بنفس القدر ستصبح «رجلاً» وستستطيع أن تقول: «أنا» أُفكِّر، «أنا» أتكلّم، «أنا» أعمل، وبحرّيّةٍ تقول «أنا» آتٍ إليك، يا حبّي الذي أُحبّ.

ولكن، وا أسفاه! قلائل هم الرجال الأغنياء بحياتهم.

– لمَ؟

– لأنّ البعض يحتفظون بها حبيسةً في داخلهم؛ فهي تخيفهم، وهم أحيانًا يزدرونها؛ فتصبح حينئذٍ، ماءً آسنًا يتعفّن ويموت في أعماق آبارٍ مهجورة.

وبعضهم يهدرونها، فهي أقوى منهم، وتنساب بين أصابعهم، ولا يجدون إلى حبسها سبيلاً؛ وتضلّ بين الرمال، ولا تُنبت شيئًا.

وآخرون، أخيرًا، يظنّون أنّ الحياة التي تقبّلوها في ذواتهم، ينبغي أن تتحرَّر، فيُشرعون على مصاريعها أبواب أجسادهم، وقلوبهم، وأفكارهم، ويقولون لها: أنتِ حرّةً، فامضي، وعيشي، واقطفي ثمار الملذّات، كيفما ترغبين، وعندما ترغبين، وكما تشائين؛ غير أنّ نهرهم الذي لا مجرى له، ولا ضفَّة، ولا سدّ، ولا أقنية، ولا سكور، سرعان ما يصبح نهرًا جافًّا، مجراه حجارٌ جافّة.

مساكين هم الذين يظنّون أنّهم أحرار، في حين أنّهم خاضعون، يركضون سعيًا وراء الحياة التي تفرّ منهم في كلّ اتّجاه، فينهكون، ويطفون على سطح الحياة، وقد يَلقَون، من جرّاء ذلك، نحبهم.

ومن يستطيع أن يعيش بلا حياة، يا صغيري، أويستطيع أن يحبّ إن لم يملك ما يعطيه؟

ومن يستطيع أن يحمل جوقته على الإنشاد – لآخر – أنشودة الحبّ، إن

شاءت كلّ آلةٍ موسيقيَّةٍ أن تعزف على هواها، رافضةً كلّ تقسيم، وكلّ رئيس فرقة؟

أُؤكّد لك أَنّه ينبغي أن تكون رجلاً واقفًا على قدميه، غنيًّا بذاته، وسيّدًا لها، لكي تستطيع محاولة الحبّ.

واعترضت:

– ولكنّ الحبّ لا يأتي بناءً على طلب، بل هو قوّةٌ تحفزنا وتجتذبنا، وليس لنا إزاءها حيلة.

«أنت مخطئٌ، يا صغيري.

ليس الحبّ انبهارًا أمام جمال وجهٍ يشعّ نوره لناظرَيْك،

بل الجمال الحقّ هو انعكاس نفس، والنفس تتخطّى ناظرَيْك، وتبحث عنها مرتعدًا،

وليس الحبّ افتتانًا بذكاءٍ حادّ منفلت، يسكب، في كلمات، آراء من شأنها إرضاؤك؛ فقد يتألّق الذكاء بألف بريق، من غير أن يكون ماسةً حقيقيّة، مخفيّة في أعماق المحبوب.

وليس الحبّ تأثّرًا حيال قلبٍ يخفق من أجلك، أكثر من خفقانه لآخرين، ولا هو ذلك الإعجاب بأن تكون مختارًا، من غير أن ترى لهذا الاختيار سببًا يبرّر هذا الجنون، فقد يخفق القلب لآخر ويدعك نازفًا، باكيًا، وحبّك، أنت، ما زال حيًّا.

ليس الحبّ رغبةً في الاستحواذ والاستيلاء على ما ترغب فيه،

سواء كان قلبًا، أو جسدًا، أو روحًا، أو جميعها معًا،

فالآخر ليس «غرضًا» وإذا ما أخذته لنفسك، أكلت ودمَّرت،
ولكنّك ستحبّ نفسك، وأنت تتخيّل حبّ الآخر.

الإعجاب والافتتان، والجوع والرعشة، والأحاسيس وتفجّر الرغبات، كلّ ذلك جميلٌ وضروريّ، لدى الرجل ولدى المرأة،
ولكن فقط لكي يساعد على الحبّ من يريد الحبّ.
إنّه بابٌ منفرج، ونوافذُ مشرعةٌ على مصاريعها،
والهواء الذي يتدفّق.
إنّه نداء الآفاق الفسيحة، وتمتمة الله، اللّذان يدعوان إلى الخروج من البيت المغلق، من أجل المضيّ نحو آخر اخترت أن تملأه بحياتك،
لأنّك تحبّه، ولأنّك تريد أن تُحَبّ.

فالحبّ، يا صغيري، هو:

أن تريد الآخر حرًّا، لا أن تفتنه،
وأن تحرّره من قيوده، إن ظلّ سجينًا،
لكي يستطيع، هو أيضًا، أن يقول: «أحبّك»،
بمعزلٍ عن ضغط رغباتٍ جامحة.

الحبّ هو أن تدخل إلى الآخر، إن هو فتح لك أبواب بستانه السرّيّ الذي يتخطّى دروب جولاته المعتادة، والزهور والثمار التي يقطفها على حافّات بساتينه المنحدرة حيث ستستطيع، دهشًا، أن تتمتم: ها «أنت» ذا يا حبيبي، وأنت حبيبي الوحيد»

الحبّ هو أن تريد، بكلّ قواك، للآخر، خيرًا، قبل أن تبتغيه لنفسك،
وأن تفعل كلّ شيء لكي يكبر المحبوب ثمّ يزدهر،
مصبحًا، كلّ يوم، الإنسان الذي عليه أن يكونه،
وليس ذاك الذي تودّ أن تصوغه على صورة أحلامك.

الحبّ هو أن تهبه جسدك، لا أن تأخذ جسده،
وأن تتقبّل جسده عندما يودّ المشاركة؛
وهو أن تتخشّع، وتغتني، لكي تقدّم للمحبوب،
أكثر من آلاف المداعبات، والعناقات المجنونة،
حياتك كلّها مجمّعة بين ذراعَيْ «أنا» لكَ.

الحبّ هو أن تقدّم ذاتك للآخر، حتّى لو تمنّع الآخر، برهةً،
وهو أن تعطيه، بلا حساب، ما يعطيه هو، وتدفع له أغلى ثمن، غير مطالب بردّ أيّ رصيدٍ متبقٍّ.
وهو، الحبّ الأسمى، أن تغفر عندما يتخاذل المحبوب،
ويسعى إلى منح آخرين ما وعدك به.

الحبّ هو أن تنصب مائدتك، وتجهّزها، كي يجلس إليها ضيفك من غير أن يساورك، أبدًا، أنّك من الاكتفاء بذاتك بحيث تستغني عنه. فإذا حرمت ذاتك من الطعام الذي يزوّدك هو به، لن تستطيع أن تقدّم، في مأدبة العيد، سوى خبز الفقير اليابس، لا المأدبة الملكيّة.

الحبّ هو أن تؤمن بالآخر وتثق به، تؤمن بقواه الكمينة، وبالحياة التي تقطنه.

وهو، أيّة كانت الحجارة التي ينبغي إزاحتها من أجل تعبيد الطريق،

أن توطّن العزم، وأنت واعٍ لِما تفعل، على المضيّ ببسالة على دروب الزمن،

لا من أجل رحلة مئة يوم، أو ألف يوم، أو عشرة آلاف،

بل من أجل حجٍّ لا نهاية له، لأنّه حجٌّ يستمرّ دائمًا

ولا مناص من القول، لكي أُطهّر أحلامك، أنّ الحبّ هو الرضى بالألم، والموت عن الذات، من أجل الحياة وإتاحة الحياة للآخرين.

هو أن يستطيع الإنسان نسيان ذاته في سبيل آخر، بلا أَلَم، وأن يستطيع الصدوف عن العيش من أجل ذاته، من غير أن يموت فيه شيءٌ منه.

الحبّ، أخيرًا، هو كلّ ذلك وأكثر.

فأن تحبّ هو أن تفتح ذاتك على الحبّ اللانهائيّ، وتستسلم له.

وبشفافيّتك لهذا الحبّ القادم، والذي لن تفتقر إليه أبدًا،

هو أن تتيح لله أن يحبّ من عزمت أنت، بحرّيّة، على حبّه،

وهذه هي المجازفة السامية».

* *

وجال بخاطري: إن كان هذا هو الحبّ، فكيف سأتمكّن منه؟

كنت محبطًا، ومثل مبتدئ في أسفل جبل، يرمق القِمَم بإعجاب، وهو يظنّ أنّه عاجزٌ عن تسلّقها، راودني خاطر التخييم في الوادي.

فلم أكن قد أَدركت، بعدُ، مع ما كرَّره الحكيم على مسامعي، أنّ ما كان يلقّنني عن الحبّ هو هدفٌ يتعيّن بلوغه، وليس نقطة انطلاق، وأنّ محاولة بلوغه، تقتضي الكفاح، مدى الحياة كلّها.

كنت أريد كلّ شيء، في الحال، وذلك كان خطإي. إذ كان يتعيّن عليّ أن أسير بخطوات متسلّق الجبال الأصيل، خطواتٍ وئيدةٍ ومنتظمة.

(٢١)

كنت أفكرّ وأُصلّي.

صحيح أنَّ الحبّ كان لي، حتئذ، شعورًا وإحساسًا، وأنّني كنت أقيس قيمة حبّي بمعيار كثافة مشاعري وعنف رغباتي.

وكنت أظنُّ أنَّ حبّي لفتاة هو أكبر، عندما كانت النار التي يُضرمها فيّ أقوى التهابًا وأطول دوامًا من النيران السابقة، التي كانت قد انطفأت ببطء، بعد أن نفد غذاؤها، أو انطفأت فجأة، كما لو أنّ نارًا أُخرى اشتعلت فجأةً، فسلبت، على نحوٍ سرّيّ، شعلتها كلَّها.

لم أكن أَحفل بالرماد الذي ما ينفكّ يبعث بعض دخان، والذي كانت تبلّله دموع فتيات هجرتهنّ، بل كنت أعجب من بكاء تلك الفتيات، فيما كنت، أنا، أتدفّأ إلى جانب موقدٍ آخر.

ولكنّني ما زلت أذكر أنّني، ذات مرّة، كنت أنا من بكى؛ كنت جريحًا وأتّهم محبوبتي بجهلها الحبّ الصحيح، وكان يجول بخاطري أنّه كان عليها أن تحبّني، بما أنّني، أنا، كنت أحبّها.

من هذه التجارب - التي استهدف بعضها التسلية، فيما حاولتُ الاعتقاد أنّ سواها كان جادًّا - استخلصت أنّه يتعذّر على الحبّ أن يدوم، وأنّه، بالتالي، من الحمق أن يرغب المرء في الالتزام، بما أنّ شريعة النار هي الحرق والتدمير.

ومع ذلك ظللت أترقّب، آملاً أن تحدث معجزةٌ سرّيّةٌ يومًا، وأحظى بحبٍّ مختلف.

فقد صادفتُ أزواجًا طاعنين في السنّ يرتجفون ولكنّهم ما زالوا يتحابّون، وهم على مشارف نهاية عمرهم. أَوَليس في ذلك الدليل على أنَّ الحبّ الدائم ليس مستحيلاً؟

كنت أترقّب وأنا لا أدري، ولا أُدرك، ولا أفعل شيئًا سوى تكرار المحاولة.

* *

أمّا اليوم، فقد باتت المشكلة مختلفة.

فقد تبيَّنتُ، مذهولاً، أنّني عندما كنت أَظنّ أنّني أُحبّ، لم أكن أحبّ في الواقع سوى ذاتي، ولا أحدًا سواها. وهذا الاكتشاف الذي هزّني كان يغمرني بالخزي، وفي الآن عينه يُرعبني. فقد كنت أنهج سبيل الضلال. وإن أنا شئت أَن أُحبّ حبًّا أصيلاً، تعيّن عليّ العزم على انتهاج سبيلٍ آخر. وكان ذلك يقتضي منّي ارتدادًا حقيقيًّا.

كنت أحبّ ذاتي، وليس في ذلك ضَيْر، كما أفهمني الحكيم. ولكنَّ حبّي لذاتي كان حائلاً دون حبّي للآخرين، إذ إنّني كنت أستخدمهم لكي أحظى بمُتَعٍ صغيرةٍ أنشدها بنَهَم.

كنت أحبّ «الفتيات» مثلما «أحبُّ لفائف التبغ» التي كنت أشتهيها، فأتناولها، وأستهلكها جزئيًّا، ثمَّ أَقذف بها بعد أن أحوِّلها رمادًا.

وكنت راغبًا في أن أُحَبّ. ولكلٍّ من صديقاتي العابرات، كنت أقول، غير مؤمنٍ بما أقول: «أُحبّك» لكي أسمعها تجيب: «أنا، أيضًا، أُحبُّك». وإذا ما انطوت تلك الإجابات الرعناء على بعض حبٍّ حقّ، فقد كنت أستأثر به، لأنَّه كان يروق لي أن أكون محبوبًا.

كنت وحيدًا، أبحث عن حضورٍ لكي أُحطّم وحدتي. كنت راغبًا في التحدُّث، وأبحث عمَّن يصغي إليَّ بصبر. وعندما لا أعود أملك ما أقوله

لصديقاتي، كنت أتطلَّع إلى ضجيج كلماتهنّ لكي أملأ به مجالات صمتي.

كان جسدي يفتقر إلى حنانٍ وملذّات، وكنت أُعدّ الخطَط للاستيلاء على جسدٍ من شأن مداعباته وقبلاته إرواء غليلي، برهةً. وإذا ما قدّم جسدٌ ذاته لأنّه، هو أيضًا، كان جائعًا، أسعدني أن أستغلّه بلا جهد، وتمتّعت بتلك الوجبة المجّانيّة.

أَوجز، مكرّرًا أنّني كنت ***أحبّ ذاتي*** أكثر من كلّ شيء، وأنّ قصّة «غزواتي» التي كنت أسردها لم تكن سوى حِيَل تساعدني على الظفر بما أبتغي.

لا ريب أنَّ شريكتي كانت، أحيانًا، كما أسلفت القول، موافقة، وكانت ترغب فيَّ عندما أرغب أنا فيها، وكان كلٌّ منّا يحاول نَهْب الآخر. كنّا أنانيَّتين تتوافقان لفترة، فتتواطآن. وكنّا ندعو ذلك حبًّا، وربَّما صدَّقنا أنَّه كذلك.

* *

تأمَّلت طويلاً، وأنا ما زلت دهشًا حيال كلّ تلك الأخطاء التي باتت جليَّةً، وأتساءل كيف ضَلَلْتُ إلى هذا الحد!

وبتُّ أُدرك أنَّ رغباتي جميلةٌ وسليمة، عندما هي تتفجّر من قلبي، نظيفةً قشيبة. وحينئذٍ، كما أكّد لي الحكيم، لا مبرّر للخجل منها. ولكنَّها كانت وحشيَّةً منفلتة، مثل أحصنةٍ جامحة تتراكض، مجنونةً في حقول حياتي. أحيانًا كنت أحاول اللحاق بها، ولكن سرعان ما يتولاّني الإرهاق. كانت هي التي تجرُّني، وأنا تحت رحمتها. وكان لا بدّ من السيطرة عليها، وترويضها، لكي تصبح لي مطايا متينة تقودني إلى حيث كنت أعتزم الذهاب.

* *

تحدَّثتُ طويلاً، ويومها أيَّدني الحكيم تأييدًا كاملاً. وكان وجهه مشرقًا مثل وجه فلاّح يرقب، بسكون، نضوج الحصاد. وقال لي:

– أنت محقّ، فالإنسان عبد، إن سيطرت رغباته عليه؛ ولكن إن هو احتواها، وشيئًا فشيئًا أحكم سيطرته عليها، بات بمكنته أن ***يختار، ويقرّر*** بحرِّيَّة.

لا يولد الإنسان حرًّا، ولكنَّه يكتسب حرّيّته. وكيف له أن يقول: أُحبّك، إن هو كان مُكرَهًا على الحبّ؟

وأجبت:

– سأكافح لكي أتحرّر وأُصبح سيّد ذاتي.

– ومع ذلك لن تنعتق من جميع مشاكلك، يا صغيري. فالحبّ ليس قدرة الإنسان على اختيار ما يودّ «أخذه» بل قراره الخطير «بإعطاء» ما يريد إعطاءه، لمن يريد إعطاءه.

فلا بدّ من كفاح يوميٍّ في سبيل ***تحويل رغبتك في الأَخذ إلى إرادة عطاء***، وفي خطٍّ موازٍ، ***تقبُّل*** ما يقرّر الآخر تقديمه لك.

مرَّةً أُخرى، تردَّدت في الفهم وقلت:

– أين هو الحبّ إن كان الحبّ يستلزم كلّ هذه الجهود؟

– هذه الجهود هي التي تجعل الحبّ حقيقيًّا.

– هل يقتضي ذلك، إذن، نسيان الذات وإنكارها كلِّيَّة؟

– كلاّ، بل على نقيض ذلك، كما قلت لك. فينبغي تقبُّل كلّ الحياة، وتوحيدها، وإِغناؤها، وتوفير الازدهار الأقصى لها، للتمكّن من العطاء، وإعطاؤها لا يعني فقدها، بل العثور عليها، مثل الحبّة التي تقدّم ذاتها للأرض بسخاء فتجد نفسها سنبلة.

الفتاة التي ستقابلها ستكون حقلك، وستكون أنت حقلها. وسيكون حصادكما ما هو بذاركما، وخصب تربتكما.

وتمتمتُ، حالماً:

– هذا جميل، ولكن من يستطيع أن يحبّ على هذا النحو، كما يتوجَّب الحبّ؟

– «لا أحد. فاللّه وحده يحبّ حبًّا كاملاً، يا صغيري. فهو ***عطاءٌ كلّيّ، وتقبُّلٌ كلّيّ***. وعطاؤه لانهائيّ كما هو لانهائيّ تقبّله. ولذلك هو ليس فقط من يحبّ أكثر من الجميع، بل ***هو الحبّ***.

أمّا نحن، فلسنا اللّه، بل صورته فحسب، وعلينا أن نستخرج، من داخلنا، شيئًا فشيئًا، هذه الصورة، على نحو ما يبعث المثّال، من الحجر الأصمّ، التمثال الذي كان قاطنًا فيه وينتظره كي يرى النور.

يا لعظمة وروعة مجازفة الحبّ الشاقّة، دعوة الإنسان الفريدة تلك، التي، بمعزلٍ عنها، لا عهدَ له بسعادةٍ، أو سكينةٍ أبديّة!

فهو، في سبيل تحقيقها، كامنٌ منذ الأزل في فكر اللّه وعطفه.

عسى نفحة حبّك، أيّها الآب، تلك النفحة التي تصوغني بلا انقطاع، مثلما تصوغ الأمّ، بحياتها، ابنَها، في أحشائها،

عسى نفحة حبّك تساعدني على أن أصبح، أكثر فأكثر، أنت، بتوجّهي كلّ يوم، بكلّيّتي، أكثر، نحو الآخرين، لكي أُقدّم لهم حياتي، بتقبّلي حياتهم».

وقلت:

– إذن، يا صديقي، لن أُصبح ذاتي إلاّ بحبّي الآخرين حبًّا صادقًا؟

– أجل، يا صغيري؛ وأيضًا بمساعدتك الآخرين على الحبّ، فأنت عضو جسدٍ كبيرٍ ينمو معك. ولذلك قلت لك، منذ لقاآتنا الأولى: «التزم بخدمة إِخوتك»

هل نسيت ذلك؟

(٢٢)

لا، لم أَنسَ شيئًا. فتعلُّم حبّ «فتاة» يعني تعلُّم حبّ جميع إِخوتي. مرَّةً أُخرى، كان الحكيم قد دفعني نحو «الآخرين» في حين لم أكن أُفكّر إلاّ «بواحدة» أُخرى، أبحث عنها، أَنتظرها، مُتوجِّسًا خشيةً من فقدان اللقاء. فقد شرعت أومن أنّ ربط حياتي برباط الحبّ مع حياة فتاة، أمرٌ ممكن، وقد بتُّ واثقًا من أنّها، في الواقع، مخاطرةٌ رائعة، ولكن ما أصعبها!

ومع ذلك جال، بغتةً، في خاطري: أَليس الإنسان، اليوم، أحمق، عندما هو يحلم ببناء عالَمٍ من العدل والسلام، في حين هو يعجز، أكثر فأكثر، عن بناء أُسرة؟

لقد جدَّد إدراكي لهذا الواقع عزيمتي، فقد كنت راغبًا في الخدمة. ويومها طرحت، بغتةً، على الحكيم سؤالي:

– يا صديقي، ما عساي أن أَفعل كي أَتأهَّب لحبّ فتاة؟

– بحبّ إِخوتك، كما علَّمتك، ثمَّ بالتفكير فيها، وبالشروع بحبّها.

– وكيف لي أن أحبّها وأنا لا أعرفها؟

– الأمّ لا تعرف ابنها، ومع ذلك تحمله.

وتابع: «ما ينطبق على الولد، ينطبق على حبّكِ. و«هي» من جانبها، تتأهَّب – أرجولك ذلك – وحياتك اليوم ستكون حياتك غدًا. أَوَهل تعتقد أنَّك ستحبّ، في لحظة، بمجرّد قولك: «أُحبّك»؟

في كلّ يوم يولد حبّك لها، وفي كلّ يوم ينمو.

لن تقدّم لها سوى ثمار شجرتك.

فكّر بها، يا صغيري. عِشْ من أجلها، ولكن أعود فأكرّر أن افعلْ ذلك ***وأنت تحيا من أجل إخوتك***.

فكّر، أيضًا، بأَخواتها، فتيات دربك، اللواتي تسير معهنّ. إنّها لرحلةٌ رائعة تلك التي تجتازونها معًا، والتي لن تتكرّر.

بإمكانكم أن تتعارفوا، ويقدّر بعضكم بعضًا، ويحبّ بعضكم بعضًا، ويُعدّ بعضكم بعضًا لرحلات غدكم الشاقّة، الجميلة. ولكن بوسعكم، أيضًا، أن يجرح بعضكم بعضًا، ويُضعف بعضكم بعضًا إضعافًا خطيرًا، إن اتّسم سلوككم باللامبالاة والنهَم، وبتمثيلكم الحبّ معًا، قبل أن تتمكّنوا من معرفة الحبّ.

إمضِ إليهنَّ، وتكلّم:

أيّتها الفتيات الجميلات، رفيقات أسفاري الرماديّة،
أقول لكنّ إنّني أحتاج إليكنّ أشدّ حاجة،
لكي يولد، منّي، دَهِشًا، الرجل الذي ترغبنَ فيه.
فبمكنتكنَّ أن تكنّ لي أُمّهات، قبل أن تكنّ زوجات،
بمنحي الحياة التي سأمنحكنَّ

أيّتها الفتيات الجميلات، رفيقات أسفاري الرماديّة،
هل تعينَ قدرتكنّ؟
أنتنَّ اللائي يخطرنَ، بريئاتٍ أو منحرفات، على دروبي اليوميّة،
مثل أريج ربيع، تحت نوافذي الموصدة،

ومثلِ أنغامٍ تُشيع النشوة، ودعواتٍ ملحاحةٍ إلى رقصة السعادة، وثمارٍ ذهبيَّة تُغري فمي الجافّ،

وينابيع تنعش حُمَّيات لياليّ،

وشموسٍ مشرقة، ومداعبات أشعَّةٍ رقيقةٍ، رفيقةٍ بقلبي المرتعش،

وأجسادٍ مرنة، وموجاتٍ متراقصة، يعلوها زبد شعوركنّ، فيها يغوص جسدي المتأجّج.

أيَّتها الفتيات الجميلات، رفيقات أسفاري الرماديَّة،

إنَّكنَّ توقظنني باكراً، وبقسوةٍ، من غفوتي الشتويّة،

وتقسِرنَني على الخروج من غرفتي الموصدة المؤثَّثة بعناية لتوفير رفاهي.

تبسطنَ بمهارة أصابع طفولتي البكر، التي ما انفكّت منكمشة،

وتفتحنَ عينيّ، وتحوّلنَهما عن ذاتي.

وتجتذبنَني، يا بنات حوّاء، مثل طُعمٍ لا يُقاوَم،

نحو مطارح بعيدة، سرّيّة، حيث تزعمنَ امتلاك كنزٍ لم يمسَّه أحد.

أيّتها الفتيات الجميلات، رفيقات أسفاري الرماديّة،

أفصحنَ:

ما هو سرُّكنّ؟

أين تقُدْنَني؟

ما ستعطينَني؟

بوسعكنَّ انتزاع أزاهير حقولكنَّ، ومدّها لي من بعيد لحملي على السير، وإكراهي على الجري،

بوسعكنَّ اجتذابي إلى مراعيكنّ، بعيدًا عن مسقط رأسي، وعن والديَّ المسنَّين، فلا ريب أنَّكنَّ تعلمنَ، لكونكنَّ مُروِّضاتٍ ماهرات، أنّني، في سبيل اللحاق بكنّ، سأقفز فوق أعلى الأسوار،

غير هيّابٍ من أسلاكٍ شائكة قد تدميني،

غير مُنصتٍ إلى تنهُّدات أمٍّ يضنيها القلق،

منتهكًا حرمة مُثُلي، وقراراتي، ومقاصدي،

منتزعاً، واحدًا فواحدًا، ثيابي الفاخرة، النظيفة المكويّة؛

وإنَّني سأجري، وسأطير، عاريًا،

لألحق بكنَّ أخيرًا، وأُلقيكنّ فوق السنابل الخضراء.

ساحقًا الحبَّة التي كانت تنتظر الخبز.

* *

أيّتها الفتيات الجميلات، رفيقات أسفاري الرماديّة،

ماذا فعلتنّ بي؟

مع أنكنّ كنتنّ على علمٍ بأنّ الأعشاب المجنونة تنبت في قلبي، فتخنق العشب الجيّد، فأنا، وا أسفاه، غالبًا، بستانيٌّ يُسيء العناية ببستاني السرّيّ.

كنتنَّ على علم أنّ الحطب الميت يتكدّس، كلّ يوم، في خرجي الثقيل، خرج حاجٍّ تائه.

ولكنّ توقكنَّ إلى حرارة الموقد، ونور اللهب الخاطف الذي لا يدوم سوى لحظة، دفعكنّ إلى إشعال النار في سرابي، بلهبةٍ مجنونة، فأحرقتنّ أحلامي..

أيَّتها الفتيات الجميلات، رفيقات أسفاري الرماديّة،

ما الذي بقي من الموقد الملتهب؟

بعض أغصانٍ متكلّسة، لم تعد قادرةً على حمل أيّ ثمر،

وطعم رمادٍ أسود في أفواهنا التي اعتراها البرد.

وقد حرقتنّ أجنحتكنّ مثل فراشات صيف، أجنحة كان من شأنها أن تمضي بكنّ سريعًا، وعاليًا.

ومنّي لم تظفرنَ إلاّ بصيحةٍ، عوضًا عن ظفركنّ بأنشودتي.

* *

أيّتها الفتيات الجميلات، رفيقات أسفاري الرماديّة،

كنت في حاجةٍ إليكنّ،

لا إلى مؤهّلاتكنّ الناريّة، ملهباتٍ ليالي صيفي إلهابًا خطيرًا،

بل إلى عذوبتكنّ اللامتناهية، كندًى ينعش صباحات أيّامي القاسية.

كنت في حاجةٍ إلى نبعكنّ الصافي، لإرواء شجرتي،

لا إلى عواصفكنّ التي تحطّم أغصانها.

كنتُ في حاجةٍ إلى نورٍ تقطره عيونكنّ، لمحو الظلال التي تخفي نهاري.

إنّني أعترف أنّني كنت في حاجةٍ إلى أن تقلنَ لي «كلاّ» في حين كنت، بكلّ قواي، أنشد «نعم».

كنت في حاجةٍ إلى «كلاّ» لا يكون هزيلاً، خجولاً، أو مذعورًا،

ولا إلى «كلاّ» قَرَفٍ وحزْنٍ،

بل كنت في حاجةٍ إلى «كلاّ» مبتسم، منعشٍ كالنسيم،

يبعث فيّ الرغبة، مكتومةً
– فكبريائي تمنعني من الإعلان عن تلك الرغبة –
رغبة في احترامكنّ، أيّتها الفتيات الجميلات.
رغبة في الإيمان بأنّ الحبّ هو زهرةٌ من الجمال بحيث لا يسوغ انتهاكها عندما يحدونا مجرَّد المتعة إلى انتزاعها.

* *

يا يسوع، إلهي، أنت الذي تفوَّق في الحبّ،
إنَّني أوكل إليك، اليوم، فتيات أسفاري الرماديّة الجميلات،
واكبْهنَّ على دربهنّ الخاصّ، وعندما تتشابك دروبنا.
ساعدهنَّ على منحنا، نحن الفتيان، ما يسعهنّ، أكثر من سواهنّ، منحه:
الرغبة في الانفتاح، عوضًا عن الانكماش،
والرغبة في نسيان ذواتنا، عوضًا عن الاستغراق في التفكير فيها،
الرغبة في تجاوز ذاتنا عوضًا عن الركود،
الرغبة في العطاء عوضًا عن السعي الدائم إلى الأخذ،
لأنَّكنَّ جميلات، يا فتيات أسفاري الرماديّة،
ولأنّ بوسعكنَّ تعليمنا الحبّ».

(٢٣)

ومن «أجلها»؟ لم تقل لي بعدُ، يا صديقي، كيف أفكِّر «بها» وأصلّي «من أجلها»!

ولم يُجِب الحكيم. ولم أُدرك لمَ كان يصرّ على حرمان سؤالي من جواب. لقد حدَّثني عن «الآخرين»، ثمّ عن فتيات دربي. وماذا عنها «هي» تلك التي كنت أترقَّبها؟

ألم يقل لي إنّ عليَّ الشروع بالتفكير فيها؟

كان يُعمل الفكر، ويبدو متردِّدًا.

وفجأة انتصب واقفًا، وواكبتُه بنظري، فاتَّجه نحو خزانةٍ كبيرةٍ طالما أَغراني جمالها بتأمّلها. فنقشُها الرائع كان يحدّثني عن الصُّنّاع القدامى. وأعلن الحكيم في شيءٍ من الاعتزاز:

– هذه خزانة أَجداد أَجدادي.

وفتحها، وإِثر بحثٍ وجيزٍ عاد إليّ، وهو يحمل، في حيطة، صندوقًا خشبيًّا، بدا لي، هو أيضًا، قديم العهد. وأَخرج رزمة من الأوراق فكّ، بعنايةٍ، الشريط الذي كان يُبقيها سجينة.

وفيما كان يبحث عن ورقةٍ قال لي: «لقد عانيت طويلاً، أنا أيضًا، قبل أن أكتشف دربي، واصطدمت بعوائق سُبل مسدودة المسالك، و...» وتردّد مرّةً أُخرى، وبصوتٍ خفيض أنهى جملته بقوله: «... أنا أيضًا، غالبًا ما

جرحت الآخرين وجرحت نفسي! ولذلك أظنّ أنّني أفهمك، وأرغب رغبةً شديدةً في مساعدتك».

ثمَّ تنهَّد وقال أيضًا: «عندما لا نحسن الحبّ نُلحق الكثير من الأذى بأنفسنا وبالآخرين!».

وساد صمتٌ، تمتَّعتُ، في أَثنائه، باعتراف الحكيم هذا، لا انتصارًا باكتشافي أنّه، هو أيضًا، عرف الوهن، وربّما ما انفكّ يعاني منه، ولكن بعثوري، أخيرًا، على إجابةٍ لاعتراضاتي الوجيعة الملحّة، التي كانت تراودني، وأنا أسمعه يدلي بأقوالٍ جميلةٍ في الحبّ، فأقول في نفسي، ولا أجسر على مصارحته: «لو كان يعرف ما هو البحث والسقوط، لما تكلَّم كما هو يتكلّم!»

كان يعرف، إذن. وارتدت كلماته، فجأةً، قيمةً غريبة. فقد كانت زاخرةً بالحياة.

كان صديقي قد أغلق الصندوق بعناية، وبات يحمل بين يديه ورقةً مثنيَّةً. وعندما نشرها توقَّعتُ أن يقرأ بصوت عالٍ النصّ الذي كان يطالعه بعينيه، ولكنَّه، بغتةً، طوى الورقة، ومدّها لي، وقد اتّضح لي تأثُّره. وقال:

«هيّا، يا صغيري، خذها». وتردَّدت، وقد اعتراني الخجل بغتةً، إذ آنستُ أنَّ الحكيم يدخلني إلى محراب حياته الحميمة.

فكرّر القول:

«خذ. أنا، أيضًا، خشيت أن أُفسد اللقاء، وفي عشيَّة يوم جهاد. «من أجلها»، كتبت هذه السطور، عساها تساعدني على الصلاة. هذه هي كلماتي، أعيرك إيّاها، أعطيك إيّاها، ولكن سارع إلى نسيانها، واستخدم كلماتك الخاصّة؛ هكذا من يعرف الغناء يستهلّ أغنيّة، لكي ينطلق الآخر، متردّدًا، بأغنيّته».

وعندما عدت، متأخّرًا، قرأت:

«حبيبتي الجميلة المجهولة،

إنّك تتنفّسين وتعيشين، في مكانٍ ما، بعيدًا عنّي، وربّما قريبًا منّي، ولكنَّني لست أعرف رقّة ملامح وجهك ؛

وعن الأَنامل والخيوط التي نسجت حياتك، لن أعرف شيئًا،

حتّى تطلعيني على اللُّحمة والعُقَد التي بها نُسجت.

حبيبتي الجميلة المجهولة،

أودّ أن تفكّري فيّ، هذا المساء، مثلما أفكّر فيك،

لا في حلمٍ ذهبيّ لا يمثّلني،

بل في الليل المتمادي الذي ارتضيت به، ليل قلبك النافد الصبر.

فأنا، أيضًا، موجودٌ، وإنّني حقيقيّ،

وليس بوسعك اختراعي من غير أن تشوّهيني.

حبيبتي الجميلة المجهولة،

أحبّك، بلا وجه،

ومن أجلك، بكلّ قواي، أودّ الآن أن أَغتني لأُغنيك.

وبلا انقطاع سأتدرَّب على العطاء، متجنِّبًا الأخذ،

فعندما ستتجلّين، جذّابةً، لناظريّ،

لستُ أريد اختطافك، كما يفعل السارق،

بل أبتغي استقبالك مثل كنزٍ مُقدَّم ؛

فالكنز سيكون *أنت*، وستهبين ذاتك.

حبيبتي الجميلة المجهولة،

هل ستصفحين عنّي غدًا...

عندما ستلتصقين بي، في ثقة،

ويبحر نظرك في سماء عينيّ،

متفقّدًا غيومها البعيدة، غيمةً فغيمة،

هل ستغفرين لي الكثير ممّا تلقّنتُهُ، وا أسفاه! عن طقوس الحبّ،

تلقّنتها مع آخرين سواك، وكم أودّ اليوم أن أنساها؟

فقد بتُّ أُدرك كم سيكون جميلاً أن نبحث معًا، ونكتشف معًا،

النغمات المتساوقة الغنيَّة التي ستواكب أناشيد حياتنا،

أناشيد الفرح، وأناشيد الأسى.

حبيبتي الجميلة المجهولة،

في هذا المساء، أُصلّي من أجلك، لأنَّك موجودة، ولأنَّني، من أَجلك، أودُّ أن أكون مخلصًا، لأنّك، أنت أيضًا، تعانين، وربَّما كنتُ سبب معاناتك.

إنّني أتأهَّب، وأنت تتأهَّبين، أرجو بكلّ قواي،

أن أكون غدًا لشمسك، وأن تكوني نبعي،

فأدفئك، وترويني،

وسنُطعم جسدينا، لحياةٍ جديدة، وسنعطي العالم ما يحتاج إليه،

سنعطيه وزن حبّنا، الذي، بمعزلٍ عنّا، سيفتقر إليه.

ولكن، حبيبتي الجميلة المجهولة،

يلزمنا مزيدٌ من تريُّث.

وما أَوجع الانتظار في ليل محبّين لا وجه لهم!

ولكنّني أعلم أنَّ حياتينا تبحث إحداهما عن الأخرى، وتنادي إحداهما الأخرى،

وإنّني واثقٌ، الآن، أنّ نور الله، ورغبته يشدوان في ثنايا رغباتنا الليليَّة.

إنّ أبانا السماويّ يرمقنا، يا حبيبتي،

وأومن أنَّه منذ الأَزل يحبّنا متمتمًا:

«إن هما شاءا،

سيكونان، غدًا، *واحدًا*.

هذا هو حلم الأب،

وهذا سيكون قرارنا، نحن أَبناءه».

* *

لقد أخذ منّي التأثُّر كلّ مأخذ، وأدركت سبب تأثّر صديقي.

كانت الصلاة رائعة، ولكنّني كنت أتردّد في جعلها صلاتي. فهل بلغتُ من العلاقة الحميمة بالحكيم أن أرتدي ثياب قلبه؟ في الواقع، ما زلت أجهل عنه كلّ شيء.

وهل هو التقى المجهولة التي من أجلها صلّى؟ وهل هو عاش حبًّا جميلاً؟ إنَّ مجرّد طرحي هذه الأسئلة كان يبدو لي فضولاً، لا طائل تحته، ولا سيّما وإنّني كنت عازمًا على احترام سرِّه.

وقرَّرتُ الانتظار.

(٢٤)

لقد بتُّ أَجسر – وكان هذا انتصارًا – أن أتحدّث، مع أصدقائي، عن أبحاثي وعن مغامراتي. لقد كنت عانيت كثيراً، ففي أثناء لقاءاتنا كنّا نسعى، في المقام الأوّل، إلى لهوٍ أرعن، ولكنّنا كنّا نُخفِق ولا نجني سوى السأم.

وعندما كان يتّفق لنا خوض نقاشاتٍ مستفيضة، كنّا نفعل ذلك من أَجل التحدّث عن الآخرين، وعن المجتمع، وعن أحداث العالم، ولكنّنا نادرًا ما تطرّقنا إلى أنفسنا، وإلى قضايانا الإنسانيّة. بل كنّا، في الواقع، نسير وحيدين، ثَمِلين بضجيج ضحكاتنا وكلماتنا.

وحاولت أن أقول، يومًا، لفتيات، ما أتوقّع منهنّ، ما بوسعهنّ توفيره لي، وما بقدرتهنّ تدميره فيّ. فقد كنت أمعنت في التأمّل بأقوال صديقي التي كانت تعبّر تعبيرًا ممتازًا عمّا أعيش وما أشعر به.

وكان ردّ الفعل عنيفًا. فلم تقتصر صديقاتي على الدفاع عن أنفسهنّ، ولكنّهنّ هاجمنَني، وأنحَيْن بالملامة على «الصبيان» وقلنَ: «إنّكم تحمّلوننا كلّ خطايا العالم. وهذا سهل، في حين أنّنا، غالبًا جدًّا، نحن ضحاياكم. تدَّعون أنّنا نتمتّع بكلّ الحقوق، ومع ذلك يتوجّب علينا، بلا انقطاع، أن نحمي ذواتنا منكم، أيّها المسيطرون المتكبّرون، الذين لا يبتغوننا إلاّ من أجل لذّتهم فحسب».

وبدوري، تولّيت الدفاع عن نفسي، ولكنّني لم أُحسن الدفاع، فقد كنت وحيدًا، ولم أتوفّق في التعبير لهنّ عن جوهر فكرتي، التي ما انفكّت جديدة، لم أتمثّلها تمثّلاً كافيًا ؛ وكان شيءٌ من الخَفَر يشلّ كلماتي.

هل كان ذلك مجرّد مشادّة بين مراهقين امتدّت فترة مراهقتهم؟ ربّما في الشكل، ولكن ليس في الجوهر.

وتراجعت، لاعتقادي بأنّ شكوى أولئك الفتيات كانت مُحِقَّة، وكانت تجربتي في هذا المضمار تؤيّد اعتقادي.

وفي شيءٍ من الاضطراب، كاشفتُ بالأمر صديقي.

* *

فقال:

– «لا يسعنا أن نعبّر عن كلّ شيءٍ، دفعةً واحدة، يا صديقي، فالواقع يحاكي ماسة متعدّدة الجوانب، والتحديق إلى أَحدها لا يعني إغفال الجوانب الأُخرى.

صديقاتك على حقّ. صحيحٌ أنّني قلت إنَّ للفتيات قدرةً كبيرةً عليكم، أيّها الشبّان، ولكن لكم، أنتم أيضًا، قدرةٌ كبيرةٌ عليهنّ. فقد صُنعتم بعضكم ***من أجل*** الآخرين، وتصنعون ذواتكم، بعضكم ***بواسطة*** الآخرين.

ومن شأن البشريّة أن تُمنى بالعَرَج إن تخاذلت فئة منها، وسيفسد بنيانها عندما لا يعترف الرجل والمرأة بتساويهما في الكرامة. بل عليهما أن يتلاقيا، ويتكاملا؛ ولكن لن تتفجّر أيّة حياةٍ سليمةٍ، إن لم يكونا متساويين في الاحترام.

أَيُّها الشبّان، إنّكم غالبًا ما تضيقون ذرعًا بالعالم الذي صنعناه نحن لكم. أمّا العالم الذي ستصنعونه، أنتم، فآمل أن يوفّر الازدهار لأَبنائكم، ولكنّه لن ينعم بالاتّزان والخصب إِن لم تعثروا، أنتم، على اتّزانكم وخصبكم، في علاقاتكم المتبادلة. هذه هي جوانب الماسة المتعدّدة.

اليوم، يا صغيري، بما أنّ لديك الرغبة، استمع إلى «فتيات أسفارك الرماديّة الجميلات» فعبر سخريتهنّ ورقّتهنّ قد يعلّمنك الكثير، وبوسعك أن تتلقّن منهنَّ الكثير.

- وماذا يَقُلنَ لي؟

- أنصت:

«أيّها الصبيّ، تعلم أنّك، في غابة الحبّ الجاثمة خلف بيتنا، تمارس بمهارة الصيد المحرّم، وأنَّ فتياتٍ كثيراتٍ وقَعنَ في شِرْك ذراعيك.

ولكن، عندما تعرض، أمام أصدقائك المشدوهين، لوحات صيدك الجميلة التي تشيد بانتصاراتك،

اعلم أنّك تثير اشمئزازي، فأنا لست صيدًا يوفّر لك المتعة، وتُكرهني على الاعتقاد أنّكم لستم، غالبًا، أيّها الصبيان، سوى صيّادي بناتٍ، بائسين.

أعرف أنّك ماهرٌ عندما تبتغي الاستيلاء على الفتاة التي ترغب فيها،

ولا يجول بخاطرك، أنك، حتّى عندما تستأثر بها...

هي التي تتبعك من طرف شفتيها، ومن طرف قلبها،

إنّما تسرقها من آخر، قد يكون صديقًا لك.

وهو، وإن لم يعرفها، يحلم بأنّها تتحصّن من أجله،

وردةً على غصنها، لا زهرةً مقطوفة.

أنت تعلم كم عود قلبي طريّ، مثل أعواد الشجيرات الفتيّة في الربيع المتفتّح، ولكنّك تعبث بحفر اسمك إلى جانب اسمي على قشرتي الهشّة،

وأنت تجهل أن السكّين تنفذ إلى أبعد ممّا تظنّ،

وتُسيل نسغ قلبي الجريح.

أيّها الصبيّ، غالبًا ما يتعيّن عليّ أن أسارع إلى الدفاع عن نفسي، وأحيانًا أفزع إلى برجي، وأستعجل بإغلاق جسوري المتحرّكة المنخفضة،

خشيةً من حركاتك، وأكثر خشيةً من ألفاظك،
التي قد تردم، خلال أُمسية، أَشدّ الوهاد عمقًا،
وتتيح لك النفاذ إلى حصوني التي لا أريد أن أَلقاك فيها.

تقول لي أنْ لا بدّ من اللهو والإمتاع والتمتّع،
ولكنّ الحبّ ليس عبثًا، وأنا لست دميتك، ولا أنت دميتي،
ولئن صدّقت أنَّ المتعة ليست ثمرةً محرّمة،
ولكنّني أومن أنّ الثمرة ينبغي ألاّ تقطف قبل نضوجها،
وأنّه لا يسوغ سرقتها من بساتين الغير،
حتّى لو أدخلني إليها صديقٌ متواطئ، تحت جنح الليل.

تقول لي، ويُقال، إنّه ينبغي تجربة كلّ شيء، وإنّ الحبّ يُتَعلَّم، ولا بدّ من التدرّب عليه:

ولكن ليس صحيحًا أنَّ الفتيات نِعالٌ لقدميك،

بوسعك تجربتها فردةً، فردةً، وأنت تضحك، قبل العثور على الشكل الذي يروق لك، والقياس الملائم. وليس جسدي، أيّها الصبيّ، ملامس بيانو بيضاء،

يمكنك أن تنقر عليها سلّم نغماتك، لكي تُنشد، لاحقًا، مع أُخرى، معزوفة حياتك.

تقول لي إنَّ فتح غرفي السرّيّة، هو دليل الحبّ الأكبر الذي بوسعي تقديمه.

وأنت على حقّ يا صديقي.
وحينئذٍ تعلن، جهرًا، أنّك تحبّني، وتقسم على صدق قولك،
وتطالبني بحبّك، وبالمفاتيح.
ولكنّك لو كنت تحبّني، لمددت لي يدك،
يدًا عاقلة، تداعبني برقّة بحثًا عن يدي،
وسأعطيك يدي، فنسير معًا،
وتتبادل شفاهنا كلماتنا،
فنتحدّث عنك وعنّي، وعن الآخرين، وعن العالم الفسيح.
وبدهشةٍ، سنزور بلدان حياتنا،
ونعرّي، بتؤدةٍ، قلبينا من كلّ تمويه،
قبل أن نتعارف، ربّما، يومًا،
ونقرّر، معًا، ربط حياتينا،
ونعلن ذلك أمام الله وجميع أصدقائنا،
وحينئذٍ سيسعنا أن نعرّي جسدينا، لكي نصبح واحدًا،
ونهب ذواتنا الفرح، والطفل،
وكم سيكون ذلك جميلاً، حقًّا!
تقول لي، أيّها الفتى.... وما أكثر ما تقول،
وتهدر، في ذلك، وقتك، فالآخرون، أيضًا، يقولون ما تقول؛

قد يكون خيرًا لك أن تعترف ببساطة: «لي رغبة عارمة فيك، لأنّ قلبي يعاني الظمأ، في جسدي الجائع...»

وسأفهمك، أيّها الفتى... فغالبًا ما أشتهي، أنا أيضًا، أن تأتي.

وفي بعض أماسي الضباب والعواصف، أفتح، بعض الشيء، حواجزي،

وأترقّبك، وأَنتظرك،

وتستطيع، حينئذٍ أن تلج، وتجني عسلك،

ولن يجد قلبي قدرًا من الحبّ كافيًا،

لكي يهبني القدرة على ردعك.

ومع ذلك أنت محيطٌ علمًا بحلمي، وبسرّي، وبصراعاتي الشاقَّة. إنَّ أصابع الطبيعة - وهذا ليس صدفة - قد ختمت، في جسدي، باب الحياة، وأنت تعرف حرصي على أن يكون أوّل من يجتاز عتبته

مختارُ قلبي، وزوجي إلى الأبد، وحده يحرث، ووحده يبذر ؛ قد يبتسم البعض من حرصي، ولكنّني فيه جادّة.

وعندما يُنضج صيف حبّنا، ثمرتنا، ابننا،

ويرغب في هجر شجرته، ومغادرة عشّه الكامن في ظلّ فيئي،

أودّ أن يسلك أَميري الصغير، في مجيئه إلى العالم، دربًا ملكيًّا جديرًا به.

أتفهمني، يا صديقي؟

ولكن بما أنّني لستُ أقوى من سواي، كما نعلم، كلانا،

أنا في حاجةٍ شديدةٍ إليك،

بقدر ما تقول إنّك في حاجةٍ إليَّ.

أنا بحاجةٍ إلى النظر إليك، وتأمُّلك بإعجاب، وإلى أن أكتشف، بدهشة، ثرواتك الخفيّة، وأحتاج أن تبحث أنت، بصبرٍ، عن ثرواتي.

فغالبًا ما يساورني الخوف من أن تكون بائنتي مفرطة الهُزال، وعاجزةً عن إغناء الشابّ الذي سيحبّني.

إنّي في حاجةٍ إلى أن تُفصح لي عن أفكارك، ومشاعرك، ومشاريعك لكي أُشركك، بلا خوف، في أفكاري، ومشاعري، ومشاريعي،

فأنا أعرف أنَّ النفوس المتكتّمة لا تعرف الحبّ.

إنّني بحاجةٍ إلى اكتشاف قوّتك، لكي أُدرك أنّ رقَّتي ليست ضعفًا،

بل هي صديقةٌ ضروريّة لترويض قسوتك.

إنّني بحاجةٍ إلى رؤيتك منتصبًا، تسير بمفردك،

لا تستخدم فتياتٍ ساذجاتٍ عكاكيز تتوكّأ عليها.

إنّني بحاجةٍ إلى رؤيتك متأثّرًا، لكي أومن أنّ قلبك يخفق ؛

وإن تجلَّت لناظري، دمعةٌ لم تستطع حبسَها،

أحتاج إلى أن تدعها تتألَّق، ولا يأخذك الخوف من أن تبدو مدعاة سخرية،

فهذه الدمعة هي، لي، لؤلؤةٌ نادرة، كنت أجهل أنّك قادرٌ على أن تكون لها غمدًا.

إنّني في حاجةٍ إلى أن أراك تناصر إخوتك مدافعًا عن سعادتهم،

لكي أوقن أنّك ستعرف، غدًا، كيف تكافح، في سبيل حبّك، وسبيل أبنائك.

إنّني بحاجةٍ... إلى أن تنظر إليّ، كي تعرف أنّني موجودة،

وفي حاجةٍ إلى أن تبحث عنّي، وتختار أن تكون، أحيانًا، على مقربةٍ منّي، لكي لا تظنّ أنّني بنت السأم البائسة.

أحتاج إلى دعوتك لي إلى الرقص، كي تعرف أن جسدي ليّن، مثل قصبةٍ خضراء حيّة، وليس خشبًا جافًّا يتحاشى الناس عنه ويرمونه أرضًا،

إنّني في حاجةٍ، كما قلت لك، إلى أن أستشعر، بفرح، حرارة يدك في يدي، وثقل ذراعك على كتفي، لكي أوقن أنّ سواعد الصبيان ليست شراكًا منصوبةً لكي تقتنصنا بجبن.

إنّني، أخيرًا، بحاجةٍ إلى *صداقتكم*، أيّها الصبيان،

مثلما أنتم تحتاجون إلى صداقتنا.

ولكنّني لست في حاجةٍ، مطلقًا، إلى أن تصرّحوا لي الواحد تلو الآخر: «إنني أحبّك»

وإلاّ فعندما سيحين مجيء حبيبي الذي أنتظره،

وأخيرًا يهمس بهذا القول....

سيشقّ عليّ الاعتقاد بأنّ قوله صادق.»

وصمت الحكيم، فخيّل إليّ أنّه فرغ من الكلام. ولكنّه، إثر صمتٍ طويل، أضاف:

«إنّ الصداقة، بعد الحبّ، هي أجمل هديّة من السماء وما أَسعد من يستطيع العيش بها!»

أيّها الشبّان، لقد أُرسلتم للفتيات، وأنتنَّ، أيّتها الفتيات، قد أُرسلتنّ إلى الشبّان، لكي يقول بعضكم لبعض، عبر الصداقة، شيئًا عن رقّة اللّه وحنانه، وهكذا ستتعلّمون الحبّ.»

* *

ونهضت، وهممت بالانصراف.

وفي تلك اللحظة ظهر الولد، وكان قد تسلّل من غير إحداث أيّة ضجّةٍ، من وراء الحكيم، فلم ألحظه. ورمقني بخبث، وأشار إليّ بالسكوت.

ولم يكن الحكيم غافلاً عمّا يجري، بل كان يبتسم في سكون.

وبخفَّةٍ وضع الولد يديه على عيني صديقي، الذي تريّث برهة، متظاهرًا بالبحث عن معرفة هويّة المعتدي المجهول، ثمّ هتف، بغتةً، وكأنّه قد اكتشف، أخيراً:

«هذا هو ملاكي الصغير الأشقر!»

وانفجر بالضحك الملاك الأشقر، الذي لم يكن له من الشقار شيء. ثمّ انتصب على أطراف أصابع قدميه، ومرّ برأسه فوق كتف الحكيم، وقبّله بشدّة، وخرج، مثلما دخل، من غير أن يتفوّه بكلمة.

وظلّ الحكيم يبتسم وقد تجلّت عليه أَمارات السعادة.كان ينظر إليّ، متمتّعًا بدهشتي. ولكنّه لم يقل شيئًا، ولم أطرح أيّ سؤال.

وخارجًا لمحت الولد بعيدًا، ينعطف عند زاوية الشارع.

(٢٥)

سأقابلها، كنت واثقًا من ذلك.

عندما كنت أُفكرّ فيها، كنتُ أُحلّق عاليًا على أجنحة الحلم، وكانت سمائي صافية، لا أثر فيها لغيم.

فبما أنَّه «أمرٌ جميل»، سيكون جميلاً لي أيضًا.

ولكن، بغتةً، كانت تهبّ، من حيث لم أتوقّع، ريح الشكّ، وإذا بي منهار.

لم أكن أرى، حينئذٍ، سوى الحواجز. فكما أسلفت القول، كانت تتكدّس أمام ناظريّ الدلائل المناقضة لأحلامي! ورفاقي كانوا لا ينفكّون يبرهنون لي، بلا انقطاع، أنّ الإيمان بالحبّ، على نحو ما بتُّ أومن به، إنّما هو جنونٌ صرف.

لا ريب أنّني، عندما كنت أناقشهم في الأمر، كنت أعثر، أكثر فأكثر، على حججٍ أُجابهُهم بها، وكان الحكيم يوفّر لي هذه الحجج. ولكن أَلم أكن أحاول إقناع نفسي، وأنا أحاول إقناعهم؟

لم يساورني الشكّ في جمال الأمر، ولكنّني كنت أَشكّ في إمكانيّته.

وبتّ أجد، أقلّ فأقلّ، حَرَجًا في الكشف للحكيم عن كوامن فكري، فلم يكن يدهش أبداً ممّا قد أقوله له، فلا أتردّد عن ذلك، بل كنت، أحيانًا، أتجاوز فكري، وأستفزّ الحكيم لأنّني كنت أتوخّى التحرّر من شياطين شكوكي، وراغبًا في أن يقنعني.

* *

يومها قلت له:

– يا صديقي عندما نحبّ بعضنا بعضًا، شبّانًا وفتيات، فهل من المعقول حقًّا أن نلتزم التزامًا مدى الحياة؟

– أجل... «إن كنتم عاقلين»

– ومتى لسنا عاقلين؟

فأجاب:

«عندما ينتصب امرؤ أمام الشمس، يتعذّر اكتشاف ملامح وجهه، ولا يُشاهَد منه سوى شكلٍ مُبْهَمٍ مشعٍّ بالنور.

وهكذا، عندما لا ينظر أحدكم إلى الآخر إلاّ على ضوء إحساسه، لن تشاهدوا من ذواتكم سوى ظلٍّ مبهم، ولكنّه مذهّب،

وليس هذا من التعقُّل في شيء.

عندما يقرع مجهولٌ جميلٌ، بشدّةٍ، على باب قلبك، فتقول له: ادخل، من غير أن تُكلّف نفسك مؤونة الخروج من ذاتك كي تتعارفا،

فليس هذا من التعقُّل في شيء.

إن كان هو أميرًا وهي راعية، وقلتُم: بين العشّاق لا يقوم اختلاف، بل فقط الأَحكام المسبقة هي التي تقيم بينهم حواجز،

فليس هذا من التعقُّل في شيء.

إن أنتم أنفقتم دقائقكم وساعاتكم في قول «أُحبّك»، وتلمُّظ طعم أفواهكم، فلا يعود لكم فسحةٌ من وقت لكي تُفصحوا عمّا أنتم، وعمّا تفعلون، وعن الدروب التي ترغبون في انتهاجها،

فليس هذا من التعقُّل في شيء.

إِن شرعتم تروزون، وتقيسون، وتحسبون ما يهبه أحدكم للآخر، وأدّت بكم المحاسبة إلى خصام، لأنّها غير عادلة، إذ إنّ أحدكم يعطي أقلّ، في حين يعطي الآخر أكثر،

فليس هذا من التعقُّل في شيء.

إن عَمَد كلٌّ منكم إلى التبرّج، وتنكّرتم بزيّ التمثيل، بغية لعب دور الأشخاص الذين تحبّونهم، التماسًا للإرضاء،

فليس هذا من التعقُّل في شيء.

إن تباينت آراؤكم وقناعاتكم، في كلّ شيء، وجال بخاطر كلٍّ منكم: سأقنعه، وسأُحوّله،

فليس هذا من التعقُّل في شيء.

إن قلتم: فلنجرّب تناغم أجسادنا، ولنتحقَّق هل هي مؤهّلةٌ للمتعة، ناسين أنّ أَجسادكم قابلةٌ للتبادل، وأنّ بوسعها بيع هذه الملذّات العابرة من غير أن تقدّم أيّ حبّ،

فليس هذا من التعقُّل في شيء.

إن قال لكم ذووكم وجميع أصدقائكم الحقيقيّين: نظنّ أنّكم تضلّون، فتصيحون في وجههم: وما همّ ذلك، بما أنّنا متحابّون؟ وهجرتم أيديهم الممدودة، ومضيتم وحيدين بعد أن حطّمتم مراسيكم،

فليس هذا من التعقُّل في شيء.

وإن أحجم كلٌّ منكم عن إتمام بناء جداركم وقلتم: فلنبسط الآن سقف منزلنا،

فليس هذا من التعقّل في شيء.

إن... إن.... ولكن ما جدوى الإفاضة في الكلام؟ أنت تعلم كلّ ما ليس من التعقّل في شيء، والعشّاق أيضاً يعلمون... عندما يتعلّق الأمر بسواهم. ولكن عندما يحين دورهم كي يحبّوا فكثيرون منهم يأبَون أن يعرفوا، وليس هذا من التعقُّل في شيء.

إنّ «حبًّا كبيرًا» يا صغيري، إن لم يكن أصيلاً، يؤدّي، غالبًا، إلى «فقدان العقل».

وأضاف الحكيم مبتسمًا: «إنّه من الجنون ابتغاء الحبّ، بلا عقل».

لم أكن راغبًا في الضحك، وكنت قد ضقت ذرعًا بسرد صديقي كلّ تلك المقتضيات. فعندما يكون المرء شابًّا وعاشقًا، فهل هو يرغب في أن يكون متعقّلاً؟

وأجبت بجفوة:

– إن كان الأمر كذلك، يا صديقي، فلا مجال إلاّ «لزواجات العقل»!

وردّ الحكيم بسكون، من غير أن تبارحه بسمته: «لا زواج عقل، ولا زواج حبّ، ***بل زواج حبٍّ متعقّل***».

وقرّرت أن أبتسم بدوري وقلت: «من المؤكّد أنّك، دائمًا... على حقّ».

* *

غير أنّ الموضوع كان من الخطورة بحيث لم يكن ممكنًا التوقّف عند هذا الحدّ. فاستأنفت القول بعناد: «حتّى لو كان العشّاق «متعقّلين» إلى أَبعد مدى، ولو هم تحوّطوا بكلّ الضمانات الضروريّة، لظلّت هناك مخاطرة».

فردّ الحكيم، وقد استردّ، بغتةً، جِدّه:

– هذا لحسن الطالع. فلو تحقّق المستحيل، وكان كلّ شيءٍ موزونًا، ومبرمجًا، ومحدّدًا مسبقًا، لانتفى الحبّ، بانتفاء مجال الحرّيّة الضروريّة الذي يسمح أن يقول أحدنا للآخر:

«معًا سرنا مسيرةً جادّة، لا لكي يفيد أحدنا من الآخر، بل لكي نتعارف، ويقدّر أحدنا الآخر، ونحكم هل بوسعنا ربط حياتينا ربطًا «متعقّلاً». ولكنّني لست أعرف كلّ شيء عنك، ولست أعلم ما سننتهي إليه غدًا، وأجهل ما سيكون وزن أحزاننا، وعذوبة أفراحنا. بيد أنّني قرّرت أن أَهبك حياتي كلّها، وأنا أعتقد أنّني قادرٌ على ذلك، وأثق بأنّك ستهبني حياتك، بما أنّك أنت، أيضًا، تريد ذلك؛ هذا ***القرار*** وهذا ***الإيمان في الآخر*** هما براهين الحبّ الحقّة».

غير أنّني أكَّدت، مرَّة أُخرى:

– ولكنَّ ذلك لا ينفي المخاطرة.

– كما قلتُ، هذا من حسن الطالع، وإلاّ لقضي على الحبّ.

«ألا ترى أنَّ الخطر، اليوم، يكمن في أنّ الناس ما عادوا يجسرون على المخاطرة، بل يبتغون أن يكونوا «مؤمَّنين ضدّ جميع الأخطار»؟ ما عادوا يعرفون، ولا عادوا قادرين على الالتزام، لحياةٍ كاملة، ممّا ينمّ عن نقصٍ في النضج، وعن وهنٍ بليغ؟

«إن خشي المرء السير، فليتشبّث بيد أمّه،

وإن خشي السقوط، فليبقَ جالسًا،

وإن توجّس خشيةً من الحادث، فليدع سيّارته في المرآب،

وإن خاف من التصعيد فليلازم ملجأه.

وإن خشي ألاّ تفتح المظلّة، فليتجنّب القفز،

وإن خشي العاصفة، فلا يرفع مرساة سفينته،

وإن خاف ألاّ يحسن بناء بيته، فليدعه في مرحلة التصميم،

وإن خاف أَن يضلّ الطريق، فليلازم منزله،

وإن تهيَّب الجهد، والتضحية، والمستقبل، فليحجم عن الحياة،

وليتقوقع في خوفه،

وحينئذٍ....

قد يستمرّ في العيش، ولكنّه لن يكون إنسانًا،

فمن خصائص الإنسان أن يستطيع المجازفة بحياته، بتعقّل.

وقد يتظاهر بالحبّ، ولكنّه لن يعرف الحبّ، يومًا، فالحبّ هو القدرة وإرادة المخاطرة بالحياة، من أجل الآخرين،

من أجل آخر.

وقد يستطيع الإنجاب، ولكنّه لن يكون أَبًا ولا أُمًّا،

فكون الإنسان أبًا أو أمًّا، هو أن يقبل، مثل الحبّة الملقاة في التربة، المخاطرة الكبرى، مخاطرة فقدان الحياة لكي تنبثق السنبلة.»

* *

لم أكن راغبًا في معارضته، ولكنّني كنت أُفكّر بجميع رفاقي الذين، بدعوى التعقّل، كانوا يؤثرون، قبل الالتزام مدى حياةٍ كاملة، العيش مع صديقتهم للتثبُّت من متانة حبّهم.

حتَّئذٍ، كنت أُشاطرهم الرأي. ولكنّي الآن، بتُّ أستشفّ الخطأ، تحت مظاهر الجِدّ؛ ولكنّني، مرّةً أُخرى، كنت أَنشد، لدى صديقي، سندًا لقناعاتي الوليدة. وتمتمت، خجلاً:

– قد تكون «التجربة» قبل الالتزام، أكثر تعقُّلاً.

فأجاب الحكيم:

– يتأهّب المرء للحبّ، ولكن لا «يجرّبه»

– لِمَ؟

– لأنَّ «العشّاق» (!) لحظة يقرّرون «تجربة» حبّهم، وامتحان قدرته على الصمود، يكشفون أحدهم للآخر أنّه ليس حبًّا ***حقيقيًّا***.

– ولكنّ كثيرين ينهجون هذا النهج.

– إنّهم أحرار، وليس من شأني الحكم عليهم. تنبغي معرفة دوافعهم وهي كثيرة: ولكنّهم مخطئون.

لاحظ أنّني لا أقول إنّهم يرتكبون إثمًا، فوحده يستطيع أن يقول ذلك من يقرأ القلوب؛ ولكنّني أقول إنّهم يُلحقون الأذى بذواتهم. وإنّي أتألّم من أجلهم، فهم ليسوا مستعدّين، بعد، للحبّ.

* *

وعندئذٍ دخل الولَد من جديد، وحَنِقْتُ، مدى لحظة، لأنّه قطع حوارنا، إذ إنّ انتباه صديقي ارتدّ عنّي، في الحال، فقد كان يواكب بنظره الولد الذي كان يجوس خلال الغرفة، متظاهرًا تجاهلنا. إلاّ أنّه، بين فينةٍ وفينة، كان يرمق الحكيم، خلسةً، ويُغضي الطرف سريعًا عندما يلتقي نظراته. ثمّ،

بغتةً، اقترب منه، وواجهه، وأخذ يده، وبعد أن أمسكها، برهةً، بين يديه، هجرها وأعلن، جادًّا: «أبتاه، لم أعد أُحبّك». وأجابه الحكيم:

– وأنا ما زلت أُحبّك، وسأحبّك ***دائمًا***.

حينئذٍ دنا الولد، وانحنى على صديقي وقبّله؛ ومضى مثلما جاء.

من المحقّق أنّ زيارات الولد تلك كانت تُسعِد الحكيم، على نحوٍ جليّ. فقد كان وجهه يُشرق، ويتذوّق، صامتًا، فرح لقائه.

وعندما التفت إليّ، قال ببساطة:

– أُعذرني يا صغيري، فقد كان عليّ أن أواجه الطفل. لبضعة أيّام خلت، رفضتُ تلبية إحدى رغباته، فمثل تلك التلبية ليست في صالحه؛ فانصرف مستاءً. ولئن هو عاد، اليوم، فلكي يتحقَّق من حبّي له، وكان لا بدّ من تطمينه. إنّه يحاكي جميع الصغار

وأضاف، بصوتٍ خافت: وهذا – أكثر من سواه – بحاجةٍ إلى التأكّد الواثق من حبّ من يقولون إنّهم يحبّونه.

«على غرار الطفل الذي يستيقظ ليلاً، وينتحب كي يستدعي والديه، ويتبيّن أنّهم موجودون ولم يتخلّوا عنه،

«وعلى غرار الولد الصغير، الذي في أثناء نزهةٍ، يفلت من يد أمّه، ويتريَّث وحيدًا خلفها ليرى إن كانت ستعود لاصطحابه،

وعلى غرار الولد الذي يختبر، شيئًا فشيئًا، ما يستطيع فعله، من غير أن يُغضب والديه، وعندما يتبيَّن أنَّ حماقةً كبيرةً ارتكبها، فأدّت إلى قطع جميع الصلات، يسعى إلى إعادة عقدها، ملتمسًا دليلاً على استمرار الحبّ،

وعلى غرار الفتى الذي يحاول اكتشاف قيمته في عيني والديه، بقياس ما يرتضيان منحه من أشياء، ووقت، واهتمام وقبلات...

وعلى غرار المراهق الذي يعذّب والديه، ساعيًا إلى الانفكاك عنهم، كي يستقلّ بنفسه، وهو يتحقّق من استمرار حبّهم وصدقه».

– يُخيّل لمن يسمعك أنّه يجب عدم رفض أيّ شيءٍ للأطفال!

– إيّاك والوقوع في الخطأ. بل غالبًا ما يتعيّن أن يقال لهم: لا. فإرضاء الكثير من رغباتهم ليس في صالحهم. ولكن ينبغي أن يتَيقّن الطفل أنّ الرفض ليس دليل عدم حبّ، بل هو دليلٌ على نقيض ذلك.

على من يحبّ أن يعرف ممارسة الرفض بمثل الهدوء الذي به يمارس العطاء.

– ولكنّ الطفل والولد لا يستطيعان الإدراك.

– الطفل قبل أن يتكلّم يدرك لغة الحبّ.

– الولد والمراهق غالبًا ما يتمرّدان.

– إن كان موقف الوالدين متجرّدًا وصادقًا، فلا بدّ من أن يفهما في ما بعد. إن كلّ بذرة حبٍّ حقيقيٍّ تنبت، يومًا، في القلب الذي غُرست فيه.

– ولكن يمكن خنقها!

– هذا صحيح، فالإنسان حرّ. بيد أنَّ الوالدين، يا صغيري، مسؤولان عن الحرث والبذار، لا عن الحصاد».

* *

كنت مهتمًّا، ولكنّني ظننتُ أنّنا ابتعدنا كثيرًا عن موضوعنا. غير أنّ الحكيم أقنعني بخلاف ذلك.

وقال لي:

«على غرار الفتى، يحتاج الرجل إلى التأكّد من أنّه محبوب، لكي يصبح ذاته ويزدهر. فلا يسع أحداً أن يؤمن بحياته، ويريدها، ويحبّها، إن لم يكتشف قيمتها اللامحدودة. ومن شأن من يخصّه بحبّه، ومن يحبّه بدوره، أكثر من سواه، أن يكشف له تلك القيمة.

«إنَّ الوالدين، بحنانهما، وبتضحيتهما الصادقة، وحتّى بحزمهما، يقولان لابنهما:

إنَّ حياتك من الثمن، بحيث نحن متأهّبون لبذل حياتنا من أجلك».

والمحبّ يقول للمحبوب: «لقد رأيتك، وقدّرتك، واخترتك، أنت، من بين جميع الآخرين، وإنّ لك من الشأن في عينيّ، ما يدفعني إلى إعطائك كلّ شيء: قلبي، وذهني، وجسدي، وحياتي.. ***كلّ شيء وللأبد***».

بيد أنَّ الشبّان أحرارٌ في أن يقول أحدهم للآخر: «فلنجرّب»، إذ من يستطيع منعهم؟

ولكن، فليمتنعوا، حينئذٍ، عن التصريح: «إنّنا متحابّون!» وليعرفوا، خاصّة، أنّهم عوضًا عن تقديمهم لشريكهم أروع اكتشاف: «إنّني محبوب» يسرّبون إلى قلبه أكثر الريب خبثًا: «هل سأُحَبّ، يومًا؟» وينتهي به الأمر إلى التساؤل: «هل أنا جديرٌ بالحبّ!»

وأكرّر القول: إنّ التأكّد من حبّ الآخرين يبني الإنسان، في حين يدمّره الشكّ؛ ولك أن تقرّر ما تريد تقديمه للآخر.

(٢٦)

صحيح. من يستطيع أن يعيش و ينمو بلا حبّ؟ وأَيُّ عالَمٍ يمكن أن يُبنى بمعزلٍ عن الحبّ؟

هذا ما كنت قد اكتشفته خلال لقاآتي الأولى مع الحكيم، وما كنت أكتشفه من جديد.

لم يعد القوم، اليوم، يريدون المخاطرة بحياتهم بدافع الحبّ..أليس هذا هو ضعفهم المأساويّ؟ بعضهم يرتضون فقط أن «يجرّبوا»، وفي هذه الأثناء، يذوون ويتبعثرون، ويتفكّك العالم معهم، إذ يفتقرون إلى تلك الطاقة الجوهريّة الكفيلة، وحدها، بمنحهم الحياة..

كنت ماضيًا في هذا التأمّل، عندما استلمت هذه القصيدة من الحكيم:

«أيُّها الحبّ،

يا طعام الجائع

وماء العطشان الزلال،

وشمس المقرور،

ونسغ الإنسان الحيّ الذي لا غنى عنه.

أيُّها الحبّ، أيُّها الابن الفقير لهذا العالم القاسي،

حبٌّ يُشَكُّ فيه،

حبٌّ يُجرَّب،

حبٌّ مشروط،

حبٌّ لوقتٍ محدود.

أيّها العالَم التعيس، المفتقر إلى غذاء الحبّ،

عالَم يتفسَّخ ثمّ يتفجَّر، مثل تربةٍ محرومةٍ من الماء،

عالَم إخوةٍ ينقلبون أعداء،

عالَم أعداء يستغلّ بعضهم بعضًا ويقتل بعضهم بعضًا.

أيُّها القوم التعساء،

المجروحون، الممزَّقون، المتمرّدون،

المفطومون عن الحبّ.

أيُّها القوم الذين يُنفقون أيّامهم الملوّنة بلون الليل

في البحث، والتحقُّق، والسَّبر،

ليتبيَّنوا هل هم أُحِبّوا،

وهل هم محبوبون الآن،

وهل بوسعهم أن يُحَبّوا غدًا.

أيُّها القوم الذين يستجدون بضع لقمات حبّ، تمكّنهم من الاستمرار في العيش حتّى الغد،

أيّها القوم الباحثون عن الدُّوار والمتعة،

الذين يضاجعون اللّذة،

ناسين أنّهم يرقدون على قلقهم،
ويقبعون على مخاوفهم..

أيّها الحبّ،
متى سيظفر بك، من جديد، عالَمٌ مجنونٌ يرتاب فيك،
ويموت ببطء لفقدانه الإيمان فيك؟

* *

يا إلهي، أعطِني، من جديد، *القدرة على الحبّ*،
فالعالم يترقّب، وهو في حاجةٍ إليّ.
وإن كنت ما زلت عاجزًا عن الإيمان بحبّ الآخرين،
وإن لم أتمكّن من الإيمان، إيمانًا كافيًا، بحبّك الأبويّ،
أعطِني، أقلّه، جرأة المخاطرة بحياتي في سبيل الآخرين، ومن أجل «أُخرى»،
لكيلا يتألّم آخرون كما تألّمت، أنا.»

* *

أنا أيضًا، متخطّيًا أحلامي المجنونة، والاندفاع الذي كان يتوثّب فيّ عندما أسمع الحكيم يتكلّم، كنت أشكّ في حبّ الآخرين لي، وبقدرتي على حبّهم.

إنّني ما زلت أعترف بخجلي من ذلك، وبأنّ تلك كانت علّتي.

هل أُحببتُ حبًّا صادقًا، وهل سأُحَبُّ، يومًا، حبًّا يدفع فتاةً إلى بذْلِ حياتها من أجلي، ويدفعني إلى بذل حياتي من أجلها؟

وها إنّني، اليوم، أَطرح السؤال بوضوح، وأتبيّن أنّه كان يطارد لاشعوري منذ زمن طويل، ويغذّي وجع نفسي. أجل، لقد كنت ممّن يشكّون، وهذا المرض القاسي كان يلتهمني، ويدمّرني.

ذلك المرض كان يأتي من بعيد، وقد عزمت على توضيح أعراضه.

كما أسلفت، كان والداي يحبّانني على طريقتهما، أي على نحوٍ سيّئٍ. كنت واثقًا من ذلك.

فغالبًا ما كان يدفعني القلق إلى اختبار حبّهما، وسرعان ما تبيّن لي، ولا سيّما فيما كنت أكبر، أنّهما كانا يتوقّعان منّي ما يرضيهما، أكثر ممّا كانا يتمنّيان لي، ويبحثان لي عن سعادةٍ حقَّة..

فضلاً عن أنَّني كنت، أحيانًا، أضايقهما، فلا يتردّدان في التعبير عن ضيقهما منّي. إنّني أدرك، اليوم، أنّ بعض تصريحاتهما لم تكن أكثر من دعابات، تتخطّى تفكيرهما، ولكنّني كنت أحملها محمل الجِدّ، وأستخلص أنّهما لا يحبّانني إلاّ بدافع الواجب، ولم يكن يشقّ عليّ شيءٌ مثل هذا الظنّ.

لأجل كلّ ذلك نقمت عليهما، وقد اثَّأرت لنفسي بتسبيبي لهما العذاب، ثمَّ ما لبثت أن اعتدتُ، واستسلمت، وتمرّست.

وأخطر ما في الأمر أنّني استخلصت، مرَّةً أُخرى، أنّ أحدًا لم يكن محبوبًا لنفسه، وبالتالي أن لا وجود للحبّ الحقّ، وأن لا بدّ لي من الاكتفاء بالفُتات.

وكنت أبحث عن هذا الفُتات بنَهَم: في الرفقة، وفي الصداقة بالطبع، ولكن أيضًا، كما بتُّ أُدرك، في العديد من أنماط السلوك، والأقوال، والمواقف التي كانت تنسج حياتي اليوميّة. كنت أسعى إلى لفت الأنظار إليَّ،

وإبراز قَدْري، مبتغيًا أن ينظر إليّ الناس، ويعجبوا بي، ويقدّروني، ويحبّوني؛ كنت أريد، أقلّه، أن أُذكّر الآخرين **بوجودي**.

كلّ شيءٍ فيّ كان يشترك، لاشعوريًّا، في التماسي المتمادي لفت الأنظار إليّ: أقوالي، ومجاملاتي، وأيضًا في بعض الأحيان، فترات صمتي، وأكاذيبي: مغالاتي في الضحك والحزن، نزوات الرقّة أو العدوانيّة، فترات خجلي، بل حتّى بعض وعكاتي الصحّيّة، كما بات واضحاً لي الآن. كلّ ذلك كان نداآتٍ صامتة، أو مطالباتٍ صاخبة، زجاجاتٍ ملقاةً في البحر، في أملٍ مجنونٍ بأن تُلتقَط وتلبّى.

إنّني أعلم، اليوم، أنَّ هذه النداآت تدوّي في كلّ مكانٍ من حولي. فقد تلقّنتُ لغاتها، ومفرداتها غير المتوقّعة. وبتّ قادرًا على فكّ رموزها؛ ومن ثمّ لم أعد قادراً على إدانة هذا أو تلك، انطلاقًا من مواقف خارجيَّة، ولم أعد قادرًا على المرور بحماقة، أعمى وأصمّ، وسط جماهير من غرقى الحبّ.

ولم أكتفِ بلفت انتباه الآخرين، والتماس تقديرهم وحبّهم. فسرعان ما غدا لفت انتباه «الفتيات»، بالطبع، هو مهمّتي الرئيسة. وكنت متأهّبًا لكلّ شيء في سبيل نظرة، أو كلمة، أو قبلة، أو لحظة لقاء حميم!

لا ريب أنّني كنت أَنشد اللذّة، ولكن من خلال الملذّات التي غالبًا ما كانت تسبّب خيبات الأمل، كنت أستجدي، باطّراد، شيئًا من الصداقة والحبّ.

كنت أتنقّل من خيبة أملٍ إلى خيبة أملٍ أُخرى، ومع ذلك لم يجُل في بالي أنّه، لكي أكون أهلاً لحبّ الآخرين، كان عليّ أن أكون قادرًا على حبّهم.

* *

وأخيرًا، جاء الحكيم. ودخل حياتي. ومنذ اتّصالاتنا الأولى، كنت ***واثقًا*** من أنّه سيتمكّن من معرفتي، وسيحبّني، فقد كان يهبني وقته، ويمنحني اهتمامه الكلّيّ، بل كان يهب ذاته ***ولا يطالب بشيء***.

وقد بتُّ، اليوم، واثقًا من أنّه يحبّني بصدق، وبلا شروط. وهذا «الإيمان» الذي لا ثغرة فيه، كان يبثّ فيّ الرغبة في أن أكبر.... وأحبّ، ربّما، إلى حدٍّ ما، من أجل إرضائه. غير أنَّ دافعي العميق كان شعوري، أمامه، بقدرتي على تجاوز ذاتي. ***لقد كانت ثقته تبثّ فيّ الثقة***. وقد شرعت أومن بذاتي لأنّه كان يؤمن، هو، بي. حتّى أخطائي وكبواتي لم تعُد، لي، عائقًا، فعندما كنت أعترف له بها، كنت أعرف أنّه، معها، لا ينفكّ يقدّرني، ويحبّني، ويثق بي.

وكانت رائعةً تلك القوّة المجهولة التي كانت تنبعث فيّ، منّي، طاقة سرّيّة كانت تعيش كمينة في أعماق قلبي، ***حياة*** كُنْتُ وُهِبتُها منذ الأَزل، ولكن لم يكن أحدٌ، حتَّئذٍ، قد توفّق إلى اكتشافها، وتفجيرها من تربتي الخصبة.

كان الحكيم قد قال لي، في لقآتنا الأُولى، إنَّ هذه ***الحياة***، وإنَّ ***الحبّ*** في أغوار هذه الحياة، كانا آتيين من الله. وقد أدركت ذلك بعقلي. أمّا اليوم فكنت أَختبره بقلبي..

وهكذا كنت أكتشف، شيئًا فشيئًا، وجه الله الحقّ، الذي كان الحكيم الانعكاسَ الحيّ له، بمواقفه أكثر من أقواله.

كان الله ***ذاك الذي يحبّ بلا شروط***. وكلّ من ارتضى الانفتاح لهذا الحبّ، والتعرُّض للمسته كان يهبّ منتصباً على نحوٍ معجز، وقد شُفي من شلله، هاجرًا فراشه، جاريًا نحو الآخرين. أجل، لقد بتُّ واثقًا من أنّ يسوع عندما كان يقول لمرضى الإنجيل: «امضِ، إيمانك خلّصك»، إنّما كان يعني

الإيمان بهذا الحبّ اللانهائيّ. وهذا الإيمان كان يشفي، ويهب الإنسان قدرةً على «تحريك الجبال».

فإلى مثل هذا الحبّ كان الناس يحتاجون. ولئن هم تردّوا إلى السَّقَم والنزاع، فمن جرّاء افتقارهم إلى الإيمان بهذا الحبّ.

وبمثل هذا الحبّ كان عليّ أن أُحبّ الآخرين من حولي، كما طالبنا يسوع الناصريّ، وكما كان الحكيم، تلميذه، يحبّ.

وبمثل هذا الحبّ كان عليَّ أن أُحبّ تلك التي سترضى أن تحبّني. كنت أدرك ذلك، وأرغب فيه بكلّ قواي، ولكن هل سأقوى على الوفاء له، ***وفاءً يمتدّ مدى حياةٍ كاملة؟***

لم يكن لي قِبَلٌ على الإيمان بقدرتي على هذا الوفاء.

(٢٧)

يومها قال لي الحكيم: «إنَّ الإخلاص الحقّ بين الأَزواج ليس على نحو ما تتخيّله يا صغيري. إنّه ليس إكراهًا تفرضه الشريعة، والمجتمع والكنيسة. وليس احترام عَقدٍ يتضمَّن شروطًا جزائيّة صارمة:

إنَّه مغامرة، دربٌ يتعيَّن سلوكه، لأنّه دربٌ اختير طوعًا.

إنّه يُعاش وينمو كما يُعاش وينمو حبّ العاشقين،

إنّه حبٌّ يسير،

والإخلاص خبزه اليوميّ، وخمرة فرحه.

ليس الحبّ مكتمل الصنع، بل يُصنع شيئًا فشيئًا.

ليس ثوبًا جاهزًا للّبس،

بل هو قماشٌ يتعيّن تفصيله، وجمعه، وخيطه،

ليس بيتًا جاهزًا، تُسلَّم مفاتيحه للسكن في الحال،

بل هو بيتٌ يجب تصميمه، وبناؤه، وصيانته، وغالبًا إصلاحه؛

ليس قمّةً تمَّ الاستيلاءُ عليها،

بل هو انطلاقٌ من الوادي، وتصعيدٌ مثير، وكبواتٌ أليمة،

في قرّ الليل، أو قيظ الشمس الحارقة.

ليس رسوًّا منيعًا في مرفأ السعادة،

بل رفع المراسي والإبحار إلى أعالي البحار مع النسيم الرقيق أو مع العاصفة الهوجاء.

ليس «نَعَمًا» منتصرًا، نقطة ختامٍ ضخمة تُكتَبُ بالموسيقى وسط الابتسامات والتصفيق،

ولكنّه مجموعةٌ من أقوال «نَعَم» منثورة عبر الحياة.،

وسط مجموعة من أقوال «لا» تمّحي في أثناء المسيرة..

ليس ظهورًا مباغتًا لحياةٍ جديدة، كاملةٍ منذ مولدها،

ولكنّه تدفُّق نبعٍ، ومسيرة نهرٍ طويلة، متعدّدة التعرّجات،

نهر يجفّ حينًا، ويفيض أحيانًا أُخرى،

ولكنّه يسير دائمًا نحو البحر اللامحدود.

ليس الوفاء شيئًا جاهزًا، بل هو، كالحبّ، يُصنع شيئًا فشيئًا، فهو رفيق الحبّ الذي لا ينفصل عنه.

ومن ثمّ ليس الوفاء:

عدم الضلال،

وعدم الصراع،

وعدم السقوط،

بل النهوض، دائمًا، والاستمرار في السير،

هو إرادة مواصلة المشوار المُعَدّ معًا، والمقرَّر بحرّيّة، حتّى نهاية شوطه.

هو الثقة في الآخر، بتخطّي الظلال والليالي،

وهو مساندةٌ متبادَلة، بتخطّي الكبوات والجروح،
وهو الإيمان بحبّ الكلّيّ القدرة، في ما يتخطّى الحبّ.
الوفاء، يا صغيري - إسمع ولا ترتعد - هو أحيانًا،
وفاء يسوع، الذي، وقد سُمّر على الصليب،
ومزَّقت جسدَهُ وقلبَهُ خيانةُ الإنسان،
وحيدًا، مهجورًا، يعاني من الخيانة،
ظلّ وفيًّا حتّى الموت،
يسامح ويستمرّ في العطاء،
وبحياته المبذولة،
يُخلِّص الحبّ للأبد».

وتمتمتُ بصوت خافت:

- يسوع، أجل، ولكن هل يقوى الإنسان؟ إنّ الحبّ، على هذا النحو، حتّى النهاية، متخطِّيًا الخيانات والهجران، والقطيعة، حتّى الموت... هذا مستحيل!

وردَّ الحكيم:

- مستحيل على الإنسان وحيدًا، ولكن ليس على الإِنسان المعتمد على يسوع المسيح.

- ولكنّ ذلك يقتضي الإيمان به!

- يا صغيري، إنّ الله، بابنه، يرافق ***جميع البشر*** الذين قرّروا، يومًا، بصدقٍ، أن يتحابّوا. فهو الأب، يحبّ جميع أبنائه، ويحبّ جميع الأَبناء المتحابّين..

– وإذا ما أقلعوا عن التحابّ

– يظلُّ هو يحبّهم.... معًا

– ليس هناك، إذن، أبدًا، فشلٌ تامّ!

– منذ الصليب، لا فشلَ، أبدًا، إذا ما أراد الإنسان..

... عقبَ صمتٍ طويل قلت:

– لا أَستطيع القبول بذلك. إنّه لمستحيل.

– ستدرك فيما بعد، يا صغيري. أنا نفسي لزمني كثيرٌ من الوقت كي أُدرك.

– الإِدراك بالعقل، ربّما، ولكن عندما يكون القلب مصابًا، من يستطيع تسكين ألمه العميق؟ إنّ الكلمات سهلة في فم من لم يعانوا.

واضطرب الحكيم في سرّه. وكان عليَّ أن ألحظ ذلك، ولكنّني أَلححت بسماجة:

– كيف توصَّلت، أنت ذاتك، إلى إدراك ذلك؟

وجاء جوابه قاسيًا، غير متوقّع:

– لأنّني عشته.

بغتةً بتُّ مجنونًا، تائهًا، كمن، بحركةٍ غير إراديّة، نكأ جراح صديقه.

كان الحكيم قد لاذ بالصمت، ولبث ساكنًا، فيما كنت أُحدّق إليه محاولاً سَبْر عمق الأَلم الذي أيقظته، من خلال ملامح وجهه. لقد كان قلبه ينزف؛ علمت ذلك من دموع عينيه.

* *

ما القول؟ ما العمل؟ كنت خجلاً، مشلولاً. وإثر فترةٍ طويلة، اقتربت، خجلاً، من صديقي، وبارتباك، وضعت يدي على يده، وقد بعثت فيّ تلك اللمسةُ الطمأنينة. وهَمَسْتُ، أخيرًا:

– عذرًا، لم أكن أَعرف.

– ما كان بوسعك أن تعرف، يا صغيري.

وأكّدَ لي نظره أنّه لم يكن حانقًا. ثمّ استأنف: اطمئنَّ بالاً، فهذه الدموع، اليوم، دموع سلام، وليست دموع يأسٍ وثورة. هذه الدموع خصبة، في حين كانت سابقاتها تنخر قلبي مثل حامضٍ شديد المفعول.

إنَّ الدموع تبقى، عندما يكون القلب جريحًا، ولكن لن يستطيع أحدٌ أن يزدهر إن لم يفجّرها حياةً جديدة.

هكذا وهبنا يسوع الحياة متخطّيًا خياناتنا.

ثمّ قال، وهو ينهض كي يُشيِّعني:

– «سأشرح لك. ولكن ليس اليوم... فلن أقوى على ذلك».

(٢٨)

كنتُ ما زلتُ ألوم نفسي، فرغم النظرة الساجية التي رمقني بها الحكيم، ورغم عباراته المؤاسية، كان يخامرني شعورٌ موجع بأَنّني أرهقت كاهليه من جديد، بصليبٍ ثقيلٍ كان قد تخفَّف منه، بُرهةً.

لا بدّ لي من الاعتراف بأنّني كنت مضطربًا، وما هو أخطر، كنت محبطًا، فالحكيم، هو أيضًا، كان قد عهد فشل أُسرةٍ منشقَّة؛ لم أكن قد تخيّلت ذلك، لحظةً واحدةً.

كنت ناقمًا، أوّلاً، على زوجته، ومن غير أن أعرف، كنت أتّهمها. ولكن سرعان ما استحوذ عليّ الخجل، وحَظَرْتُ على مخيّلتي إقامة محكمة. ثمّ، كما يحدث لي كثيرًا، إذ كنت أتوقّع صراعًا قاسيًا كان عليّ خوضه، استولى عليّ، وا أسفاه! إحباطٌ جمّ.

فلئن كان الحكيم قد فشل، فمن يقوى على النجاح؟ كنت أُفكّر، تفكيرًا لا قِبلَ لي على مقاومته، بكلّ تلك الأُسَر التي أعرفها، والتي كانت، من حولي، تنهار مثل قصورٍ من ورق، بفعل عبث أصابع ولدٍ صغير، وكنت أستذكر الإحصاآت التي كانت تروي لنا، بلا رحمة، تفاقم أعداد الطلاقات. وحينئذٍ، من جديد، كان الشكّ المدمّر يستقرّ في خَلَدي.

من المحقّق، لن أعرف لهذا المأزق مخرجًا.

ولكن سرعان ما استعدت جأشي، وبتُّ فخورًا بنفسي، معتبرًا ردّة الفعل هذه بمثابة انتصار، متوسّمًا فيها الدليل على أنّني أصبحت أقوى.

لقد غدا الحكيم يكلّمني، حتّى في صمته. وكنت أسمعه يهمس بصوته

الذي يقرن العذوبة بالعزيمة: «ألم أقل لك وأكرّر القول إنَّ الأَمر صعب؟ لا تهدر وقتك، يا صغيري، في رَوْز حظوظ نجاح حبّك، متخيِّلاً، تارةً، أنَّك لن تُفلح، ومتوقِّعًا، تارةً أخرى، بكبرياء، أنَّك ستبزّ الآخرين نجاحًا! بل تأهَّب.

فهل يمارس مهنةً من لم يتلقَّنها، من قبل، مطوّلاً؟ وهل يقدّم امتحانًا من لم يستعدّ له؟ وهل يخوض مباراةً من لم يتدرّب لها أبدًا؟ فعلامَ يفكّر القوم أنَّ بوسعهم تأسيس أُسرةٍ سعيدةٍ وثابتةٍ من غير استعدادٍ طويل؟ فلا يكفي أن يقول المرء «أحبّك» كي يحبّ مدى حياةٍ بأكملها»...

وعدتُ أبذل جهودي، من جديد.

* *

كنتُ أتهيَّب مقابلة الحكيم، غير أنّني كنت أتمنّاها، ليقيني بأنَّ ذلك اللقاء سيجلب لي الطمأنينة والسكون. ولكن لكي يؤتي هذا اللقاء ثماره، كان لا مناص لي من مبادرةٍ تكلّفني الكثير. فقد كنت أَدَنْتُ صديقي، وكنت نادمًا على ما فعلت.

وحالما حيَّيته، سارعتُ إلى القول:

– أستمحيك عذرًا.

فنظر إليّ بدهشة وأجاب:

– لقد قلتُ لك، يا صغيري، إنَّ تلك ليست غلطتك، إذ لم يكن بوسعك أن تعرف.

– ليس الأمر كذلك....

وتردّدت، فقال:

– تكلّم بلا خشية، فأنت تعرف أنَّ بمقدورك أن تقول لي كلّ شيء.

– أعذرني، ففي لحظةٍ، فقدت ثقتي فيك؛

وأضفت، خجلاً:

– ظننتُ أنّك لَستَ مَن كنتُ أظنّ.

وأجاب، من غير أيّ أثرٍ لاستياء:

– ينبغي ألاّ تفقد، أبدًا، الثقة في الآخر، أيًّا كان هذا الآخر. ولكن يجب ألاّ تظنّ الآخر كاملاً. فمن يجعل من ذاته إلهًا، يتبيَّن، ذات يومٍ، أنّه ليس سوى إنسان. وإن أنت أحببت الآخر حقًّا، فعليك أن تحبّه كما هو، بثرواته، ومواطن ضعفه.

وأولتني سعادتي بالتحرُّر شعورًا مباغتًا بالفَرَج، وتمنّيت أن أهتف له: «إنّني أُحبّك». ولكنّني لم أجسر؛ غير أنّني رجوت، بكلّ قواي، أن يستشفّ حبّي له من خلال بسمتي، وأن يصدّقه.

وكان صديقي هو من قطع الصمت، وتحدَّث ببطءٍ ومشقّة:

– لقد هجرتني زوجتي لتلحق برجلٍ آخر كانت تظنّ أنّها تحبّه أكثر منّي. لقد مضت حاملةً معها جزءاً منّي. لم تدم سعادتي أكثر من سنواتٍ قصيرة، أمّا أَلمي فمستمرّ، فالمرء يتألّم دائمًا من بتر أحد أعضائه، حتّى لو استطاع القبول بالواقع القاسي، واقع بترٍ نهائيّ.

لقد أصبح قلبي أرضًا موحشة، تغزوها وتخنقها الأعشاب الضارّة. فقد تسرَّب إليه الحقد، وأعترف أنّه عرف، أيضًا، طعم الكراهية المرّ.

وتعيَّن عليَّ أن أكافح، بكلّ قواي، كي أستعيد السلام، الذي لم يستتبّ إلاّ بعد أن تقبّل قلبي الممزّق بذور الغفران. حينئذٍ ***ازدهر الحبّ***. وكم كان عليّ أن أَتعهّد تلك الزهرة الهشّة، بالجهود والعناية.

ما زلت، حتّى الآن، أحبّ تلك التي ما برحت زوجتي. وإنّني أُصلّي لكي تكون سعيدةً وأن يكون «هو» سعيدًا، رغم كلّ شيء.

هل كنت قد فعلت كلّ ما يتوجّب فعله لكي أوفّر لزوجتي السعادة التي كانت تَنشدها؟

كنت أعتقد ذلك. ولكن من يستطيع أن يؤكّد، حيال فشل زواجه، أنّه متحرّرٌ من كلّ مسؤوليّة؟

ألف مرّة، استذكرت الطريق الذي اجتزناه معًا، محاولاً تعقّب عثراتي، التي كنت أُكرّر بعضها.

لم يكن أحدٌ قد دلّني إلى السبيل، أو أَفصح لي عمّا يعترضه من عوائق. وعلى نحوٍ خاصّ، لم يساعدني أحدٌ على التأهّب لتخطّيها.

أَتدرك الآن سبب قولي لك مرارًا إنّ الحبّ أمرٌ عسير، يستلزم تعلُّمًا طويلاً قبل بلوغه؟ وكم أتمنّى ألاّ يُكرّر آخرون، سواي، أخطائي، وألاّ يعانوا ما عانيته!

– لا ريب أنّك عانيت كثيرًا.

– أجل، يا صغيري، من ألمي الخاصّ، وفيما بعد، أيضًا، من آلام الآخرين!

– لست أفهم.

– عندما عرفت السلام، أخيرًا، اكتشفت أنَّ بوسع محنتي نفسها أن تكون خصبة. فبما أنّ قلبي المحطّم قد استعاد قواه، وبما أنّه، بعد أن تحرّر من قيود الحقد، عاد يخفق، فهو سيقطّر حبًّا مُصفًّى، أكثر أصالة.

ستكون زوجتي، بعد الآن، هي الوحدة، ولكنّ قلبي المنفتح سيرحِّب، كلّ يوم، بمن يعانون، كي يقدّم لهم، مجّانًا، الخبز الذي كانوا محرومين منه.

لقد جاؤوا إليّ من غير أن أَستدعيهم، وقرعتْ بابي أفواجٌ منهم ما انفكّت أعدادها تتكاثر. ولقد فتحت لهم بابي، وتألّمت معهم، فالحبّ الصادق هو مشاركة المحبوبين آلامهم

– إنّ الألم باقٍ

– أجل، ولكنّه أخفّ عبئًا عندما يشترك اثنان في حمله. هذا ما علّمَناه يسوع. فهو لم يُبطل آلامنا، ولكنّه تطوّع لحملها معنا. وهو يقدّم لمن يعطونه أخطاءَهم ومحَنهم، من خلال حبّه، حياةً مجدّدة....

وأضاف، بصوتٍ خافت:

– أظنّ أنّني منحت بعض حياة لمن كانوا يظنّون أنَّ حياتهم حُطّمت إلى الأبد...

وهكذا، بأصابعي الجريحة، كنت أعجن خبزًا جديدًا، تبيّنَ لي أنّه مغذٍّ.

* *

ولّما خرجت من بيت الحكيم، جال في خاطري أنّ هذا الخبز بالذات هو الذي كنت غالبًا ما آتي لتناوله، وحينئذٍ اتّضح لي سبب تضاؤل جوعي.

(٢٩)

ما عاشه الحكيم، يعيشه آخرون، ولكنّهم يعيشونه على نحوٍ سيّئ. فمَن، مثله، يقوى على عدم لعن الوحدة اللاإنسانيَّة، والسيطرة على أحقاده، وتحمّل آلامه؟

كثيرون من غرقى الحبّ هؤلاء كانوا يأتون إلى الحكيم فيحدّثهم. كيف كان يستطيع مساعدتهم على حمل أعبائهم؟ هذا ما استوضحته عنه.

* *

- يا صديقي، ما عساك تقول للذين يبوحون لك بمِحَن أُسَرهم المفكَّكة؟
- لا شيء، يا صغيري، بل أُنصت إليهم.
- وعندما يفرغون من الكلام؟
- أَستمرّ في الإصغاء إليهم.
- وهل يتكلّمون من جديد؟
- بإسهاب.
- وعندما يلوذون، أخيرًا، بالصمت؟
- أقول لهم ما قلته لي: «كم أنتم تعانون!» ثمّ أصمت، وأُصلّي.
- وهم بمَ يجيبونك؟
- أقوالهم متعدّدة، فقصصهم متنوّعة.

«هو يقول: إن كان قلبي ما يزال يخفق، فهو لا يخفق من أجلها، ولم يعد جسدي،، منذ أمدٍ طويل، في جوعٍ إلى جسدها.

هي تقول: ليس، هو، من حلمتُ به. فقد كان مقنَّعًا متخفّيًا. وما عادت شفتاي تحطّان إلاّ على قناع.... وقد هوى القناع.

هو يقول: ما عدت قادرًا على احتمال صمتها، وبرودها، ولومها. وقد عثرتُ على قلبٍ مُشرع، وكلمات حنان، في فمٍ لا يتهرَّب أبدًا.

هي تقول: لقد بات يسعى إلى زيارة بساتين أُخرى، ويقطف زهورًا أُخرى، بعد أن ذبلت زهوري، التي أَقلع عن إروائها.

وفي سورة غضبي دستُ على البتلات التي هوت أرضًا.

هو يقول: كانت تملأ رأسي بضجيج كلماتها، وتعجز عن سماع همس كلماتي، وكانت كلماتي الدفينة، وكأنّها حِمَمٌ حارقة يجيش بها قلبي، تنفلت بغتةً، وتحرق حطام حبِّنا المفتَّت.

هي تقول: بات أَبناؤنا لا يطيقون تحمّل خصاماتنا، فيُخيّمون تحت العاصفة، أو يفزعون إلى الخيمة التي نصبناها لهم بمشقَّة، حيث تمزّق البروق شغاف قلبهم.

هو يقول: لقد كانت تضمّني بعنف بين ذراعيها النَّهِمتين، فأختنق، صامتًا، وأنا عاجزٌ عن الحراك وعندما انعتقتُ، أخيرًا، من قيودها، هربتُ بعيدًا، بحثًا عن مجالٍ أَتنفّس فيه الصعداء.

هي تقول: لقد ظلّت الكلمات دفينةً في رأسه المغلق، مثل ركام صخورٍ ترتفع، وتتسامق، وبات الجدار من العلوّ بحيث تعذّر تخطّيه.

هو يقول: لقد استقرَّ الاعتياد فيما بيننا، مثل ضبابٍ لا وجه له، يخفي البسمات ويقضي، ببطء، على طعم القبلات. وطعنّا في السنّ من غير أن يرى أَحدنا الآخر، وذات يوم لم يعد يتعرّف أحدنا الآخر.

هي تقول: كان يريدني لنفسه، وكنت أريده لنفسي،

ولكي يستولي أحدنا على الآخر كنّا نتصارع ؛

وعندما انتهى الصراع، لم يبقَ في أيدينا المذهولة، سوى ثوب الآخر الممزّق.

يقولان: علامَ مواصلة الصراع؟ أَمس كنّا في السماء، وبتنا، اليوم، في الجحيم، فالسماء هي الحبّ، والجحيم هو غيابه.

ونحن نرفض الجحيم لاعتقادنا بأنّه مسدود المسالك».

هذه الأَقوال وسواها ألتقطها بصمت، في كأس قلبي،

كلمات حزينة مثقلة بالحياة الجريحة، تنزف وهي تتخطّى ضفاف شفاهٍ وجيعة، ...

وفي بعض الأماسي، تفيض كأسي، فأقدّمها للربّ.

– ولكن أنت، يا صديقي، ماذا تقول لهم، عندما تتكلّم أخيرًا؟

– أقول:

«يا أصدقائي الغالين جدًّا.

أحدكما قد مضى فيما الآخر يبكي، ويلعن ويُتمتم: «ما زلت أُحبّك».

أو إِنَّكما، كليكما، ببسمةٍ رخيصةٍ على الشفاه، وبقناع مهرجان فوق جرحٍ كمين، «باتّفاقٍ متبادل»، وببركة الشرائع، أطفأتما الجمرات الأخيرة في الموقد،

وأغلقتما الباب، إلى الأبد، على حبٍّ بات رمادًا.

ولكن سواءٌ بكيتما، أو ابتسمتما، ، أو تبادلتما الشتائم،
وأيًّا كانت جهودكما في سبيل بناء منزل السعادة في مكانٍ آخر،
ومحاولتكما إشعال نارٍ في موقدٍ آخر،
فيا أصدقائي المساكين أقول لكم:

لا يسعكم «إلغاء زواجكم».

قد تستطيعون تدمير صوركم وهداياكم،
والدوس على ذكرياتكم السعيدة، المدفونة تحت عبء الأيّام التعيسة،
وربّما محاولة اقتسام ما كان يخصّ اثنين،
ولكن من يستطيع أن يعيد للآخر الحياة التي تلقّاها منه،
التي تسري في عروقه، وقد امتزجت بدمه إلى الأَبد،
في ما يتخطّى الإهاب الذي طالما دوعب بجنون،
إلى صميم القلب وشرايينه المرويّة.
لا تستطيعون «إلغاء زواجكم»
ففي ابنكم ربطتم خيوط حياتكم،
ولم يستطع أحد، قطّ، فكّ هذا الرباط المقدّس،
وهذا الرباط هو حياتاكما اللتان اجتمعتا إلى الأبد في حياةٍ جديدة.
وعندما تقبّلون وجه الولد،
إنّما تُقبّلون وجوهكم مع وجهه، في آنٍ واحد.

لا تستطيعون «إلغاء زواجكم»

قد تستطيعون اتّهام الآخر، والمجتمع، والقدر،

وقد تستطيعون لعن الكنيسة، واللّٰه الكلّيّ القدرة،

الذي لا تستطيع قدرته شيئًا في مواجهة حرّيّتكم،

فلئن كنتم سألتموه، طوعًا، أن يلتزم معكم، عندما التزمتم فيما بينكم،

فهو سيظلّ أمينًا...

ولا يستطيع «إلغاء زواجكم»

وهتفت:

– إنّه لأمر غاية في القسوة!

– وهل قلت لك إنّه من اليسير أن يكون المرء إنسانًا حرًّا، مسؤولاً؟

– ولكنَّ الإنسان ضعيفٌ، ومعرّض للخطأ.

– إنّه ضعيف. هذا صحيح. ولا يستطيع أحدٌ أن يأخذ عليه وهنه، إذ لا يستطيع أحدٌ قياس الحبّ الحيّ في قلب إنسان، أو تقدير مسؤوليّته في حبٍّ مهدور. ولكن، لا أَحد يستطيع أن يقول له إنّ بإمكانه استعادة الحياة التي قدّمها لآخر، فقد غدت ملكه.

أُكرّر لك القول: إنّ الذين منحوا، أَحدهم للآخر، حياتهم، بحرّيّة، هم أزواج إلى الأبَد.

.... وتجاسرتُ فاعترضتُ، مرّةً أُخرى:

– إن كنت هكذا تخاطب من يأتون إليك، ملتمسين بضع كلمات أمل، فإنّي أشكّ في أَنّهم سيرتدّون عنك مطمئنّين.

– وإن أنا ضعفت فأحجمت عن التحدُّث إليهم على هذا النحو، سأكون قد خنت احترامي وحبّي لهم.

ولكن لديّ أشياء أُخرى كثيرة أودّ أن أَقولها لهم....

– وهل سيعودون لسماعها!

– أجل مثلما يعود المريض إلى الطبيب الذي يصارحه بالحقيقة!

* *

من جهتي، ما عدت، يومها، راغبًا في الاستماع إلى المزيد. فقد كنت شديد الاضطراب.

لا ريب أنّني كنت فخورًا بالإِنسان وبحرّيّته. ولكنّني كنت عليمًا بأخطائي وأخطاء الناس من حولي، وبهذا الهدر المريع الذي كنّا نكدّسه، لعجزنا عن حسن إدارة هذه الحرّيّة الرائعة التي ندافع عنها بضراوة.

مثل الكثيرين، كنت أريد إلهًا يدع لي مطلق الحرّيّة في تقرير حياتي وتوجيهها... ولكنّني كنت أودّ أن يكون هذا الله أبًا طيّبًا يمحو أخطائي، عند الاقتضاء، ويبارك، بلا حدود، مقاصدي الجديدة. ولكن لم يكن يستطيع ذلك.

وفي هذه الحال لا يبقى للإنسان من خيار، عندما هو يقرّر تأسيس أسرة، سوى التخلّي عن إرادته، أو القبول، حتّى النهاية، بمخاطر هذه الحرّيّة.

هذه المرّة، كنت أدرك، ولكنّني لم أكن أتقبّل.

كنت أريد أن أكون ***إنسانًا وحرًّا***... ولكنّني كنت خائفًا.

ولم أجرؤ أن أكاشف بالأمر الحكيم. وكان لا بدّ لي من الإمعان في التفكير.

(٣٠)

كما أسلفتُ القول، كنت أَعرف العديد من الأُسَر المفكَّكة التي كان عددها، من حولي، يتفاقم، بحيث بتُّ أتساءل هل إنجاح أُسرة، اليوم، إنجازٌ استثنائيّ.

وهذا كان يفسّر لي، أكثر فأكثر، إصرار الحكيم على مطالبة الشبّان باستعدادٍ جادٍّ. فمن يستطيع أن يحبّ، إن لم يعرف معنى الحبّ، ولم يتعلّم الحبّ.

وازددت، أيضًا، إكبارًا لعظمة أولئك المدعوّين إلى الالتزام الحرّ، مدى حياةٍ بأكملها، وشرعت أُذهل حيال احترام الربّ اللامحدود لقراراتهم، وارتضائه ختمها بحبّه، إن هم سألوه ذلك.

وكانت تبقى حالات الفشل العديدة التي كنت ألحظها، وعواقبها الأَليمة...

وكان الحكيم قد قال لي إنّه، منذ صُلِب يسوع المسيح، لم يعد، ثمّة، أيُّ فشلٍ تامّ، لو شاء الإنسان. كنت أتمنّى ذلك بكلّ قواي، ولكنّني لا أرى كيف، بما أنّ صديقي كان يقول، أيضًا، إنَّ الإنسان لا يستطيع إلغاء زواجه كي يحاول الزواج مَرَّةً أُخرى..

* *

مرّةً أُخرى، كنت راغبًا في أَن ينيرني، فقال:

الحبّ مثل حبّة حنطةٍ مدفونةٍ، منسيّةٍ في البرد وفي الليل،

وتبدو أحيانًا، لعيون الأحياء، ميتة.

ولكنّه باطلٌ ذلك الموت الذي يبشِّر بالحياة،
طالما ظلّت الحبّة تُروى، وتدفَّأ بأشعَّة الشمس.

إنَّ مواسم الحبّ هي مواسم الحياة ؛
بعض مواسم الشتاء عذبةٌ لمن يتَّقونها،
في حين هي قاسيةٌ على الآخرين، عندما تسقط واحدًا فواحدًا، الأوهام المجنونة، وتهبّ ريح خيبات الأمل الصقيعيّة.

ومواسم الربيع بَهِجة، فهي أعياد زهور، وثمارٌ موعودة،
ولكنَّ بعضها يحمل الاضطراب، ومذاقًا حافلاً بالنشوة، للقلوب المجنونة.

ومواسم الصيف هي مواسم حصاد للذين طالما حرثوا، وبذروا بثقة،
ولكنّها، أحيانًا، نيرانٌ يلهبها حبّ الظهيرة،
فتجفّف النفوس، وتحرق الأجساد ذات النسغ المتلظّي..

يا بستانيّي الحبّ، إعلموا أنّ الحبّ يُستَنبت،
وأنّ حالات حبٍّ كثيرة، ما برحت حيَّة، ولئن هي ظُنَّت ميتة.

فقلت :

– ولكنّ بعض الناس جاهلون، ولا يعرفون الاستنبات، وحبّهم الذي مُنِيَ بالوهن المفرط لن يقوى على الصمود.

– هناك أَطبّاء قلوب، يا صغيري، أصدقاء يمكن التعويل عليهم، رجال اللّه، بمكنتهم مساندة حالات الحبّ العليلة ومعالجتها.

* *

ولم يكن من العسير عليّ إدراك ذلك. فمن مراقبتي لوالديّ، طالما جال بخاطري أنّه كان بوسعهما تجنّب الكثير من الصدامات والآلام، لو ساعدهما أحدٌ على تجاوز حالات سوء التفاهم التي غالبًا ما كانت تنشب فيما بينهما، وعلى أن يقبل، أخيرًا، أحدهما الآخر، كما هما، لا كما كان يريد أحدهما للآخر أن يكون.

ولكن، للعديد من الأزواج، كان الأوان قد فات، فقد دفنوا الحبّ الذي ظنّوه ميتًا، وعلى الأَرض المداسة حاولوا استنبات حبٍّ جديد. ولكن هل بوسعهم أن يُفلحوا إن كان الله ينبذهم؟

* *

عندما قلت ذلك للحكيم، هبّ واقفًا، وقد استولى عليه غضبٌ مباغت، وقال:

– اخرس. ***فالله لا ينبذنا أبدًا***، بل نحن نبتعد عنه.

– ماذا يتعيّن، إذن، على المحبّين المنفصلين الذين اختاروا رفيقًا جديدًا، أو رفيقةً جديدة؟

– أن يعترفوا، أَوّلاً، بمواطن ضعفهم، وأن يصلّوا كي يظفروا بالنور.

– وكيف ذلك؟

– على غرار الأولاد المتألّمين:

افهمني، يا إلهي، أنت الذي يُحسن فهم أبنائه الأوفياء،
وأبنائه الخطأة، أيضًا.
لم أَستطع أن أعيش وحيدًا، مهجورًا، ضائعًا،

فقد كان قلبي مقرورًا، وجسدي جائعًا.

فكيف كان بوسعي أن أُبحر في الحياة، فوق بحرٍ هائج،
وصاريّ محطَّم، وأشرعتي ممزّقة،
ما لم أبحث عن أحدٍ يساعدني على إصلاح مركبي،
وعلى مواصلة إبحاري؟

كيف كان بوسعي أن أُطعم، بمفردي، أطفالاً سقماء، وأنا امرأةٌ وحيدة، جريحة، نازفة، أُفرغت من دم الحبّ،
وهم يطالبون بالحليب من صدري الذي نضبت ينابيعه؟

أنا لم أَرفض، يا إلهي، قليلاً من الحبّ المُقدَّم،
وبعض فُتات سعادةٍ يُطرح في يديّ الـمُصفِرَتَيْن،
لقد حاولتُ نسج عشّ استقبال، للاستعاضة عن العشّ المدمّر،
ولست أجسر على التحرُّك، فوق حبّي الجديد،
خشية أن يطير مثل عصفورٍ خائف.

رغم جروحي، ورغم عبئي، أَظنّ أنّني سعيد،
فقد انبسط قوس قزحٍ خجول في سمائي الخالية من الغيوم..
أتوسّل إليك، يا إِلهي، ألاّ تسلبني فرحي!
ولكنّني خائف، مرتاب.
فهم يقولون لي إنّك لا تستطيع مباركة هذه الأسرة،

لِمَ، يا ربّ، لِمَ؟

وهل هي شرٌّ محاولة السعادة، في أَعقاب معاناةٍ متمادية، أو بعد هدر سعادةٍ عابرة؟

أحببني، يا إلهي، ولا تتخلَّ عنّي،
فأنا بحاجةٍ إلى أن تحبّني أنت،
وبما أنّني أحاول، اليوم، أن أُحبّ على نحوٍ أفضل،
فهل أستطيع أن أقدّم لك فُتات هذا الحبّ الجديد الذي أعتقد أنّه حبٌّ حقّ؟

* *

– وهل تعرف، يا صديقي، جواب اللّه؟

– لقد انتظرته طويلاً، يا صغيري. غالبًا ما يُمنى الناس بالإحباط، حيال ما يظنّونه صمت اللّه. وهم في ذلك مخطئون. إنَّني أعرف الآن أنَّ الربّ يتكلّم، ولكنّنا لا نسمعه. ولقد طهَّرتُ قلبي، وأَصغيتُ إليه، وشيئًا فشيئًا، سمعتُ هَمْس صوته. وحينئذٍ تجرّأتُ، أخيرًا، على إبلاغ الجواب الذي اعتقدت أنّني سمعته، للذين كانوا يتراصّون أمام باب بيتي، وباب قلبي.

– أظنّ، يا صغيري، أنّ الربّ كان يتكلّم هكذا:

«يا بنيّ، لقد أحببتك دائمًا، وإنّني أحبّك دائمًا،
فالأب الحقّ لا يرذل، أبدًا، ابنه،
حتّى إن كان عاقًّا، ونأى عنه.

لم تستطع أن تعيش وحيدًا، وأنا عليمٌ بوهنك... ولك أن تقرّر.

أنت حرٌّ يا بنيّ، وقد أردت لك الحرّيّة حبًّا بك.

ولكن من المحقّق، أيضًا، أنّني لا أستطيع فكّ الرباط الذي عقدناه معًا، أنت وأنا. كنيستي نفسها لا تستطيع ذلك،

فأنا الحــــبّ، والحــــبّ مُخلص،

ولن تستطيع حملي على الخيانة.

يا ابني الغالي، أنت تتألّم، وأنا أفهم ألمك،

وأتقبّل صلاتك، وحتّى عنف كلماتك،

فمن يستطيع أن يتفوّه بألفاظٍ رقيقة، عندما ينزف منه القلب، ويتمزّق الجسد؟

ولكن، يا بنيّ، هل تعلم أنّ أَلمك هو أَلمي؟

لم يكن صليبي للأمس، ولكنّه لليوم أيضًا، وسيكون للغد،

فآلامي ليست ناجمةً عن الضربات، والأشواك، والمسامير، فحسب،

بل هي آلامٌ لا متناهية يسبّبها انتهاك الحبّ.

ما برح البشر يصلبونني على خشبة،

ويملخون ذراعيّ حتّى نهاية الأَزمنة.

ولكن في أطراف ساعديّ الممدودتين، يداي مشرعتان،

وبهما أحمل كلاًّ منكم، أيّها الأولاد المنفصلون،

وقلبي، في الوسط، يجمعكم أبدًا،
فقلبي حيّ، وما زال يحبّ.

ثق، يا بنيّ، وتعالَ إليّ بلا وَجَل.
عديدةٌ هي الدروب التي بها تلتقيني، وبها ألتقيك،
فتقبّل أَلَم الفراق،
وبما أنّك، على غرار الكنيسة المفكّكة، لا تستطيع الشهادة للوحدة المصانة، فليشهد فيك ألم الفراق، لعظمة الوحدة.

... ولكن، يا بنيّ الغالي، اعترف بأخطائك، وأوهانك، واستغفر،
واصفح عمّن يتوجَّب عليك الصفح،
فالحبّ لا يقوى على العيش، من جديد، في قلبٍ ينغلق.
وإذن، أقول لك،
أَعطِني، بلا تردّد، لعثمات حبّك الجديد،
فأتقبَّلها، على صليبي،
وسأُعنى بما سوى ذلك.»

* *

أعتقد أنّني، يومها، أدركت الجوهريّ: إنّ الله يتألّم، في يسوع المصلوب، من انشقاقاتنا، ولكنّه يخلّصنا، إن شئنا، بحبّه الدائم لنا.

(٣١)

كالمعتاد، جلستُ في مواجهة صديقي. كنت أَعلمُ أنّه في حاجةٍ إلى التحديق إليَّ مثلما كنت، أنا، في حاجةٍ إلى نظره.

وهممت بالكلام، عندما دخل الولد، فقبّل الحكيم، وجال في الغرفة، ولمس بعض أَشياء، وسحب، الواحد تلو الآخر، درجَي المكتب حيث انتظمت الأَقلام، والمماحي، وطائفةٌ من الأَشياء الأُخرى المهجورة، التي لا مكان محدَّدًا لها. كان يتحرّى، بصمت، ما كان يمثّل له، كما بدا لي، كهف كنوز. وكان الحكيم يراقبه بمتعةٍ وسعادة. كان واضحًا أنَّ الولد كان يشعر أنّه في بيته، ومرتاحٌ فيه.

كان في جيبي بضع حبّات من السكاكر، وقدَّمت له واحدةً منها. فرمقني بدهشة، وتناولها باندفاع، وتفوَّه بكلمة شكر، وخرج وهو يقضم غنيمته.

* *

كان الحكيم يرمقني، شارد الذهن، واستشففت لديه شيئًا من الحزن.

ثمَّ قال لي:

– كان الولد في حاجةٍ إلى اهتمامك ومحبَّتك أكثر من حاجته إلى الحلوى.

– ولكنَّه كان يشتهيها، كما تبينّ لي عندما قدّمتها له.

– كان يشتهيها، ولكن هل هي كانت ضروريّةً له؟ فشهوته بعد أن تشبع، ستولد بعد هنيهة، وسيعود إليك للحصول على الحلوى التي ينتظرها. وهكذا كثيرون من البالغين يعطون الصغار الثانويّ، ويحرمونهم الجوهريّ.

– ذلك أنّهم يحبّونهم، ويودّون بعث السرور في قلوبهم.

– وغالبًا، وا أسفاه! لأنّهم يلتمسون حبّهم... أو ربّما صفحهم!

ليست الحلوى هي التي تنمّيهم، بل الحبّ. وكثيرون منهم قليلو النموّ أو سيّئو النموّ، لأنّهم، بطريقة أو بأخرى، غير محبوبين بالقدر الكافي، أو على الوجه الصحيح.

«هكذا الولد المدفون والمخنوق تحت ركام الدمى، والذي انطفأت لديه الرغبة، لأنَّ كلّ رغباته تلبّى حتّى قبل أن تظهر وتنمو،

والولد الوحيد الذي يرفض والداه منحه الأخ أو الأُخت اللّذين يرغب فيهما، لأنّهما يؤثران البيت، أو الرياضات الشتويّة، أو السيّارة.

الولد المحكوم عليه بالجلوس على كرسيٍّ، في المطعم، أمام طبقٍ مترع، ويضجُّ نفاد صبر، فيما والداه لا ينتهيان من طعام وشرابٍ وحديث... وربّما هما، أيضًا، يضيقان ذرعًا بالسأم.

الولد الأَسير، الضجِر من الكيلومترات، ومن الجلوس في مقعد السيّارة الخلفيّ، ذلك البيت المتحرّك لأَطفالٍ ما عادوا يعرفون السير.

الولد الذي يُترَك، صباحًا، لأنّ والديه يمضيان «للعمل من أجله»، أو يُترك، مساءً، لأنَّ والديه الكريمين يهتمّان بالجميع، وبأولاد الآخرين.

الولد المشبع ضجيجًا، والمغذّى بالصُّوَر، الذي يتلكّأ أمام شاشة التلفاز مأخوذًا، مثل فراشة ليل تصطدم بلا انقطاع بالزجاج المضيء.

الولد، الحيوان العالِم الذي عليه السعي من مدرسته اليوميّة إلى مدرسة الموسيقى، ومدرسة الرياضة، والذي لا يبقى له متّسعٌ من وقت للّهو، والتسكّع، والأَحلام.

الولد الذي يُراد استنفاره لقضايا كبيرة، والذي يغدو حتّى عبثه عبثًا موجّهًا.

والولد الذي يلعب دائمًا وحيدًا، ويخترع شركاء لسلوة أحلامه.

الولد الذي لا يُسمَح له بالاتّساخ، والحركة، والتكلُّم، أو الولد الذي يحقّ له فعل ما يشاء لأنّه كنزٌ وحيدٌ ينبغي، دائماً، إرضاؤه، حرصًا عليه.

الولد الذي والداه من ريش يستطيع أن يصوّب إليهما لكمات كلماته وقبضتيه، أو والداه من خَرسانة يصطدم بها ويُجرح، ولا يتلقّى جوابًا.

الولد الذي لا يدرك سببًا لوجوده ولعيشه... لأنّ والديه لا يدركان ذلك أيضًا.

أو لأنّهما حصلا عليه «خطأ»، وبعد تردّد، قرّرا أن يدعاه يعيش،
أو لأنّهما، ذات يومٍ، اشتهياه،
فالناس يتزوّجون لكي يكون لهم ولد،
ولأنّ هذه هي العادة المألوفة،
ولأنّ الطفل شيءٌ عذب،
فهو يسلّي ويؤنس الوحدة،
ولأنّ بوسعه تدعيم أُسرة مفكّكة،
ولأنّه ضمانة من الشيخوخة والموت في وحدة».

وفيما كان الحكيم مسترسلاً في خطابه، استحوذ عليه الاندفاع، فانتصب واقفًا وأطلق كلماته بقوّة، كما لو كان يبتغي الوصول إلى أخصامٍ بعيدين. وقد اتّقدت في ناظريه شعلة، شعلة الغضب.

وقلت له: «إنّك لشديد القسوة» فتمتم، بعد أن هدأ رَوْعُه بغتةً:

– أُعذرني يا صغيري. صحيحٌ أنّني قاسٍ، ولكنّني لا أُطيق احتمال رؤية الأطفال يحطَّمون. فالطفل شيءٌ فائق الجمال،وفائق العظمة.

أيّها الولد،

يا مجمع دماءٍ، وحياةٍ، وقلوبٍ ممتزجة،

لرجلٍ وامرأةٍ متّحدين، وملتحمين، ومرتبطين إلى الأبد،

في حبّهما المتجسّد.

أيّها الولد،

يا تحفةً منقطعة النظير،

ويا كنزًا لا يثمَّن،

يا نجمًا جديدًا يتألّق في سماء الأرض، وسط مليارات ومليارات النجوم الضروريّة.

«أنت» الشخص الفريد الذي لم يظهر، قطّ، من قبل، ولن يظهر، من بعد، أبدًا.

أيّها الولد

محبوب الإنسان،

والمبارك من الله،

يا رغبة الآب الأَزليّة،

التي تتجسّد، عندما تلتقي، يا للروعة، برغبة الإنسان الحرَّة.

أيّها الولد،

يا ابن الإنسان، وابن الله،

يا عضو جسدٍ لم يكتمل، وهو مشوّهٌ بمعزلٍ عنك.

يا جسد البشريَّة، وجسد المسيح،

الذي منذ فجر الزمن، ينمو في الأرض،

كي يرتقي إلى السماء.

كيف استطاع الله، في جنون حبّه الذي لا يُدرَك،

أن يمنح الإنسان هذا السلطان،

ويضع في جسده النسغ، وفي قلبه الرغبة،

كي يتمكّن، معه، إبداعك، حياةً جديدة،

ونبعًا جديدًا متفجّرًا من أرض البشر،

ومستهلّ نهرٍ جسيم، مدعوٍّ إلى التدفّق حتّى الأَبديّة!

أيّها الأهل، هل كنتم تعلمون؟

عندما اغتنيتم بكلّ ما تلقّيتموه من حياة، حياة أصبحت خاصّتكم، لأنّها حياةٌ موهوبةٌ فلم ترضَوا أن تعيشوا على هذا الكنز المقدّم لكم مجّانًا،

عيشة الطفيليّات،

بل آثرتم أن تقدّموه، بدوركم، مجّانًا،

وعندما نمّاكم الحبّ، فوهبتم آخَرَ جسدكم وروحكم، وتلقَّيتم منه هديّته الفريدة،

وبعد أن نهلتم، ملء أشداقكم، من هذه الحياة المقدّمة،
رفضتم أن تبقى فيما بينكم محفوظةً بحرص.

وعندما ارتعش النسغ وجاش في عروقكم، باحثًا عن طريقه، راغبًا في الزهرة، ومطالبًا بثمرتها،

وعندما خفقت أجسادكم المتهلّلة، وفاضت متعةً في سرير الحياة،
أَشرعت قلوبكم لهذا النسغ، طريق الولد، فسيحًا،

هل كنتم تعلمون، أيّها الوالدون؟

وعندما حقّقتم لأبيكم السماويّ انتظاره المحبّ،
غمركم فرحه اللامحدود.

ولكن لا تنسَوا أبداً، أيُّها الوالدون،
أنّ هذه الحياة، إن أنتم أعطيتموها بصدق،
لن تستطيعوا، أبدًا، أن تطالبوا الولد بها،
فهي من أجله، وهي له،
فحياتكم قد أصبحت حياةً أُخرى، أصبحت هو، إلى الأبد.
وعندما تفرغون من مساعدته على الولادة والنموّ،
سيطير، يومًا، من قلب الأسرة،

مثلما خرج، يومًا، من أحشاء أمّه.

..... وستنزف قلوبكم، مثلما نزف جسده،

ولكنّ *الفرح* يظهر، من جديد، وهو الفرح الوحيد الذي يعود،

– يا لمعجزة نجاح الحبّ –

فرح إعطائه، بدروه، الحياة التي أُعطيها.

* *

واستأنف الحكيم وهو يشيّعني: «أترى، يا صغيري، عندما يظفر بولدٍ والدون متحابّون بصدق، ينعمون بسعادةٍ قصوى ملوَّنة بألوان اللامحدود، فالحبّ هو من الله، والله يترقّب ثمرته. ولكنّ الثمرة، لكي تولد، تمزّق الحبّة، وتُسقِط بتلات الزهرة. إنّ منح الحياة، هو، أيضًا، رضًى بالألم، بارتضاء ***الفرح***.

(٣٢)

لقد بتُّ أُدرك عظمة الولد وجماله، وفي الآن عينه، كنت أَروز مسؤوليّة صانعيه.

لقد أسلفت القول كم كنتُ، في أثناء مراهقتي، مهتمًّا بأصلي، ومتسائلاً هل رُحِّبَ بي بفرحٍ، أو اعتُبرتُ مصدر إزعاج. على أَيَّةِ حال، في ذاك المساء، كنت سعيدًا، معتقدًا أنّني اكتشفت الجوهريّ: ***إنَّ اللّه قد رغب فيّ رغبةً لا محدودة***. ولقد شكرتُه، مرتبكًا، ملتمسًا منه ألاّ يخيّب آمال حبّه اللامحدود.

ورحت، حينئذٍ، أحلم بفتاةٍ ألتقيها، أخيرًا، وبالولد الذي سنصنعه، معًا، وقد رغبنا فيه مثل رغبة اللّه.

هل خَبَرَ الحكيم فرح الأُبوّة هذا؟ كنت أتردّد في استيضاحه عن ذلك. ولكن، أمامه، جاء السؤال غايةً في البساطة، ولم أندم على طرحه.

* *

فقد سألته، بغتةً: يا صديقي، هل رُزِقت أولادًا؟

– من لحمي لم أُرزق أيًّا منهم، ولكن من قلبي رُزقتُ الكثيرين.

– وهل هذا الولد الذي يبدو أنّك تكنّ له حبًّا كبيرًا هو أحد هؤلاء؟

– أجل، هذا هو الولد الممزّق. أحيانًا يلتقي أَباه، وأحيانًا أُمّه، ولكنّه لا يراهما أبدًا معًا. في شغاف قلبه هوّةٌ قاتمة، وجرحه ينزف حبًّا محطّمًا. إنّني أُحاول أن أعوّضه عن الحياة المهدروة، ولكن، في أعماق الولد، يبقى الجرح مُشرعًا، حتّى عندما يكون مخفيًّا.

– إنّك تعزّي الولد...

– لا، بل أُصارحه بالحقيقة: «أنت تتألّم، وستتألّم..ولكن بوسعك إنجاح حياتك، وإنقاذ حبّ والديك إلى الأبد:

أيّها الأولاد المُمزَّقون، أبناء والدَيْن مفترقَيْن،
إنّكم مفترق طرقٍ متباينة الاتّجاهات،
وملتقى قلوب في الليل.
أنتم روابط لا يمكن فكّها،
وأجسادٌ لا يمكن تفريقها.
أنتم أَبوكم وأُمّكم اللذان، فيكم، لا طلاق بينهما،
وحبّهما الباقي، طالما بقيتم أنتم في الوجود؛
أنتم «هما»، مقترنَـيْن إلى الأبد.

أيّها الأولاد المهجورون، المجهولو الوالدين،
أنتم وجوه آباء وأُمّهات، لا وجوه لهم في نظركم،
وزهورٌ جديدة، لم يطلق عليها اسم، وسط مجموعات نباتاتٍ محكمة التنسيق.
إنّكم حيواتٌ متفجّرةٌ من رغباتٍ لا حدود لها،
غير أنّكم، أنتم أيضًا، تحقّقون رغبات اللّه،
وأنتم أبناؤه، أكثر من سواكم،
لأنَّ قلوبكم خاليةٌ ومشرعةٌ لحبّه الأبويّ.

إن شئتم، أيّها الأولاد المهجورون،
سينشئكم الآب، مثل أبنائه المحبوبين،
فقد أفسحتم له فيكم مكانًا رحيبًا،
لا ينازعكم عليه والدون مُدّعون،
يظنّون، غالبًا، أنّهم أَمهر صنعًا من أبي الحياة.

أيّها الأولاد الممزّقون، والأولاد المهجورون،
عيشوا
عيشوا بكلّ أجسادكم، وبكلّ قلوبكم، وإن استطعتم صلّوا هكذا:

ها أنذا أمامك، يا إلهي، أيُّها الأَب الوفيّ،
الغنيّ بحياتي،
وسيّد مستقبلي.
فهذه الحياة لي، بما أنّني أُعطيتها... أو تُرِكت لي.
إنّني *أتقبَّلها*، وأتقبَّل أَلم أغصاني المكسورة،
حتّى ولو جهلت جذور شجرتي.
فشمس حبّك، يا ربّ، تشعّ على الجميع،
وتثقب، بقوّةٍ، أكثف الغيوم،
وستنضج ثماري، إن أنا عشت في وَضَح النهار،
خارج ليالي الضغينة، وظلال الندم.

ساعدني، يا إلهي، كي أحيا، وأُنجح حياتي،
ولكي يحيا، على نحوٍ أفضل، أَبنائي، غدًا.
فإن لم يحببني، حبًّا كاملاً، أبٌ وأمٌّ متّحدان،
غير أنّني قد سبرتُ ضرورة حبّ الوالدين الجسيمة،
بسبري، كلّ يوم، عمق جرحي.

وقد بتّ، اليوم، أعرف كم الألم قاسٍ، وكم هو، أَيضًا، أستاذٌ عالم، لمن يُحسن التعلّم من دروسه التي لا تخطئ.

ساعدني، يا إلهي، كي أَحيا وأُنجح حياتي،
عسى أن يحيا والداي، على نحوٍ أفضل، من أَجلي، وبي،
بما أنّه قيل لي إنّني حبّهما المتجسّد،
حتّى لو إنّ حبّهما لم يكن سوى حبّ لحظةٍ عابرة، حبًّا بائسًا.

ساعدني على النموّ، كي ينموا، هما أيضًا،
وعلى الحبّ، كي يحبّا،
وعلى إعطاء الحياة، لكي تزدهر حياتهما،
وهكذا، معك أيُّها الآب،
على نحوٍ سرّيٍّ، وبصمت،
سأنجب والديّ
وسأهبهما الحياة،

وسأُنشئهما،

وسأنقذها،

بإنقاذ حبّهما

* *

وعاد الولد باحثًا عن حلوى – لقد كان الحكيم محقًّا – ولم يحصل عليها منّي، بل حصل على قبلةٍ، ومضينا، يدًا بيد، نتبادل كلماتنا.

(٣٣)

غريبٌ كم تطوّرتُ!

بادئ الأَمر كنت أَنشد في الفتاة – مخمّنًا بنظرةٍ كنت أظنُّها متبصّرة – نوع المتعة الكفيلة بتوفيرها لي.. ثمّ شرعت ألتمس، أكثر فأكثر، الحنان، مكتشفًا من خلال شخصي النَّهِم الذي تهزّه الرغبات، قلبًا حسّاسًا يخفق، ويتألّم من الوحدة، متسائلاً: «هل سأُحَب؟»

ولكنّني كنت، دائمًا، مرتكزًا على ذاتي، ناشداً سعادتي الذاتيّة، جاهلاً أنّني لن أعثر عليها إلاّ بخروجي من ذاتي، بحثًا عن سعادة الآخرين، وسعادة «أُخرى».

وانتهيت، أخيرًا، إلى اعتبار الفتيات لا كأدوات متعة أو حتّى حنان، ولكن، شيئًا فشيئًا، اعتبرتهنّ كائناتٍ بشريّة، يستحققن أن أسعدهنّ، بسبب بسمتهنّ، وبسبب قلبهنّ، وبسبب كونهنّ ما هنّ. وكنت أستذكر ما قاله لي الحكيم: ***من أجل الحبّ، ينبغي الانتقال من الرغبة في الأخذ، إلى إرادة العطاء والاستقبال.***

ذلك كان الجهد الذي يترتّب عليّ متابعته حتّى آخر الشوط.

لن أفرغ أبدًا من تعلّم الحبّ، كنت أتدرّب عليه، وكانت حياتي كلّها تتبدّل.

كنت سعيدًا، وكان الحكيم يرى سعادتي. وقد بادرني بالقول، لدى دخولي:

– صباح الخير، «أيتّها الحياة».

وابتسم، سعيدًا بفرحي المتجلّي. فقلت:

– أجل، إنّني سعيد بالحياة. وغدًا، مع محبوبتي، سنهب الحياة أطفالاً. وسنقدّمهم لك، وستتبيّن أنّهم حسنو الإبداع!

ما الذي قلته فجعل الحكيم، بغتةً، مقطّبًا؟ كان صامتًا، ولكنّني بتّ أسمع الصمت الذي قد يكون فرِحًا أَو حزينًا. وصمته ذاك كان حزينًا.

وتمتم الحكيم أخيرًا: «وماذا لو لم ترزقا أَطفالاً؟» فأجبت باعتزاز:

– بل سنرزق، و«بأيّ ثمن» . فرجال العلم اليوم يحقّقون المعجزات، وسيحقّقون أعظم منها غدًا.

– لا تتكلّم هكذا، يا صغيري. ***فالولد ليس حقًّا، بل عطيّةٌ:*** إنّه عطيّة الحبّ الذي يلتقي بالحبّ اللانهائيّ، حبّ أبي كلّ حياة.

صحيح أنَّ الناس يكبرون، وأنّهم قادرون على إنجازاتٍ رائعة. وأنا أشاطرهم الاعتزاز ولكنّني، أحيانًا، قلقٌ عليهم..

– وهل يخاف الله من قدرتهم وهو الذي وهبهم إيّاها؟

– من قدرتهم، بالتأكيد لا، ولكن ربّما من الأسلوب الذي يستخدمون به هذه القدرة.

إنَّ أبناء جيلنا قد اكتشفوا سرّ المادّة، وأحكموا سطوتهم على الطاقة الأسطوريّة الكامنة في صلبها. ولكن عندما استخدموها للمرّة الأولى جهارًا، تحت أبصار العالم، قتلوا مئتي ألف إنسان في هيروشيما!

– ولكن عندما يتعلّق الأمر بأطفالٍ يولدون، يخدم العلماء الحياة.

– بشرط ألاّ يُغفلوا، أبدًا، أنّهم ليسوا أسياد هذه الحياة المطلقين. فهذه الحياة ستذبل إِن هم عجنوها في معجن الكبرياء، أو صنعوها تلبيةً لطلبات بشر، وهم قانعون، مثلك، أنّ الحياة حقٌّ لهم، بأيّ ثمن.

* *

وإنّني أسمع خفقان الحياة عبر كثافة الزمن،

سرًّا لا يُسبَر له غور،

ونبعًا مقدّسًا متفجّرًا من قلب الحبّ المضطرم،

أسمعه يتدفَّق، نُسغًا جيّاشًا، في شرايين الإنسانيّة الجسيمة التي لا يحصى لها عدد؛ وأسمعه ينادي، مطالبًا بالبرعم،

ناشدًا قلبَيْن متحابَّين، في جسدَيْن متوافقَيْن،

لكي تولد الزهرة، وثمرة الزهرة،

تحت شمس الله.

* *

أَيُخيَّل لكم، أيّها العلماء الذين يجهلون الحياة،

أنّ بوسع البهلوان الحاذق

إخراج الحياة، صدفةً، من علبة عجائبه؟

ألا فاعلموا أنّ البذار الذي تتداولونه بملاقطكم المعقّمة قد صنعه آلاف البشر بأفراحهم وأحزانهم،

وأنّ الولد الذي سيولد من «تجربة» ناجحة،

لن يكون أبدًا إبداع أيديكم الرائع، فحسب،

فنسيجه الثمين قد حيك منذ قرونٍ وقرون،

على نَـوْل حائكي الحبّ، الطويل.

واعلموا، خاصَّة، أيّها العلماء المزدهون بأنفسهم،

أنّكم، مهما بلغتْ أناملكم من مهارة، ومهما اكتسبت من خبرة،
لن تستطيعوا، أبدًا، صُنع ولد،
ما لم تشاطركم أنامل الخالق في صنعه.
وحينئذٍ، عندما ستؤمنون بذلك، أيّها العلماء، المتعاونون مع اللّٰه، ستركعون، متضرّعين،
وستخدمون الحياة، بتواضع؛
وقد تحتفلون بعيد الميلاد في مغائركم الزجاجيَّة؛
ولكن هل يطلب منكم اللّٰه ذلك؟
وهل سيكون بوسع المرء، يومًا، أن يحبّ حبًّا كافيًا،
بحيث يهب الولد، قبل أن يولد،
كلّ الحبّ الذي يحقّ له، والذي يُطالب به؟
أيّها العلماء، وأنتم أيّها المسؤولون عن البشر،
اسمعوا طفل الغد يُنشد:

منذ الأَزل أنتظر، أنا، رغبة الأَب الحيّة،
أن أمضي في رحلة حجّي الطويلة،
إنّني آتٍ من بعيد، من عالَمٍ آخر،
وأسير على الدرب منذ الأَزل.

* *

إِنّني بحاجةٍ إليكم، يا جميع إخوتي السابقين،
الذين يحفرون سريري في سرير حيواتكم.
وبعد أن أكون قد اجتزت، سحابة قرون، الضفاف المتعاقبة،
وقبل أن أطأ بقدميّ الأرض،
وقبل أن أُطلق صيحة الحياة الأولى،
وقبل أن تلوح بسمتي القشيبة،
وقبل أن أتلعثم بكلماتي الأولى، وبرسالتي الفريدة،
إنّني بحاجةٍ إلى نظرتَيْن مؤتلفتَيْن،
وإلى يدَيْن تبحث إحداهما عن الأُخرى،
وإلى نسمتَيْن تتبادلهما شفتان تلتقيان،
إنّني بحاجةٍ إلى «نَعَمَيْن» معلنَيْن بحرّيّة،
وإلى جسدَيْن حيَّين يقطنهما قلبان،
جسدَيْن وقلبَيْن يُنشدان نشيد حبّ العشّاق.

إنّني أحتاج، كي أُولد، إلى أَبٍ يكون أَبي،
وإلى أمٍّ تكون أُمّي،
أبٍ وأمٍّ يحملانني في قلبيهما،
قبل أن يتسنّى لهما حملي بين ذراعَيْهما.
ولكنّني آبى أن أُولد من بذورٍ منتقاة،

في مختبرات سَحَرة،
حتّى لو تبرّع بتلك البذور محسنون كرماء مجهولون
قدّموا فائضهم.
إنّي بحاجةٍ إلى أن أُصنَع في صيحةِ حبٍّ طويلة،
في موعدٍ موفَّقٍ،
في لقاءٍ مدهش،
مثل جذور سعادةٍ مزروعةٍ في اللحم.

لا أريد أَن أولد في أنابيب
اختباراتكم الخالية من القلب،
من عناقٍ مجمّد، ومن والدين
لا سواعد لهما، ولا شفاه، ولا لحمَ حيًّا.

إنّني بحاجةٍ إلى حشى أُمّي الدافئ، لكي أتكوَّر في الظلّ،
وإلى خفقان قلبها الذي ينظّم وتيرة سفري نحو منفذ المرفأ.
إنّني بحاجةٍ إلى يدَي والدي وشفتيه على جسد أُمّي،
وإلى كلمات حبّه تنهمر على هضابها،
انهمار ندى الليل على البراعم الوليدة.
ولكنّني لست في حاجةٍ إلى بطنٍ مؤجَّر، حيث سأسمع أنغامًا لن أَسمعها في ما بعد،

وإنّني أقلّ حاجةً إلى مجمّدات حزينة، حيث أرتعد من الوحدة
بانتظار دفء حبٍّ جاهز،
تحت عيون لا نظر فيها، عيون مراقبين مأجورين،
لا يدرون ما يفعلون بإخوتي العديدين.

* *

وعندما أنتهي، أخيرًا، إلى نهاية شوط رحلتي،
وأجتاز، منتصرًا، ألفًا بل عشرة آلافٍ من الحواجز،
وعندما أجرؤ على المخاطرة بوضع قدمَيّ على الكوكب القاسي،
وأتجلّى لأنظاركم، تحفةً محكمة النَّسَق، ولكن غير مكتملة،
سأحتاج، كي أغتسل من عَرَق الطريق،
إلى دموع أُمّي التي تبكي فرحًا بي.
وسأحتاج إلى أن أستحمّ بالنور، للمَّرّة الأولى، على شواطئ جسدها،
وإلى اكتشاف ذلك الجسد، الذي لم أعرف منه، حتَّئذٍ، سوى جانبه الليليّ.
ولكنّني آبى أن تكون ولادتي غرقًا
يقذفني، جائعًا، إلى ثديٍ مجهول،
جزيرةٍ تائهةٍ في البحر، لم أتعلّم همس أمواجها.

* *

أيُّها العلماء، لا تهزؤوا من هؤلاء العلماء الآخرين،

الذين سينبشون، في ما بعد، ذاكراتنا المغرقة في القِدم،

تلك المناجم التي لا تنضب، المكتشَفة اليوم، والمتجلِّية لعيونهم المذهولة.

سيجدون فيها آلاف الذكريات المدفونة،

والتي سيتعذَّر عليكم اكتشافها في طرف مجاهركم الطويلة،

فنحن الأطفال نرى، ونسمع، ونحسّ قبل أن نظهر على هذه الأَرض،

وأنتم تنسَون أَنّنا لا ننسى شيئًا.

غدًا، على هذه الذكريات، على هذه الأساسات السرّيّة، سنبني حيواتنا،

وسيتساءل آخرون لِمَ البيت ليس، دائمًا، منيع البنيان،

ولِمَ ينهار، أحيانًا، بفعل عواصف العالَم.

فلئن كنتم، مثل فخّارين مَهَرة، تستطيعون صنع أجسادنا بصلصالٍ مطواع،

إلاّ أنّكم تنسَون أنّ أجسادنا الصغيرة تسكنها قلوب،

ولن تقوَوا على صنع جسد قلوبنا.

* *

أيّها العلماء، إنّني معجبٌ بكم، وعلمكم يروق لي، فأنا إنسان الغد،

ولكنّني، أنا أيضًا، أتوجّس خشيةً من أن يكبر رأسكم بأسرع ممّا يكبر قلبكم،

فأنتم أنفسكم

تحقّقون، اليوم، عملاً رائعًا، في سبيل ولادة حياة،

في حين أنّكم، غدًا، ستنتزعون ألوف الحيوات من بطونٍ ستعدُّونها مفرطةَ الخصب.

وإنّما شكاوانا وبكاؤنا، أنّاتٌ خافتة لا تسمعونها،

فهي أصوات أطفال تغطِّيها صيحات الرجال،

الذين يتظاهرون باعتزازٍ مدافعين عن.... حرّيّاتكم!

نحن الأطفال خائفون

فإلى أيِّ عالمٍ سنأتي؟

* *

أيّها العلماء، ويا جميع المسؤولين عن البشر،

اسمعوني، أيضًا،

فقد قيل: من فم الأَطفال تخرج الحقيقة.

إن كنت طفلاً أَفلَتَ من المجزرة الليليّة،

يمسكه خيط حبّ، مقذوف من جهةٍ مجهولة،

وإن كنت طفلاً وقع من العشّ، وقد هجره أبٌ وأمٌّ طارا بعيدًا، أو قضت عليهما جراح حواجز قفصهما،

وإن كنت طفلاً عاريًا من ثياب الحبّ، أو من ثيابٍ مُعارة،

إلاّ أنّني أمتلك حقّ الحياة بما أنّني حيّ.

وإن كان، في تلك الأَثناء، عشّاقٌ ينتحبون، أمام مهدٍ فارغ،

تلتهمهم رغبة الحنوّ على طفل،

وإن كانوا أغنياء بحبٍّ يعتبرونه غير مُستخدَم،

وإن شاؤوا أن يهبوه مجّانًا،

لكي ينبت ويزدهر ما لم يغرسوه،

إذن، أودّ أن يأتوا، ويسألوني، بصمت،

هل أَنا راغبٌ في تبنّيهم كوالدَيْ قلب.

ولكنّني آبى مهووسي أطفالٍ يحاكون جامعي تحفٍ فنّيّة، يتلهفّون بحثًا عن القطعة النادرة الغائبة من خزائنهم.

لست أريد زبائن وضعوا طلبًا، وسدّدوا الفاتورة، وجاؤوا يطالبون بطفلٍ مسبق الصنع،

فليست مهمّتي إنقاذ والدين، مبتوري الأطراف،

في حين أنّ مهمّتهم، بل مسيرتهم السرّيّة، ومشروعهم الرائع،

إنقاذ أطفالٍ قلبُهُم عليل، أو ربّما، محكومٌ عليه بالموت.

... وسيروّض بعضنا بعضًا...

سأرضع حليبًا، كنت أجهل طعمه،

وسأسمع مقطوعاتٍ موسيقيّةً مجهولة، وسأتلقّن أناشيد جديدة،

وعلى أصابعكم، وعلى شفاهكم، أيّها الوالدون المتبنّون، سأكتشف، ببطء، أبجديّة الحنان،

وعلى ضوء عيونكم سيتّخذ الحبّ المجهول وجهًا يتجلّى لعينيّ.

ستطعّمون بحياتكم غرستي البرّيّة، وبفضلكم سأولد من جديد،
وسأغتني، حينئذٍ، بأربعة والدين،
اثنان منهم من لحمي، واثنان سيكونان والدَيْ قلبي، وجسدي المتنامي.

ولن تدينا الوالدين اللّذين أَنجباني، بل ستكونان لهما شاكرين،
وستساعداني على احترامهما.
فلا بدّ لي من السعي إلى حبّهما في الظلّ،
إِن شئت أن أحبّ، يومًا، ذاتي في وضح النهار.

وإِن اتّفق لي في ليلةٍ عاصفة، أنا المراهق الجامح، المرتبك بنفسه،
أن أنحيت عليكم باللوم المرير لأنّكم استقبلتموني،
فلا تحزنوا، بل أحبّوني أكثر،
فأنتم تعلمون أنّ الطُّعم كي يأخذ مداه، لا بدّ له من جرح،
وعندما يلتئم الجرح، تبقى الندبة.

ولكنّني أَحلم...
أحلم، إذ لستُ سوى طفلٍ مسافر، بعيدًا عن الأرض الصلبة،
كلامي صامت، ونشيدي بلا موسيقى،
وما أهمسه بصوتٍ خافت، لا قِبَل لي على الجهر به،
إلاّ يوم ستتبنّونني أنتم،

وتلقون في قلبي دفقًا من الحبّ، والحرّيّة الأَصيلة،
وعلى شفتيّ طائفةً من الأَلفاظ
تمكّنني من القول: بابا، ماما، إنّني أختاركما وأتبنّاكما.

....وحينئذٍ ستعلمون أن حبّكم عطيّة، وأنّه موفَّق.

(٣٤)

في صمتٍ مطبق، أَنصتُّ إلى نشيد الطفل المقبل على الحياة، وبتّ أسمع أكثر فأكثر، في الليل، نداءه، وأحيانًا أنّاته، وغدوت، أنا أيضًا، أثور حيال الولد الممزّق، المدمّر، وأفكّر، لدى سماعي رجالاً كهولاً يدينون الشبّان بقسوة، أنَّ هؤلاء الشبّان إنّما هم صنع أيديهم، وأنّهم، بإدانتهم، إنّما يدينون أنفسهم.

ولكن ما الذي سأفعله، أنا، غدًا؟

في الواقع، كان ينتابني الشعور بأنَّ الوقت بات وشيكًا كي أُقابل فتاة، فيتعرَّف أحدنا الآخر، ونبني، معًا، أسرة.

لِمَ؟ لا أَستطيع أن أُجيب بدقَّة، ولكنَّني أتخيَّل أنَّه عندما يتدرَّب موسيقيّان كلٌّ من جهته، على مقطوعة، تدريبًا طويلاً، فسيأتي يومٌ يدركان أنَّهما باتا جاهزين لأَدائها، ثنائيًّا، أمام الجميع.

أمام الجميع؟ ذلك هو السؤال الذي يجول بخاطري، والذي طالما ناقشت فيه أصدقائي. فهل يستلزم بناء أُسرةٍ التصريح بذلك أمام العُمدة، والقيام بمعاملاتٍ طويلةٍ، وتوقيع أوراق؟

ثمَّةَ قيود القوانين، وأشدُّ منها ما أعتبره عاداتٍ عتيقة. وليس من المعقول أن أنعتق منها، فمن شأن ذلك تعريضي لمعركةٍ عائليّةٍ طويلةٍ ما كنت متجاسرًا على خوضها، إذ لم تكن تستأهل الرهان عليها.

ومع ذلك كنت أَرى أنّ تلك التقاليد باتت بالية، معتقدًا أنَّ الحبّ بين كائنين إنّما هو قضيَّةٌ شخصيَّة، وأنَّ التزامهما المتبادل لا يخصّ سواهما.

أمّا الزواج الدينيّ فقد أمسيت متشبّثًا به بحزم، مع اعترافي بجهلي لمعناه العميق.

* *

وقال لي الحكيم: «ليس العشّاق وحيدين في العالم، ولو هم شاؤوا ذلك».

فإذا شئتم، أيّها الرجال والنساء المقترنون، أن تعيشوا وحيدين، مدارين حبّكم القشيب بسياجٍ محميّ،

وإن شئتم أن تسيروا، يدًا بيد، على دربٍ خاصّ، متنكّبين عن الدروب التي ينتهجها إخوتكم، وإن شئتم، وقد تحرّرتم من كلّ القيود، أن تجتازوا الطريق عند الضوء الأحمر، والتوقُّف عند الإشارة الضوئية الخضراء، وأن تتناولوا طعامكم عندما ينام الآخرون، وأن تناموا عندما يتناول الآخرون طعامهم،

إن شئتم أن تبنوا، بمفردكم، منزل أحلامكم، وتثقيف أبنائكم فيه، بعيدًا عن المدارس، وإن شئتم أن تعجنوا خبزكم، وتنسجوا ثيابكم، وتضيئوا سهراتكم، وتدفئوا شتاءكم، بأنفسكم.....

فأنتم أحرار،

ولكن، والحالة هذه، امضوا، سيروا، اركضوا، نحو صحراء،

.... وموتوا في جحر،

وحيدين مع حبّكم.

ولكن، إن ابتغيتم اجتياز دربكم، يدًا بيد، مختارينه من الدروب التي رسمها آخرون، وإن شئتم السكَن في البيت الذي أشاده آخرون،

والعيش فيه بسلام، يحميكم رجالٌ ساهرون، وإن ارتضيتم أن تأكلوا، معًا، الخبز الذي أنضجه آخرون، فيما كنتم مستسلمين للنوم،

وإن أردتم لأبنائكم المدرسة والمعلّمين والكتب،

ولسواعدكم العمل، والراتب المُستَحَقّ،

وإن شئتم أن يتّحد إخوتكم، ويتضامنوا، ويتنظَّموا، من أجل حماية صحَّتكم وعلاج مرضكم، بحيث تستطيعون تنشئة أولادكم الذين أردتموهم، وقضاء سنواتكم الأخيرة بسلام؛

وإن ابتغيتم قوانين تصون هذه «الحقوق» وقومًا يشرّعونها، وآخرين للتصويت عليها وإقرارها، وإن رغبتم في أن تظلّ هذه القوانين مصانةً أبدًا،

وإن أبيتم أن تكونوا مستغِلّين بشعين، يقتضون الكثير من الآخرين الذين يتجاهلونهم، حينئذٍ، التزموا حيال مجتمعٍ يلتزم حيالكم،

وستدوّن أسماؤكم على لائحة متطوّعي الحبّ،

وستوقّعون على «نَعمكم» وانضوائكم العَلَنيّ تحت لواء مجتمع بشرٍ يبنون العالم.

وهممت بالتكلّم، ولكنّ الحكيم أضاف:

لا يعيش عضوٌ في الجسد إلاّ مرتبطًا بسائر الأعضاء،

وعندما يتضافر ساعدان على حمل أسًى ثقيل، أو سعادةٍ منتصرة،

تتألّم أو تبتهج جميع الأَعضاء، وتسهم في حملها معها.

على هذا النحو لا يستطيع رجلٌ وامرأة أن يتعاهدا مدى الحياة،

ما لم ترتعش، فرحًا خفيًّا، البشريّة جمعاء،

فالحبّ هو دم جسدها الذي لا يقوى على النموّ، بمعزلٍ عنه.

... بسبب هذه المسؤوليّة، على نحوٍ خاصٍّ، ينبغي أن يلتزم – ***أمام الجميع*** – من يقرّرون، باختيارهم، تأسيس أُسرةٍ؛ وإنَّ ذويهم، وأصدقاءَهم، وجميع البشر، مسؤولون، معًا، عن نجاحهم.

– ألهذا السبب، أيضًا، يا صديقي، يلتزم المؤمنون أَمام اللّه، في الكنيسة؟

– من أَجل هذا، ولأَسبابٍ أُخرى كثيرة.

– قلْ لي، أَرجوك، علامَ هذا المسلك، وعلامَ هذا السرّ الذي سأَتلقّاه، يومًا، مع محبوبتي؟

– إنَّ سرّ الزواج، يا صديقي، سرٌّ من العظمة بحيث يتعيّن التحدّث عنه بألفاظٍ مصاغةٍ بمهارة، من الذهب الخالص؛ وأنا لست أملك سوى كلمات، أنا الذي لم أعرف عيش هذا السرّ في النور، وأجهد، اليوم، أن أعيش منه في الليل.

– ومع ذلك تكلّم، يا صديقي، فإنّني في حاجةٍ إلى المعرفة لكي أَستعدّ.

* *

«أنصت، يا صغيري.

إنَّ اللّه الذي، منذ الأزل، يحبّ البشر بصمت،

اختار، ذات يومٍ، شعبًا ليعلن له عن حبّه.

ولكنّ ذلك الشعب القاسي القلب، الخطيب المتقلّب المشاعر،

خان، ألف مرَّة، الحبّ الذي كان يناديه...

وألف مرَّة غفر له الله - الحبُّ الوفيّ.

وحينئذٍ اختار الله عذراء، مباركةً بين النساء،
كي يهمس لها أسرار الحبّ.
وضربت الكلمةُ، التي طالما تأمّلتها في قلبها المُشرَّع،
جذورًا في جسدها، تحت ظلّ الروح.
..... وبواسطة مريم، اقترن الله بالبشريَّة، من خلال يسوع.
وكان قرانًا موفّقًا،
نَعَمًا كاملاً للعهد الجديد، المختوم إلى الأَبد.

* *

وأَمسى الله فيما بيننا، واحدًا منّا، أخًا لنا،
قلب الله، جسد الله،
المقدّمين في يسوع، باسط الذراعين، وقد أَسلمته الخيانة للصّلب.
قلب الله، وجسد الله، الحيَّيْن متخطّيَيْن الموت،
رفيقي البشر الدائمين، رفيقي شعبٍ يسير،
قلب الله، وجسد الله،
اللّذين يقتسمهما من يقولون «نَعَم» لنَعَمه الذي يدعو.

في نَعَم هذا العهد الجديد، نَعَمٍ أكبر من الأَرض المستديرة،
وأرحب من شواطئ الزمن،

يلتقي الأزواج، زوجًا زوجًا، وهم يُنشدون،

منذ أن همس الرجال الأوّلون، والنساء الأوليات إعلان حبّهم، في لغاتٍ عديدة،

وما انفكّ موكب عرسهم المتمادي يجتاز التاريخ.

وفي هذا الموكب الطويل يمرّ الطريق الذي تسير عليه مجموعة المؤمنين المتماسكين، عبر كنيسة يسوع المسيح،

لكي تُعلَن، وسط الجماعة، الكلمات الملتهبة التي بها تلتزم المصائر.

**

إنّنا نعلم ونعترف، يا أللّه، أنّك حاضرٌ في حبّنا،

وأنّنا منك نتلقّى هذه العطيّة الجسيمة،

الهديّة التي باتت لنا، ونقدّمها لك.

إنّنا نأتي إليك، يا ربّ، لنحتفل بهذا الحبّ ونتبادل الإعلان عنه،

وعندما نلفظ نَعَمنا للأبد، نسمع نعَمَك،

فلقاءَ التزامنا الحرّ، تلتزم أنت معنا.

ونؤمن أنّ هذا الالتزام المزدوج هو سرُّ حبٍّ،

ممنوحٍ لنا، ومتقبَّلٍ منّا،

لكي ينعقد عهدُنا، في عهدك مع البشريّة.

ونؤمن، يا يسوع، أنّك مُرسل الآب، كي تعلن للبشر
لا نهائيّة الحبّ الثالوثيّ،
وتقدّم لهم، أخيرًا، وجهًا يتأمّلونه،
وأفعالاً وأقوالاً تُشبع جوعهم، وتُروي عطشهم.

ونؤمن أنّنا، بفضل السرّ، نحن، أيضًا، مُرسلون أحدُنا للآخر،
لكي نرسم لعيوننا الدهشة صورةً مرتجفةً لهذا الحبّ المعلن،
ونتبادل، في أفعالنا اليوميّة، بعضَ فُتاتٍ مغذٍّ من ذلك الحبّ الموزَّع.

ونؤمن أنّك أبرمت عهدًا مع شعبك، كنيستك الحبيبة،
وأنّك وفيّ، أبدًا، لعهدك،
ونؤمن أنّ «نَعَمنا» الذي نجدّده كلّ يوم،
سيكون لإخوتنا، شهادةً حسّيّةً *لنَعَمك* السامي.

ونؤمن أنّك اقترنت بالبشريّة جمعاء، عندما وهبتها جسدك،
لكي تكون معها «جسدًا واحدًا».
ونؤمن أنّنا، نحن أيضًا، ما دمنا أنقياء، ومنزّهين من الأنانيّة،
مقدّمين ذواتنا أحدنا للآخر بفرح،
أجسادًا متّحدة في مشاركةٍ علنيّة،
سنرسّخ حبّك في جسد العالم.

نؤمن أنّك تُنقذ مشاعر حبّنا التي غالبًا ما تتعثّر وتكبو،

محرّرًا إيّاها من غبار الطريق ووحله،

وحاملاً إيّاها في قلبك، عند قمّة الصليب الشامخ،

منتزعًا إيّاها من براثن الموت، لكي تجعلها تزدهر حتّى سماء أبيك،

ونؤمن أنّنا، نحن أيضًا، عندما نكافح لكي يحبّ أحدنا الآخر، كلّ يومٍ أكثر، منتصرين، بعونك، على الصلبان المنتصبة على دروبنا،

سنضفي على حبّنا بعدًا أبديًّا.

* *

كنت هامًّا بالاعتراف للحكيم أنَّ بعض أقواله هذه مستغلقة على فهمي، عندما عاد فقال:

– ما هذه الأقوال سوى لعثمات، إذ يتعذّر حصر اللامحدود في كلمات، وحياتنا الملوّنة، وا أسفاه! برماد أيّامنا، ليست سوى انعكاسٍ باهتٍ للنور الذي يبهرنا.

قد تتألّم يومًا – ولطالما تألّمتُ أنا –من تلك الهوّة المهينة بين ما نعيشه وما يتوجّب علينا أن نعيشه؛ ولكن، أرجوك، لا تُقلع، أبدًا، عن التأمّل في أعماق سرّ الحبّ.

ولا يغربنّ عن بالك، أنّكما لن تكونا، أبدًا، وحيدين، محبوبتك وأنت، إن أنتما وطّدتما العزم على دعوة يسوع إلى العيش في قلب أسرتكما، وإن اتّحدتما بجميع الذين يجهدون في «تجسيد» الحبّ، في هذا العالم الذي ينتظر.

هيّا، يا صغيري:

إنّ هشيمًا ملتهبًا في الموقد لا يقوم مقام نار حطب،

فالأغصان المضطرمة، جميعها معًا، هي التي تصنع الدفء والنور،
وقد ينطفئ بعضها في حين يشتعل سواها،
ويمتزج الرماد بجمر الموقد.
هكذا حياتنا مزيج لهب ورماد،
ولكنَّ النار لا تموت أبدًا
فنحن نحترق معًا،
والحبّ المولع في قلب يسوع المسيح المضطرم
لن ينطفئ أَبدًا.

(٣٥)

رغم أقوال الحكيم المسكّنة، قلت لنفسي: «إنَّ هذا أجمل ممّا يسعني استيعابه»! كنت أحاكي هاويًا يحلم برسم لوحة أو نحت تمثال، ويحدّق إلى تحفةٍ فنّيّة، فلا يرى منها، بادئ الأمر، سوى ألوانٍ مبتذلة، وأشكالٍ شائعة تكرَّرت ألف مرَّة. ولكن عندما يأتي الفنّان فيوضح له تفاصيل عمله، ويساعده، شيئًا فشيئًا، على اكتشاف جمالها العميق، وعندما يرتدي كلّ لونٍ، وكلّ شكلٍ، معنًى، وتنبعث الحياة في مجموع التحفة، التي تصبح نشيد الوجود، حينئذٍ تتبدَّد الأوهام، وتشلّ ذراعا المبتدئ، فالفكر يهمس في القلب النادم: ليس مثل هذا العمل من شأني.

هكذا كان الحكيم قد ساعدني على اكتشاف أبعاد الحبّ الحقيقيّة، ومرّاتٍ عديدة، كنت قد استأهلت لومه بقولي: هذا عسيرٌ جدًّا، فأنت تصف لي قِمَمًا لا أقوى على بلوغها.

واليوم، أيضًا، أَظهر لي تأمّلي في سرّ الزواج أنّ فكرة عيش الحبّ الزوجيّ مع يسوع المسيح مسؤوليّةٌ تتجاوزني، أكثر ممّا هي رفقةٌ تقوّيني.

كان، ثمَّة، مظهرٌ آخر يثبّط عزيمتي، لا بل يثير حنقي وثورتي. فقد كنت أسمع، من حولي، من يوصفون باستقامة الرأي، يؤكّدون أنّ فعل هذا أوذاك في مجال الحبّ، عملٌ سيّئ بل موغلٌ في السوء. وكان رجال الكنيسة، من جانبهم، يكدّسون على دربنا محظورًا فوق محظور، في حين كانت الإذاعات والصحف، النَّهمة إلى المؤثّرات، تدوّي بأصداء أحكامها المبرمة.

وبالإجمال كان يبدو لي الحبّ حقلاً ملغومًا لا يستطيع اجتيازه، في مأمنٍ من خطر الهلاك، سوى قلّةٍ من الناس.

وكان الرفاق المحيقون بي يبتسمون، ويضحكون أو يسخرون، وكثيرون منهم كانوا يواصلون سيرهم، غير مبالين بأقوال الإخوة الوعّاظ.

لحسن طالعي لم يكن صديقي واعظًا على غرارهم. ولذلك كنت أُصغي إليه. ولكنّ أقواله كانت تضايقني أكثر كثيرًا من جميع المحظورات التي تدوّي في أُذُنيّ الشاردتَيْن.

أقواله هو، لم يكن بوسعي أن أسخر منها.... وكنت أنا من قرّر أنَّ على حياتي أن تتحوّل.

يخجلني القول أنّني كنت، أحيانًا، أستخلص أنّني ربّما كنت أكثر اطمئنانًا لو لم أعلم منه شيئًا... مع ذلك ما انفككت استوضح صديقي.

* *

عندما دخلت بيته، يومها، كانت فتاةٌ تخرج منه، وقدّمها لي بقوله: «إنّها ممرّضتي». ولم أَرمقها إلاّ بنظرةٍ خاطفة، فقد استحوذ عليّ قلقٌ مفاجئ. أَيعاني صديقي علّةً خطيرة؟ وبادر إلى طمأنتي، ولكنّني، وأنا أشدّ على يده، تبيَّنت أنّه كان محمومًا، وهممت بالانسحاب.

غير أنّه قال:

– أمكث. فما زال علينا أن نتحدّث.

وأضاف، في شيءٍ من الخبث العذب:

– لا بدّ من بعث الطمأنينة في نفسك.

بتُّ لا أدهش من معرفته مشاعري قبل أن أعرضها. لا بل كان ذلك يُدخل إلى قلبي بعض البهجة، ليقيني بأنّه لا بدّ للصديق من حبٍّ جمّ كي يخمّن دخيلة صديقه على هذا النحو.

وتخشّع صديقي وقال:

* *

الحبّ هو قمّةٌ سامقةٌ إلى أجواز السماء،
وهذه السماء هي أُسرة *الله*: آب، وابن وروح،
حبٌّ واحد لا نهائيّ.
ولن يقوى الإنسان على الحبّ، على غرار حبّ *الله*،
إلاّ يوم يتّحد اتّحادًا كاملاً بإخوته، في أخيهم يسوع المسيح،
ويقود يسوع موكبهم، ويُجلسهم على مائدة الحبّ، في العرس الأبديّ.

بيد أنّ طريق الأزواج إلى القمّة متعرّج،
يدور ويدور على أرض البشر،
ويصعد، ويهبط، ثمّ يعود فيهبط من جديد،
ويتيه أحيانًا في دروب الحلم التي تتحطّم على جدار الصخور.

لا قِبَل لإنسانٍ على الارتقاء، دفعةً واحدةً، مثل سهمٍ تنقضّ مباشرةً على الهدف، فالإنسان لا يقوى على الطيران وإن هو سوى مبتدئٍ لا يعرف السير.

إنّهُ يتلقّن خطوات الحبّ، على الدروب اليوميّة...
غالبًا ما ينسى الأزواج الجامحون الذين بهرتهم السعادة،
أنَّ بين السهل والقمّة بونًا شاسعًا.

على هذا الدرب الطويل، عندما يبحث العشّاق النَهِمون، متعثّرين،
عن طقوس الحبّ والكلمات التي تغذّيه،

غالبًا ما تركم الأنانيّة، في قلبهم الضنك، وجسدهم الثقيل، أكداس الأخطاء الجسيمة.

وهكذا بعض قصص الحبّ التي انتشرت الأخطاء بين سطورها، لا تفقد شيئًا من ثمنها في عينَي يسوع المسيح،

طالما حاول السائرون على الدرب بتواضعٍ وأمانة،
تعلُّم أصول الكتابة منه.

ولكنْ، إِن مضى الدليل يردّد، بُغيةَ التشجيع،
أنّ نقطة الانطلاق ليست نقطة الوصول،
سيكون دليلاً سيِّئًا ما لم يذكّر أيضًا، وفي آنٍ واحد،
أنّ بين التلال الصغيرة العديدة، تلّةً واحدةً هي القمّة.

وسيكون دليلاً سيِّئًا، أيضًا، إن هو أخفى عن المتسلّقين المنتظمين بحبلٍ يمسكهم معًا امتداد التصعيد، وقسوة الصخر،

ومخاطر التعثّر، والكبوات المحتملة،
واقتصر على الإشادة بروعة المشاهد، ونقاء القمم،
ودفء الشمس، والزهور المقطوفة.

بعض الأزواج يتنكّبون عن الأدلاّء الخبيرين،
ويظلّون وحيدين، خارج الدروب المرسومة،

ويصرّحون، ضاحكين، أنّهم تحرّروا من قواعد الأخلاق الضاغطة،
ومن قيود المحرَّمات،

وأنّهم من الرشد بحيث يستطيعون تقرير أَين يقع الشمال، وأين يقع الجنوب، وأنّهم من المنعة بحيث يستطيعون السير بلا ماءٍ وخبز، إن هم ضلّوا السراط؛ فيبحرون، بلا خريطة ولا بوصلة، موقنين أنّ «الغريزة» فيهم دليلٌ أجدر بالثقة من القوانين الحزينة، والإنذارات الصارمة.

حمقى، هم!

فمن يقوى على بلوغ القمّة إِن لم يعرف الطريق، والممرّات الخطرة، والوهاد، والحفر؟

ومن يقوى على السير مغمض العينين، فلا يطالع تعليمات صُوى الطريق،
وإشارات المنعطفات الخطرة، والحواجز المتعدّدة،
وحدود السرعة... والمعابر المحظورة؟
ومن يستطيع إغفال نصائح من يعرفون الطريق،
ويمتلكون للمسيرة مخطّطًا مفصَّلاً؟

حمقى، هم!

فهل بمكنة الرياضيّ أن يُصبح بطلاً إن هو رفض قوانين رياضته الدقيقة،
وتعليمات مدرّبه الواضحة؟

وهل تولد الموسيقى من آلاتٍ تتمرّد على قوانين الإيقاع،
ومن موسيقيّين يرفضون لجوقتهم قائدًا؟

وهل تنمو الشجرة، إن لم تُغرس في التربة الملائمة،

أو إن هي غرست في الظلّ أو في الشمس، وأُشبعت ماءً أو فُطمت قبل الأوان، وإن لم تدعّم، وتُشذَّب، بانتظام؟

* *

– هكذا، يا صغيري، للحبّ شرائعه وقوانينه، ومن ابتغى الحبّ لا يقوى على تجاوزها، وإلاّ رأى حبّه يذبل ويموت.

– ولكنْ ليس الحبّ قانونًا يطبَّق، ولا شرائع تحترم. فكلّ ما سبق أن قلته لي يعارض ذلك.

– أنت على صواب. فالحبّ ليس اتّباع قانون، ***بل اتّباع كائن***: يسوع المسيح، ذاك الذي قال عنه يوحنّا ***إنّه الحبّ***.

وما الشرائع والقوانين والنصائح الأَخلاقيَّة سوى معايير وإرشادات تتيح اللقاء والمرافقة، ولا بدّ من احترامها، ضمانًا من الضلال. ولكن ينبغي ألاّ ننسى أبدًا أنّ ***الدليل الحقّ هو يسوع***، «الراعي» كما دعا نفسه، القادم إلى السهل بحثاً عن المتطوّعين، كي يلمّ شملهم ويقتادهم إلى قمّة الجبل.

إِنّه يسير ***مع الجميع***، يقظًا، منفتحًا،

ويتعرّفه بعضهم، ويتجاهله آخرون.

إنّهم لسعداء، بل ألف مرّة سعداء، أولئك الذين يكتشفون هويّته، ويدعونه، ويتبعونه، منصتين إلى كلمته.

– ولكنّه لم يعد يتكلّم!

– بل يتكلّم بألفاظٍ من صمتٍ لا يسمعها إلاّ القلب. يتكلّم بواسطة مسؤولي جماعته، الكنيسة، ولكنّه تكلّم، سابقًا، بكلماتٍ بشريّةٍ حقَّةٍ،

كلماتنا، وهذه الكلمات التي التقطت، وأشبعها تأمّلاً رفاقه الأوائل الملتئمون في جماعات، قد سُجّلت، وهي، اليوم، «الكتاب». فإن شئت أن تتعلّم ما هو الحبّ، وكيف ينبغي الحبّ، فعليك مطالعة الكتاب، وتأمّل حبّ يسوع الذي قال لنا إنّ علينا أن نحبّ «***مثلما هو أحبّنا***».

* *

فقلت:

– وكيف يتكلّم رجال الكنيسة؟

– لقد شاء يسوع مسؤولين عن جماعة المؤمنين، ووعد أن يساندهم بروحه. وهم يقرؤون كلمته، ويقرؤون، أيضًا، الحياة، حياة اليوم بعد حياة الأمس، ويعلنون: الحبّ، في هذا الظرف المعيّن، يقتضي السلوك على هذا النحو. أو إنّهم يقولون إنّ السلوك على هذا النحو أو ذاك يناقض الحبّ مثلما اقتضاه يسوع..

– يقولون، خاصّة، إنّ هذه «خطايا».

– وهذا صحيح. فالخطيئة هي، دائمًا، إساءة الحبّ، أو الإعراض عن الحبّ. فيسوع قد ترك لنا وصيّةً وحيدةً تختزل جميع الأُخريات: ***الحبّ***، حبّ الله وحبّ **جميع** إخوتنا.

– ولكن هناك أنماط من الحبّ محظورة!

– كلاّ

واستغلق عليّ الأمر، فقد سمعت أنّ يسوع أعلن يومًا أنّ من يشتهي، في قلبه، امرأةً غير امرأته يرتكب خطيئةً كبرى.

– إشتهاؤها ورغبة امتلاكها أجل هذه خطيئة، ***ولكنّ ذلك ليس حبًّا***

ولكن من يستطيع لوم اشتهائها إن هي كانت تثير الإعجاب؟

علينا، غالبًا، أن نطهّر رغباتنا، ونكافح، طويلاً، لكيلا نستولي على ما ليس مُقدَّماً، وخاصَّةً ما ليس خاصَّتنا. وعلينا، أحيانًا، أن نصارع ذواتنا لكيلا نتقبّل من الآخر ما لا قِبلَ له على منحه. وهذه الصراعات وهذا الكفاح هي دليل حبّ. حتّى لو أدّى بنا ضعفنا إلى السقوط... ***من غير أن يحملنا على العزوف عن مواصلة الكفاح بلا انقطاع.***

وهكذا، يا صغيري يعيش بعض الناس الحبّ أحيانًا على الدروب المحرّمة، أكثر ممّا يعيشه آخرون على الدروب المحلّلة.

– كلّ شيءٍ، إذن، يعتمد على قلبنا.

– أجل، إن أصغينا، فيه، بإخلاص، إلى صوت اللّه الذي يتكلّم في صمت.

.... أتعلم أنَّ يسوع قال يومًا لرجال يطبّقون، بحرصٍ وشدّة، القوانين والشرائع، إنَّ بعضًا من البغايا سيسبقنَهم إلى ملكوت السماوات؟ فالحدود مرسومة بوضوحٍ على طريق الحبّ، غير أنّ الجسد ينهج، أحيانًا، دربًا لا يرضاه القلب. ووحده الإنسان الحيّ يعلم ما يحيا في قلبه، ولا أحد سوى اللّه يستطيع قياس قوّة الحبّ التي تجعله يخفُق، لدى كلّ خطوة.

وأدركت أنّ الذين يعرفون طريق الحبّ عليهم إرشاد الآخرين إليه، بوضوحٍ وحزم.

ولكنّني كنت أعتقد أنّ عليهم، أيضًا، أن يحسنوا الاستماع إلى الذين ينتهجونه، فالقول شيءٌ، والحياة شيءٌ آخر.

وإذ كنت أهمّ بالوقوف كي أودّع الحكيم، لم أتمالك نفسي من القول:

– لو أنَّ رجال الاكليروس، غير المتزوّجين، كانوا أكثر إنصاتًا إلى الأزواج لربّما تحدّثوا عن الحبّ بطريقةٍ مختلفةٍ عن تلك التي يتحدّثون بها.

– أعتقد ذلك. فقد يكون بوسعهم أن يقولوا الأشياء نفسها، ولكن بكلمات أُخرى تنطوي على مزيدٍ من التشجيع. فهم يرشدوننا إلى الهدف، ولكن نحن ***نعيش المراحل***، بمشقَّةٍ، أحيانًا.

أعتقد، بكلّ قواي، أنّ روح يسوع يواكب المسؤولين، وأنّ عليهم أن يتكلّموا؛ وأعتقد، أيضًا، أنّ الروح يواكب ممارسي الحبّ العديدين الذين يجهدون في سبيل عيش حياتهم الزوجيّة على ضوء الكلمة. ولهم كلمتهم التي تكمّل الجملة. فقراءة الكلمة في الكتاب، من غير الإنصات إليها إنصاتًا كافيًا وهي تهمس في صميم الحياة، تبدو لي وكأنّها قراءة صفحةٍ من إنجيل يسوع وإغفال الصفحة التالية.

* *

لم ينتهِ الأمر، وكنت أَشعر أنّ الحكيم ما زال راغبًا في المزيد من الحديث. ولكنّه كان يتردّد. أكان مردّ ذلك التعب مكوثي الطويل معه، يومئذٍ، في حين كان هو يعاني السقم؟

أو ربّما غشته ذكرياتٌ أليمة، ممّا أضفى على محيّاه، بغتةً، مظهرًا جادًّا، صارمًا؟

وتمتم أخيرًا، متوقّفًا، باطّراد:

– ثمّة وضعان، متعدّدا الوجوه، يتعيّن حيالهما على من يعرفون بعقولهم، ولا يعرفون بأجسادهم وقلوبهم، أن يتكلّموا بكثيرٍ من الرقّة والرأفة... أو ربّما يتعيّن عليهم أن يصمتوا.

ذانك الوضعان هما الألم والحبّ عندما ينقلبان «هوًى»

... فكيف يمكن للواقف أمام عليلٍ مثبَّتٍ على فراش علّته يغمره الألم، وقد عجز عن الصلاة، ولم يعد بوسعه إلاّ الجأر بألمه، أن يقول، بألفاظٍ جميلةٍ، كيف «ينبغي» عيش هذا الألم الهاصر؟...

وكيف لمن يجهل حرارة الجسد المعانَق برقَّة، وخفقان قلبٍ جامحٍ مجنون، أن يعلن لرجلٍ متهاوٍ، ملتهب القلب والجسد، عن القواعد الحكيمة الكفيلة بإطفاء الحريق، فيما الهوى يلتهم الإنسان بأكمله.

... إنَّ مريم، عند أقدام الصليب، كانت صامتة.

ويسوع نفسه، أمام المرأة الخاطئة، صمت.

... ولكنّني أعتقد أنّهما كانا يصلّيان.

* *

وفيما كنت خارجًا شرعت أفكّر أنّ الحكيم لا بدّ قد تألّم كثيرًا من الكلمات الجميلة التي نُثِرت على جروحه النازفة.

(٣٦)

كنت قد اكتشفت للحكيم وجهًا قشيبًا. فذاك الذي كان يبدو لي قاسيًا ومتشدّدًا في الذود عن نقاء الحبّ، قد تكشّف لي، خلال لقائنا الأخير، رائع الرأفة بمصاعب المحبّين المتعدّدة. وقد أسال ذلك في قلبي عزاءً جمًّا. الحبّ، إذن، هو المثابرة، مدى الحياة، على محاولة الحبّ، وتكرار أَلف أَلف مرَّة «النَعَم» الذي خلتُه وحيدًا.

لم أكن أُدرك دائمًا، في الحال، فكرة صديقي؛ وكنت أُسجّل أقواله، وأعيد قراءتها، مثل ثمارٍ مقدَّمةٍ ينبغي تقشيرها بعناية قبل استهلاكها. غير أنَّ بعض عباراته كانت تمسّني مباشرةً. كانت تجتاز باب قلبي ولا تمرّ عبر رأسي، وكنت أقول في نفسي:

هذه قد صيغت من أجلي، منذ عهدٍ بعيد.

كان الحكيم قد قال: «يسلك الجسد أحيانًا دربًا يأباه القلب». وكانت هذه الجملة قد أصابتني مثل سهم، فقد كانت موجّهةً إليّ. ولم أكن، بعد، سيّد جسدي.

منذ زمن، كان هذا الجسد يضايقني. فباكرًا، مثل جميع الأولاد، قد شرعت أكتشفه وأروده، وأُحبّه؛ وللأسف، حذّروني منه، وكان الأحرى بهم أن يقولوا لي إنّه صديقي. فكيف يسعني أن أَتعايش معه؟

في ما بعد، أردته منيعًا وقويًّا، وكان يؤلمني ألاّ يكون في مثل مناعة هذا أو ذاك من رفاقي الذين كانوا، أبدًا، يتغلّبون، في مختلف المعارك التي كنّا نخوضها.

وفي ما بعد، أيضًا، أمسيت أحسد بعضًا من أصدقائي الذين أجدهم أكثر منّي وسامةً، ومن ثمّ، أشدّ جاذبيّة. فعليهم كانت تحطّ أنظار الفتيات قبل سواهم. ومع تظاهري باللامبالاة، كان لا بدّ لي من استخدام حِيَلٍ عديدةٍ للتعويض عن عاقتي، وكنت أُفلح في ذلك، غير أنّني، في سريرتي، كنت أشعر بالمهانة.

وسرعان ما خبرت أنّ جسدي الذي كان لي مبعث ضيق، وأحيانًا مبعث أَلم، كان قادرًا، أيضًا، على أن يوفّر لي بعض مُتَع. فقد كان يلبّي مطلبي، ويوفّر لي ملذّاتٍ رائعة، ولكن، وا أسفاه! عابرة؛ وكان عليّ تكرارها، ولكنّني كلّما كرّرتها، كانت شهواتي تنبعث، من جديد، أشدّ عنادًا وطغيانًا.

وغدا لي لقاء الفتيات، بعد أن كان فضولاً نَهِمًا، هاجسًا مسيطرًا؛ وغدت المتعة التي كنّا نتبادلها، حاجةً، وبات إرضاؤها مبرّر حياة. ولم يدهشني ذلك، فالرفاق الذين كنت أخالطهم كانوا يشعرون بنفس الرغبات، ويخوضون مغامرات مماثلة. وكنّا نتبادل الروايات حولها، وكانت رواياتنا ماجنة. وكان يبدو كلّ ذلك لنا «حبًّا».

وبتوالي لقاءاتي مع الحكيم، سرعان ما استقرّ فيّ ضيقٌ يصعب وصفه، فقد اعتراني الاضطراب والقلق، وأحيانًا اشمئزازٌ مُبهَم، وأخذتُ أتبيّن أنّي قد كسوت بالقذارة شيئًا جميلاً، ورغم محاولاتي الجاهدة لكي أُلقي على الفتيات نظرةً مختلفةً، كنت، غالبًا، مدفوعًا إلى الاستيلاء على ما لم أكن أريد أخذه.

ومنذ زمن، كنت أودّ أن أُحدّث الحكيم عن هذا الصراع، ولم أَجسر. غير أنّ كلمات عطفه، التي التقطتها حديثًا، كانت تدوّي فيّ مثل دعوة.

غدًا سأجسر.

* *

وبدأ صديقي بالقول:

– إنّ الجسد البشريّ جميل، وربّما كان جسد المرأة يتميّز بجماله. ولكنّ نظرة الإنسان تلطّخه، أحيانًا، بالقذارة، عندما تستقرّ عليه، على نحو ما تفسد اليد القذرة رونق الغرض الذي تلمسه.

فعلى المرء أن يغسل عينيه قبل أن يلمس بهما جسدًا، وحينئذٍ سيكون بمكنته أن يرمقه، ويُعجَبَ به، ويحترمه.

فقلت:

– ليس جسدي جميلاً، ولا يتميّز وجهي بشيء.

– لقد قلت لك، سالفًا، ***أنّ نور القلوب هو الذي يصنع الجمال الحقّ***، فأجمل المصابيح باهتة عندما ينطفئ منها النور.

ستكون جميلاً، يا صغيري، إن كان قلبك مضيئًا، وكان جسدك له قرينًا مخلصًا.

– ولكنّ قلبي غير أمين، وقد أَطلقت له العنان.

– صحيحٌ أنّ كثيرين يحيون، هكذا، متفجّرين. لقد بشّروا أجسادهم بالحرّيّة، فانطلقت على هواها، في حين أن ليس فينا من يستطيع الازدهار إن لم يعقد قرانًا بين فكره، وقلبه وجسده. إنَّ الإنسان واحد، هكذا شاءه الله، وليس بوسع أحدٍ أن يفرّق، بلا خطر، ما جمعه الله.

فما عساك تعطي، يا صغيري، إن لم يكن جسدك لك، وأيّة حياة ستقدّمها للآخر إن لم تقدّم سوى جسدٍ لا روح فيه؟ فهيّا قل له:

لقد زُرعتَ، يا جسدي، يا بذار أَبي، في التربة المحروثة في أحشاء أمّي،

وعُجِنتَ بدمٍ ولحم، وابتساماتٍ، وأغانٍ، وربّما بدموع..
عُجنت على وتيرة قلبٍ يخفق في انتظار النهار.
لقد أُعطيت لي، يا جسدي، في آنٍ واحدٍ مع قلبي وفكري، مجتمعين،
لكيلا يستطيع أيٌّ من أعضائك، مهما كان ضئيلاً،
أن يدّعي وجوده مستقلاًّ عنّي.
لقد جئتَ إلى هذا العالم، يا جسدي، كي توظَّف في ورشة عملٍ شاقّ،
حيث ستلتحق بإخوتك العمّال الولِهين بأرضٍ وُهِبت لهم،
لكي تكمّلوا صنعها فتبدعوا منها ملكوتًا.
لقد حُمّمتَ بالماء، يا جسدي، إذ اعترف والداك أنّ ابنهما هو، أيضًا، ابن الله،
فقدّماك لكنيسة يسوع المسيح لكي تصبح عضوًا حيًّا في جسده.
لقد تعلّمتَ الكلام، يا جسدي، كلامًا يتخطّى الكلمات،
بحيث تستطيع بأناملك، وشفاهك، وكلّ ذاتك،
أن تمتزج بجسدٍ أُخرى، وتقول، في حومة العناق: «أُحبّكِ»
وأن تعطيا، معًا للبشر، أخًا جديدًا،
ابنًا جديدًا *لله*.
لقد أُرسلت، يا جسدي، لكي تستطيع أن تهمس شيئًا عن الله
لجميع البشر، وأَوّلاً لتلك التي ستحبّها.
فعندما شاء الربّ العليّ أن يلتقي الإنسان لكي يعلن له عن حبّه،

التمس من مريم الفتاة جسدًا،
وهي صنعت هذا الجسد،
وأعطته إيّاه، عندما أعطته العالم،
والله وهبنا إيّاه،
لكي نمتزج به،
ونصير معه واحدًا، للأبد،
مثلما هو واحدٌ مع أبيه وروحه.

* *

وحينئذٍ قل له، أيضًا:
إنّني آبى، يا جسدي، يا قرين قلبي، أن أَعدّك مجرّد غرضٍ للمتعة،
وآبى أن تكون للآخرين غرضًا للّهو، مثل أداةٍ تُستخدَم،
ويُساء استخدامها، وتُرمى وسط الضحك والسخريّة.

ولا أريد، يا جسدي، أن تُفلت منّي، إفلات فارٍّ جبان، يتخّطى الحدود، هربًا من المعارك. ولا أُريد، يا جسدي، أن تكون آخر سواي، مثل ثوبٍ أو لباس تنكّر،
يخونني ويتوارى.
لستُ أريد، يا جسدي، أن تتسكّع بعيدًا عنّا، مثل فارٍّ عنيد،
يقطف، في سبيل لذّته، ثمارًا لم أخترها،
ولا أُريد، يا جسدي، أن تكذب عندما تتكلّم عنّي.

سأضبطك مع إيقاع موسيقاي، لكي يكون غناؤك سليم النغم،
وسأستجوبك، كلّ يوم، لكي تكون أقوالك صحيحة.

ماذا تقول عنّي، يا جسدي، لكي تعلن عن نفسي؟

وماذا تقولين، يا يدي، عندما تمسكين بيد الصديق؟

وماذا تقول، يا ناظري، يا نور قلبي، عند نافذة عينيّ؟

وماذا تقولين يا بسمتي، أيّتها الزهرة المتفتّحة في بستان شفتيّ؟

وماذا تقولين، يا قبلتي، يا نسْمة حياتي على وجه الحبيب؟

وماذا ستقولان يا ذراعيّ العاشقتين، أيّها المهد الذي سيرقد فيه حبيبي الرقيق بعد أن نكون أصبحنا جسدًا واحدًا؟

وماذا ستقولين يا أعضائي التعبة، عندما سيعضّك الوجع،

فتجأرين بالألم، وبالوحدة، ربيبته؟

وعندما سيصمت فمي، هل ستتكلّمان، أيضًا، يا عينيّ؟

وعندما ستطبق عيناي، ويتجمّد وجهي،

هل ستظلّ تعكس النور العذب المنبعث من نفسي التي طارت؟

* *

أيّها الجسد المُعطى، الجسد المحبوب،

يا كلمة روحي، وأنشودة حبّي،

الجسد الذي غالبًا ما يتمرّد ويخون،

أَودّ، بكلّ قواي، أن أستأنف معك عيشًا مشتركًا،

فبمعزلٍ عنك، لن أكون أنا،

وبمعزلٍ عنّي، لستَ سوى مركبٍ مترنّح، حطّم مراسيه، وسيُصبح حطاماً.

عدْ إليّ يا جسدي، وسنعيش معًا،
وسنحبّ معًا، ونهب الحياة،
وسيقودنا ربُّنا يسوع، متَّحدَين، في نهاية الشوط،
إلى ما يتخطّى القبور،
نحو القيامة.

**

وهممت بالخروج وإذا بالممرّضة تدخل، وكأنّ تشابكنا كان محتَّمًا. كانت تمسك الولد من يده، وكانا، كلاهما، سعيدَيْن. وقالت:

– «لقد تعارفنا، وها قد جئتك به، ولكن من أجل قبلةٍ فحسب، فينبغي ألاّ تُرهق نفسك».

وأَقبلتْ نحو الحكيم، فجسَّت جبينه، ثمّ أخذت يده التي احتفظت بها، لحظةً، في يدها، وقالت برقَّة، لا بل بشيءٍ من الودّ:

– لديك بعض حمّى. لا ريب أنّك تكلّمت طويلاً.

ثم هبّت واقفةً، ورمقتني، وأضافت بنبرةٍ اتّسمت بالحزم: «هذا ليس معقولاً!»

كان اللوم موجّهًا لي. وأَدركت ذلك فخرجت في الحال، متبرِّمًا من تلك الممرِّضة التي وجدتُها بغيضة، بالتأكيد.

(٣٧)

كانت لي صديقةٌ تكبرني سنًّا بكثير، وغير متزوّجة. كنّا نعرفها، منذ زمان، أصدقائي وأنا، وكنّا قد صّنفناها بين الفتيات «الجِدّيّات»، أي الممعنات في الجدّ بالنسبة إلينا. وهكذا كنّا قد اخترعنا فئات، كنّا نصنّف فيها الفتيات اللواتي نصادفهنّ على دروب أيّامنا أو ليالينا. غير أنّنا كنّا نحترم هذه الصديقة، وكنت أنا أُحبّها، محبّة أُختٍ كبرى، ولكنّني لم أكن أجسر على إعلان ذلك أو التظاهر به أمام رفاقي. وغالبًا ما كنت أحادثها قبل عهدي بالحكيم.

وكانت تقول لي أقوالاً من شأن الحكيم أن يقولها في ما بعد. وكنت أسخر، بلباقةٍ، من أفكارها الجميلة، التي كنت أظنُّها، آنذاك، أحلام فتاةٍ صغيرة، لا تعرف من الحبّ سوى صورٍ جميلة، في حين كنت أنا أعرف.

ومع ذلك كانت تثير فضولي.

وكانت صديقتي هذه قد نأت، وباتت تسكن بعيدًا عنّي، فتعذّر عليّ عيش فرح الصداقة معها. وقد أسفت لذلك، فربّما كنت، اليوم، قد فهمتها على نحوٍ أفضل.

كنت أَلتقيها صدفةً، دائمًا وحيدة، وكانت رؤيتها تسعدني. وكنت أرقبها مبتسمةً، ولكن جادَّةً، متحفّظةً، بيد أنّني أمسيت واثقًا أنَّها غنيَّةٌ غنًى لا تميِّزه عينا المارّ المستهتر.

وبغتةً، جال بخاطري أنَّ الشبّان كانوا حمقى لمّا تركوها على الطريق، ومرّوا بجانبها من غير أن يلحظوها، وقلت في نفسي إنّها لو كانت، اليوم، أَصغر سنًّا لربّما أحببتها.

وحدَّقتْ إليَّ، فيما كنت أرمقها، وقالت لي فجأةً: لقد تغيَّرتَ كثيرًا.

– وكيف أدركتِ ذلك؟

– من مخايل وجهك، وأرى ذلك، على نحوٍ أوضح، من نظرتك. فقلت:

– هذا صحيح. سأروي لك في ما بعد.

وعقدنا العزم على التلاقي، وابتعدتُ. هل هي كانت ما برحت تنتظر، أم هي استسلمت؟ وهل كانت تتألّم؟ كنت أجهل ذلك؛ ولكنّها كانت تبتسم.

كنت حزينًا من أجلها، وأُفكّر: إنّه لَظلم. سأحدّث الحكيم في الأمر.

* *

لقد كانت علّته خطيرة، هذه المرّة، كنت واثقًا. وقد لمحتُ ذلك مذ دخلت. كان يرتاح مستلقيًا على السرير، متلفّعًا بثوبٍ فضفاض اتّقاءً للبرد، بادي الشيخوخة والنحول. غير أنّ نظره كان يحتفظ بكلّ كثافته، وتحتفظ بسمته بكلّ حرارتها الخيّرة.

وبذل جهدًا كي ينهض، ورغم اعتراضي، مضى فجلس على كرسيّه، وقال: «ليس لدينا وقتٌ نهدره. تعالَ قريبًا منّي، ولنتكلّم.

«ستقدم ممرّضتي عمّا قريب، وستوبّخني». ورمقني بنظرةٍ تنطوي على خبثٍ محبّب وأَضاف: «إنّها صارمة، وعليّ أن أُطيعها»...

وحينئذٍ حدّثته عن صديقتي.

* *

قال: «أعرف، أنا أيضًا، فتياتٍ كثيرات ينتظرن، عبثًا، أن يأتي شابٌّ فيقول لهنّ: «أُحبّك». وتعاني كثيراتٌ معاناةً مريرة. فكلّ إنسانٍ يحتاج أن يعرف قدره، ويؤمن، يومًا، أنَّ حياته تساوي حياةً أُخرى».

فاعترضت:

– علامَ، إذن، كثيرون لا يقابلون من يأتيهم ليثبت لهم ذلك؟ أهذه هي مشيئة الله؟

فأجاب بحدّةٍ:

– ***مشيئة الله هي أن يُحَبّ كلّ إنسان***. والباقي سرٌّ كامنٌ في حياة كلّ فرد. نسيجٌ لزيزٌ من الأَحداث، ثمار حرّيّتنا وحرّيّة الآخرين، وهذه الطبيعة التي تصنع المطر والصحو، لأنّها هكذا وُجِدت.

– قيل لي إنّ الله «يقود كلّ شيء في حياتنا»...

فأجاب، وقد اضطرب من جديد:

– ليس أنا من قال ذلك. فنحن نقود مصائرنا في دهاليز قرارات الجميع، وقرارات كلّ فرد، تلك الدهاليز التي، غالبًا، يتعذّر تبيُّن مسالكها. وفوق مصائرنا تنتشر علامات استفهام، لن يلقى معظمها جوابًا على هذه الأرض. في ما بعد، فقط، عندما سنصبح في النور، سنكتشف كلّ «نعم» وكلّ «لا» وسنروز وزن ما تنطوي عليه من حبٍّ أو من خطيئة.

– لم أعد أُدرك، يا صديقي، ولطالما حدّثتني عن الله. أهو غائب؟

– بل إنّه حاضرٌ حضورًا لا محدودًا، يا صغيري. وربّما أسأت فهمي. إنَّ الله أبٌ محبّ، يواكب كلاًّ من أبنائه خطوةً خطوة، ولكنّه يدعهم يسيرون بمفردهم، موفّرًا لهم بلا انقطاع، نور حبّه وقوّته، لكي يعيشوا معه ***ما هم قرّروا أن يعيشوه***.

– وماذا عمّا لم يقرّروا عيشه، ولكنّه مفروض عليهم، من محنةٍ أو وحدة؟

– إن كان الوضع أو الحدث ماثلاً، حاضرًا، لا سبيل إلى تلافيه، فعليهم،

يومًا، ***أن يقرّروا عيشه***، وألاّ يكتفوا بتحمّله. وقد يصبح، حينئذٍ، كلّ شيءٍ «عنايةً إلهيّة» لمن يُشرع ذاته للحبّ، فيجد القوّة على ***إرادة عيش ما لم يُرِدْه أصلاً***.

– أهكذا تخاطب الفتاة الجميلة الرزينة التي تأتيك ملتمسةً ما يضيء درب وحدتها؟

– أقول لها أن تبدأ بالبحث عن رفيق.

– وبعدئذٍ؟

– بعدئذٍ عليها هي أن تتكلّم، فالقرار قرارها.

* *

إنتظار...

أيا قلبي الخفّاق، كما يخفق قلب امرأة، حنانًا متأهّبًا للبذل،
يا وردةً تتفتّح في كلّ موسم من مواسم الحياة،
من الذي سيأتي لاقتطافك، وأنت مكنونةٌ طيّ أشواكي؟
هيّا أسرع، أيّها المجهول الجميل،
فلئن كنتُ قد قدَّمت بضع أزهارٍ رفضها الآخرون،
غير أنّني قد احتفظت بالباقة، والباقة آخذةٌ بالذبول.
أيا جسدي، يا جزيرة جرداء، لم يزرها، قطّ، بحّار،
تنتابني في بعض أمسيات الصيف رغبةُ إلقاء سفينتي إلى البحر،
عساني أعود إلى الشاطئ بمكتشفٍ نَهِمٍ إلى الثروات،

وهو سيبحث، وسيكتشف كنوزي الكمينة،
وإن هو لم يَصُغْ من ذهبي خاتم قران،
سيكون ذهبي قد التمع لعينيه، مدى ليلة.
... ولكنّه لم يأتِ... ولم أَمضِ إلى البحر...
يا حشاي، يا حقلي الذي يترقّب، سدىً، بذار الحبّ،
وذراعيَّ المتأهّبتين، ويا أولاد أحلامي!
ما جدوى الأَرض التي لا تؤتي حصادًا،
والغصون الممتدّة التي لا تحمل ثمرًا؟
إلهي، ما نفع الحياة، إن عجزتُ عن إعطائها؟
كنت، أوّلاً، أرمق غير مبالية، شبّانًا يمرّون،
ورأيتهم يُمسكون أيدي صديقاتي الممدودة،
ثمّ رأيتهم، بعدئذٍ، يخرجون من الكنيسة متأبّطين بذراعهنّ،
وغنّيت، وابتسمت، سعيدةً بفرحهنّ.
وابتعدوا، واحدًا إثر الآخر، سائرين اثنين اثنين،
وما لبثوا أن ارتبطوا برباطٍ ورديٍّ،
يبتسم أو يبكي مطالبًا بالحليب،
.... وأنا، كنت أعود، وحيدةً إلى البيت، ولم يخترني أحد.

* *

قيل لي...

أَيَّتها الفتاة الرزينة الجميلة الواقفة عند النافذة، والتي لا ترى شيئًا قادمًا،
ربّما تختبئين، عندما تسمعين، بتأثّر، صوت الشبّان يتحدّثون تحت نافذتك.
وربّما كبرتِ سريعًا، وما عاد بوسع المارّة رؤية نظرتك التي تحاكي الأُفق.
وربّما شختِ سريعًا، مأخوذةً بالعمل، مؤدّيةً «واجبًا»،
غير واعيةٍ مرور السنين السريع.
وربّما كان لك، عن الحبّ، صورةٌ جميلة،
وخيّل لك أنَّ الفتى الذي لاقيته،
لم يكن قادرًا سوى على خربشة رسمٍ له مشوّه، مخيّبٍ للآمال.

أيّتها الفتاة الجميلة الرزينة الواقفة عند النافذة، التي لا ترى شيئًا قادمًا،
لا تتوقّعي أُنشودة الفجر يغنّيها الفتيان عند شرفتك.
كانت الفتيات، سابقًا، يترقَّبن مجيء الموسيقى،
ولكنّك، اليوم، تعرفين، أنت أيضًا، جَعْلَ القيثارات تغنّي.

ولا تنتظري أن يقرع بابك عاشقٌ ولهان،
فقد كان يقال، قديمًا، إنّ على الفتى أن يقرع الباب، وعلى الفتاة أن تفتحه،

ولكن من يحقّ له أن يقول ذلك؟

إنّ قلبك يخفق بمثل قوّة قلب الفتيان،

ولا أحد، فتىً كان أو فتاة، يملك حقّ اقتحام بابٍ مغلق، عنوةً.

أيَّتها الفتاة الجميلة الرزينة، الواقفة عند النافذة، التي لا تشهد شيئًا قادمًا،

ينبغي أن تنحدري إلى الطريق، ولكن ليس إلى طريقٍ مقفرة،

كي تندمجي في حلقة الرقص، رقص الأولاد الذين يبحث بعضهم عن بعض،

وإن أنت التقيتِ الفتى الذي يعجبك، فاتحيه بإعجابك، بلا تلكّؤ،

فقد يكون، هو أيضًا، عاجزًا عن تخيّل قلبٍ يستقرّ، يومًا، على حافَّة شفتيه.

وإن لم تشعري إلاّ بالتقدير والصداقة نحو صديقٍ غالبًا ما أهملتهِ،

ولم تستطيعي أن تسمّي ذلك حبًّا،

سيري معه، واكتشفا قلبيكما، معًا؛

وربّما سينبض فيك، يومًا، وترٌ كنت تظنّينه أخرس،

وقد تتوسّمين الجمال في وجهٍ كان يبدو لك مبتذلاً،

فقد تُلهب نظرةٌ نارًا، كانت تنتظر شعلةً كي تستعر.

أيّتها الفتاة الجميلة الرزينة، الواقفة عند النافذة، ولا ترى شيئًا قادمًا،

إحذري القول إنَّ *الله* سيُعنى بشؤونك،

وإنّ عليك انتظار قرارات الربّ.

فليس *الله* مدير مكتب زواج،

وليس قدّيسوه موظَّفين يُرشَوْن بالصلاة؛

الله أبٌ يحبّ أبناءه؛

والوالدون لا يحبّون أبناءَهم،

إن هم دبّروا زواجهم، مسبقًا، في غفلةٍ عنهم.

ولكن إن أنتِ بحثتِ، بلا خجلٍ، وأمعنت في البحث،

بحثتِ بصبرٍ، متذرّعةً بجميع الوسائل السليمة التي توفّرها لك الحياة،

ومع ذلك لم تعثري على رفيق الدرب،

لا تستسلمي محبطةً،

فلا يستطيع أحدٌ أن يعيش ويزدهر، إن هو عاش مستسلمًا محبطًا.

بل اعلمي، حينئذٍ، أنّ من عاش عازبًا لم يُفسد حياته،

ولكنّه عاش على نحوٍ مختلف.

عليك أن تقرّري، يومًا، بحرّيّة، اختيار ما لم تختاريه،

وتعزمي على أن يكون «نَعَمك» إراديًّا، مثلما هو «نَعَم» العاشقين.

* *

سأنهض، وأنا أيضًا، سأفترن...

وداعًا يا أحلامي الزائفة، وأيّها الأزواج المتقلّبون ووعودكم الحمقاء،
الذين يأتون ويغدون، ويتعلّقون بوجه المارَّة،
ويلاحقونني، بلا كَلَل، حتّى أبواب الليل.
وداعًا، أيّها العشّاق الهوائيّون، المتسلّلون إلى مخدعي،
يقلّبونني ويمعنون في التقليب، وفي الصباح يضمحلّون.

لقد قرَّرت أن أُطلّقكم،
لأنّني أريد أن أتحرّر منكم، وأنعم بحرّيّة الحبّ.

لقد اخترت، من حياتي، دروبها الأولى، وشعابها،
يرشدني قلبي، وتقودني قدماي،
وانتهيت إلى منعطفٍ مجهول.
ووقفت على حافَّة الدرب، أفكّر، وأصلّي، وأحيانًا أَبكي،
وارتضت عيناي، أخيرًا، أن ترمقا في الأمام، منظر حياتي.

ورأيت الدرب، فريدًا، مرسومًا بوضوح،
لم تكن قد بيّنته خارطتي، حيث لم أعثر إلاّ على دروب رغباتي،
ولا مفرّ لي منه، فهو منقذي الوحيد،
الذي سيقودني، بأمانة، إلى مواعيد لقاءاتي العديدة،
التي سجّلتْها، بمعزلٍ عنّي، ألوف الأحداث، على مخطّط طريقي.

سأُجيب على «النداء»، تلك «الدعوة» الغريبة التي طالما أَعرضتُ عنها،
سأسير نحو الهيكل، حيث ينتظرني سيّدي،
متأهبّةً، رغم كلّ شيء، للحدَث غير المنتظر *الذي لم أعد أبحث عنه*
وسألفظ، عازمةً، «نَعَم» عرسي،
بعد أن عشت خطوبةً طويلة.

أجل، هلمّوا جميعكم، إلى هذا العرس العلنيّ،
ولكنّكم لن ترَوا عريسي، فله ألف وجه؛
أنا وحدي سأراه، مقبلاً نحوي،
بخطًى متعبة، وقلبٍ ذاوٍ،
باحثاً عن خبز الصداقة، والحياة المبذولة.
لقد ظننتُ، طويلاً، أنَّ عليّ الاقتران بوحدةٍ كئيبة – ويا له من مصيرٍ حزين.
غير أنّني أرفض الوحدة، اليوم، كي أقترن بالجماعة.

* *

سأكون القطرة النديّة
على وجه من لم يعهدوا، قطّ، ندى الحنان،
سأكون ذراعَيْن مشرعَتيْن للطفل الباحث عن مأوى عطف،
سأكون خميرةً ممتزجةً بالعجين البشريّ.
سأحرث الأراضي الجدباء،

وسأبذر، بغزارة، حيث لا يقدّم أيّ فلاّحٍ بذارًا مجّانيًّا،
فأنا أحمل، في قلبي المُشرع، جرابًا مترعًا بذارًا أودّ توزيعه.
وسأمزج، بلا انقطاع، رمل حياتي، بملاط الحبّ،
وسألتحق ببنّائي المدن، المكافحين في سبيل العدل،
ومعهم سأشيد البيوت والهياكل من أجل أطفال العالم.
وبما أنّ لا أحد ينتظرني في سريري، للمشاركة،
سأسهر وسأكافح، في حين يُخلد الآخرون إلى الراحة.

أمامك، يا ربّ، سأقف مُشرعةَ القلب،
مكرّرةً، كلّ يوم، قول «نَعم»
مثلما يكرّرها الأَزواج المخلصون.
وستقول لي إِنّك تحبّني، مثلما تحبّهم،
وإِنّ عليَّ أن أُحبّ، كما عليهم أن يحبّوا.

وهكذا، معك، سأهب حياتي،
وسأهب «الحياة»،
فسأكون لأولادٍ لا يُحصَون، أُمًّا،
وسيأتون، لاحقًا، لاستقبالي، معلنين عن أسمائهم،
في نور أبيك، أبي الأحياء.

* *

ولكنّني امرأةٌ، يا ربّ، وسيؤلمني، دائمًا، ألاّ أَعرف رجلاً؛

أنت تفهمني، يا ربّ،

فأنت رجل، ولا ريب أنّك تألّمت لأنّك لم تعرف امرأة،

إذ احتفظت بقلبك وجسدك جاهزين،

تقدمة مشاركة مع الجماعات الجائعة.

وعندما سألتقي الصليب، ويتعيّن عليّ تسنّمه،

لن أكون وحيدةً، مهجورةً،

فأنا أعلم أنَّك، من زمان، سبقتني إليه.

سألتحق بك، يا ربّ، ومعًا سنهبط عنه،

فبفضلك لم يعد الصليب سرير الموت،

بل طريق حياة.

وستكون حياتي فرحًا، اليوم، وإلى الأَبد».

* *

ثمّ تفوّه الحكيم ببضع كلمات، مستعجلاً، وهو يراقب الباب، وكان واضحًا أنّه كان يخشى أن تجدنا الممرّضة ما زلنا نتحدّث.

وقُرع الباب، وأطلّت الممرّضة، وحيّت برقّة... ولكنّني لم أجسر على مواجهة نظرتها، فقد تولاّني بعض الشعور بالذنب، ورمقني الحكيم بنظرةٍ متواطئة، ومثل ولد، كان يلهو بعصياننا أوامرها.

ومضت الممرّضة إلى الغرفة المجاورة، وأَنا أرقبها، مُدبرة، وخيّل إليّ أنّها كانت عاكفةً على إعداد دواء. وانتهزت الفرصة لأنسحب بسرعة. وفيما كنت أنحني على صديقي، جرّني نحوه، وهمس في أُذني: «أَليست جميلة؟»

وأدهشتني ملاحظة الحكيم هذه. وشعرت أنّني، في داخلي، خجل، وأجبت مرتبكًا: «لا بأس بها».

كان لا بدّ لي من الإجابة، ولم أكن أملك سوى هذا الوصف المبتذل، المستعار من «تصنيفاتنا»، نحن الشبّان.

وتواريت سريعًا، وتولاّني الضيق بسبب سؤاله، وخجلاً من جوابي.

* *

ولّما خرجت، قلت، في سريرتي: صحيحٌ أنّها جميلة. لِمَ لم أعترف بذلك؟.... وتبيَّنتُ أنّني كنت سعيدًا لكونها جميلة.

(٣٨)

بعد مضيّ بضعة أيّام، وجدتُ، في صندوق بريدي، كلمةً من الممرّضة، وكان واضحًا أنّها كتبتها على عجل؛ لم تكن تحمل عنوان مرسلها، ولا أيَّة عبارة مجاملة. وقد خمَّنت السبب، إذ كنت أفهمها. فلو كان عليّ أن أراسل تلك الممرّضة، بأيّة عباراتٍ كنت سأفعل؟

غير أنّ أملي قد خاب بعض الشيء، لأنّها لم تذكرني بأيَّة لفظة ودّيّة... بل على نقيض ذلك! كانت رسالتها تقول: «صديقك متعبٌ جدًّا. ولا بدّ له من الابتعاد كي يحظى بنقاهةٍ تامّةٍ، ويتلقّى علاجًا لم يعد بوسعي توفيره له. سيطول غيابه... وقد أعرب عن رغبته في رؤيتك قبل سفره، وهو ينتظرك غدًا في الموعد المعتاد. ولكن، رحماك، لا تُرهقه بأسئلتك. وبما أنّك تقدّره، راعِ حالته الصحّيَّة المقلقة».

إنتابني الذهول، عندما أَدركت خطورة علّة الحكيم، وابتعاده الوشيك؛ ورحت أتساءل هل سيُقيَّض لي أن أراه من جديد؟ وجالت، في خاطري، أَسوأ التخيّلات، واستحوذ عليّ القلق، وحزنٌ بليغ. غير أنَّ تلك الرسالة كانت تضايقني، وقد بدا لي أنّ الممرّضة كانت مطّلعة على محادثاتي مع الحكيم. هل حدّثها، هو، عنّي؟ كنت أشكّ في ذلك، بعد ما عهدته عنه من كتمان. أَوَتكون هي التي استوضحته؟ على أيّة حال، ربّما كانت تلك الممرّضة جميلة، ولكنّها كانت تودّ تلقيني مبادئ الأخلاق، وهذا ما لم يكن يروق لي.

وعزمت على زيارة صديقي قبل الموعد المحدَّد، تفاديًا لمقابلتها.

* *

كان الحكيم مستلقيًا، ولكنّ جذعه كان مرتفعًا ورأسه متّكئًا على وسادتين، وكان يتنفّس بصعوبة. وهمّ بالنهوض، ولكنّني اعترضت بحزم، فلم يلحّ، وقرأت، في انقياده، اعترافه بوهنه.

لم أَستوضحه عن صحّته، فقد كان يبدو ذلك نافلاً، وكنت أعلم، مسبقًا، أنّه لن يجيبني إلاّ بما يبعث في نفسي الطمأنينة.

وتريّثت، آملاً أن يستهلّ الحديث. ولكنّه، كما كان يفعل دائمًا، ظلّ يترقّب أَسئلتي، وكانت كثيرةً، وخطيرةً، ولكنّني كنت عازمًا على ألاّ أطالبه إلاّ بأجوبةٍ موجزة. واقتحمت فورًا صلب الموضوع:

– لقد أمعنتُ في التفكير بما قلته لي، خلال لقائنا الأخير. وبتّ أدرك تمامًا أنّ الشابّ الذي يُكتب له أن يظلّ عازبًا، عليه، يومًا، ألاّ «يستستلم» فحسب لهذا النمط من العيش، بل عليه أن يتقبّله، طوعًا، تقبّلاً كاملاً. إذ لا يسع المرء أن يعيش العمر كلّه «مرغمًا»، ولكنّني لست أفهم أن يختار رجالٌ ونساءٌ، بملء إرادتهم، عيشة العزوبة. إنّ ذلك غير طبيعيّ!

– إنّني أكرّر القول إنّ ما ليس طبيعيًّا هوعدم الحبّ. إنّ «دعوة» كلّ إنسان هي أن يحبّ، ويتزوّج، وينجب. ولكنّ تلبية هذه الدعوة قد تتمّ بأساليب متنوّعة. والذين يختارون العزوبة، يختارونها بحبّ.

– إذن، يُعرض الكهنة عن الزواج، بدافع حبّ... الله؟

– حبًّا بيسوع وبكنيسته، شعب الله، والإنسانيّة التي جمع يسوع شملها.

إنّ الأساقفة، خلفاء الرسل، يسألون بعض المسيحيّين هل يرتضون التخلّي عن كلّ شيء، من أجل اتّباع يسوع، وخدمة كنيسته، فيصبحون معاونيهم في إعلان الإنجيل لجميع البشر، وفي لمّ شمل جماعة المؤمنين حول المسيح، ودمجهم في جسدٍ واحد، بواسطة الإفخارستيّا.

– ولكن بوسعهم، أَيضًا، تكريس ذواتهم لهذه المهمّة لو كانوا متزوّجين!

– ربّما بمزيدٍ من المشقّة، ولكن لا ريب أنّهم قد يستطيعون. غير أنّ الكنيسة، منذ قرونٍ عديدة، تقتضي منهم أن يكرّسوا، لهذه المهمّة، جسدهم، وقلبهم، وفكرهم، وحياتهم جمعاء.

– لماذا؟

– إقتداءً بيسوع، وحبًّا به، هوالذي بذل ذاته، بلا تحفّظ، في سبيل «شعبه» و«عقد معه عهدًا».

لقد «اقترن» به، ولم يقتصر على تقديمه له قلبه المشرع بأكمله، بل جسده المصان بأكمله، أيضًا، الذي يشركنا به حتّى آخر الأزمنة.

– ولكن يقال إنّ يسوع نفسه لم يقتضِ من الكهنة مثل هذا العطاء.

– هذا صحيح، لم يقتضِ ذلك صراحة. فالحبّ لا يطلب، بل يقدّم ذاته. وقد تقرّر الكنيسة، يومًا، انتهاج سبيلٍ آخر.

– هل تتمنّى ذلك؟

– أتمنّى، غير أنّني أتمنّى، أيضًا، بكلّ قواي، أن تستمرّ في الإهابة بالمتطوّعين أن يمضوا قُدُمًا حتّى نهاية العطاء، بدافع الحبّ.

قال يسوع: «ليس من دليل حبٍّ أكبر من أن يهب الإنسان حياته في سبيل من يحبّ».

– لا يقدّم الكهنة، دائمًا، شهادة الحبّ هذه!

– إنّهم يحاولون، ولكنّهم لا يُفلحون جميعهم، تمامًا.

– أين هي الشهادة، إذن؟

– بعضهم يشهدون من ذروة قمَّة، استطاعوا تسنّمها، ومنها بعثوا إشاراتهم. وبعضهم يجهدون بلا انقطاع من أجل بلوغها، ولكنّهم لا يُفلحون. وهكذا يشهدون على أنّ بلوغ هذه الغاية يستأهل أن تكرّس في سبيله الحياة.

... وأَضاف الحكيم بصوتٍ خافت: «الأزواج، أيضًا، مدعوّون إلى الشهادة. فهم، كما أسلفت القول، بفضل سرّ الزواج، يتعهّدون بأن يكونوا انعكاسًا حيًّا لحبّ يسوع الأمين لكنيسته. فهل ينجحون دائمًا؟»

وصمت الحكيم، واحترمت صمت هذا الاعتراف الوجيع.

* *

هل كان يتعيّن مواصلة الحوار؟

وبغتةً خطرت الممرّضة بخلَدي، وانتابني شعورٌ غريبٌ بأنّها كانت تراقبني بنظرةٍ صارمة، ولكنّني انعتقت من هذه النظرة... فقد كنت أودّ أن أعرف: ربّما كان الكهنة مدعوّين إلى خدمةٍ أساسيّة في الكنيسة، ويرتضون، بدافع الحبّ، التخلّي عن كلّ شيء، في هذا السبيل. ولكن ما جدوى الرهبان والراهبات والنسّاك...؟

بوسعي أن أفهم أولئك الذين يكرّسون ذواتهم لجميع المحرومين، والذين يجوبون العالم لإعلان البشرى. ولكن ماذا عن الآخرين، الذين يسجنون أنفسهم في الأديرة والمناسك؟

ما عدت أجسر على الاعتقاد أنّهم حمقى أو يستأهلون السخرية... ولكن لمَ؟

أيّ سرٍّ في حياتهم؟ أيّ سرٍّ في «الحياة»؟

تبًّا للممرّضة!

كنت أَعلم أنّ صديقي سيجيب، وكان يراودني شعورٌ مُبهَم بأنّني بحاجةٍ إلى هذه الإجابة، لا رغبةً في مجرّد إشباع فضولٍ ذهنيّ، أو للتمكّن من الردّ على تهكّمات أصدقائي، ***بل لكي أعيش حبّي، على نحو أمثل.***

* *

وتنهّد الحكيم وقال:

«وما نفعهم؟... سؤالٌ بشريٌّ مؤسف!

بشرٌ متشبّثون بهذه الأَرض التي يظنّونها أبديّة،

يعضّون الخبز بفمهم الجائع،

ويضمّون الأجساد بين سواعدهم النهمة.

بشرٌ يودّون انتزاع السعادة من الكون المتوحّش،

بهتكهم أسراره، وإحكامهم السيطرة على قواه.

بشرٌ يُشيّدون أبراجًا من صخرٍ وحديد،

ويزعمون الارتقاء بها حتّى أبواب السماء.

بشرٌ ينهضون، ويعملون، ويكافحون،

ويرقدون، لكي يعملوا أيضًا، ثمّ يموتون منهكين.

بشرٌ يُنجبون أطفالاً، لأنّه لا بدّ من الإنجاب،

والأَبناء، هم أيضًا، بدورهم، سوف ينهضون، ويعملون، ويكافحون، ويرقدون لكي يواصلوا العمل....

ثمّ يموتون في عرقهم، وقد تبدّدت حياتهم هباءً.

* *

أيّها البشر القساة العقول، قولوا، إن كنتم تعلمون:

ما نفع الزهرة التي تعيش وتموت، مختبئةً تحت السرخس،

والحجر المنحوت في قمّة الكاتدرائيّات،

والنجمة المتّقدة بين مليارات النجوم؟

وما نفع الموسيقيّ الذي يعزف، وحيدًا، في غرفته الموصدة، واللوحة التي تساوي ثروة، المحفوظة، بحرصٍ، في صندوقٍ مصفّح؟

وما نفع صحبة الورد التي تذبل ببطء، أمام صورةٍ عتيقةٍ مصفرّة،

والأُمّ الصبيّة الجامدة، وحيدة، تتأمّل، في ذهولٍ، طفلَها الغافي؟

ما نفع الأعمى، وهو لا يرى، والأَصمّ وهو لا يسمع، والمشلول وهو لا يسير، والشيخ العجوز الفاقد الوعي الذي يتمادى نزاعه؟...

وما نفع أن تكون حاضرًا، فيما لا يجدي حضورك نفعًا، بجوار آخر حاضر؟

أيّها البشر، هل تعرفون، أما زلتم تعرفون؟

إن كنتم لا تعرفون، أو ما عدتم تعرفون،

فأنتم أتعس البشر،

لأنّكم لن تعلموا، أبدًا، ما جدوى الحياة،

ولن تدركوا، أبدًا، ما معنى الحبّ.

* *

نحن بحاجةٍ، يا ربّ، أجل، نحن بحاجةٍ
إلى أن نرى، في ما بيننا، رجالاً ونساءً،
لا ينفعون لشيءٍ، في المقام الأوّل، سوى للحبّ،
كي يجعلونا نكتشف ونؤمن، أخيرًا،
أنّ الحبّ هو كلّ شيء،
وأنّه النسغ، وأنّه الحياة،
والتنفّس، والدم، والفرح،
لهذه البشريّة الهائلة.

أنظر إلينا، يا ربّ،
نحن البشر المساكين السائرين، غالبًا، وأنفهم في الرغام،
أرجلهم ملطّخةٌ بالتراب، وقلوبهم عالقةٌ في سعاداتٍ صغيرة،
وأذهانهم فاقدةٌ الصواب حيال إنجازاتنا الرائعة.
أرسل لنا هؤلاء الرجال والنساء المتطوّعين لحبٍّ يتخطّى الحبّ،
لا لكي يقدّموا لنا «نماذج»، ففي ما بيننا نماذج ماثلة،
ولا لكي يصرفونا عن مهامّنا، الشاقّة والجميلة،
ولا لكي يحقّروا مشاعر حبّنا التي أردتَها وباركْتَها،
بل لكي يكونوا وسطنا، على نحوٍ جليٍّ أومُستَتَشَفّ،
شهودًا *للجوهريّ،*
إشارات، وأنوارًا، في كثافة حياتنا.

فليذكّرونا:

أنّ مدينة البشر جميلة، غير أنّ ملكوتًا آخر، في قلب هذه الأرض، ينمو على نحوٍ سرّيٍّ،

ولن يكون له انتهاء.

وأنّ السعادة لا تكمن، فقط، في الأَطعمة البشريّة،

بل في «الكلمة» التي نصغي إليها، ونعيشها بأمانة.

وليظهروا لنا:

أنّ الحرّيّة المطلقة ليست في أن نفعل، دائمًا، ما نرغب في فعله، بل في أن نخضع، غالبًا، طوعًا، بدافع الحبّ.

وليُثبتوا لنا بحياتهم:

أنّ لغة الحبّ، ليست لغة الجسد فحسب،

فالجسد سيصمت، يومًا، في حين سيظلّ القلب يغنّي دائمًا؛

وأنّ الحياة، أخيرًا، قد تُعطى بوسيلةٍ أخرى غير وسيلة الدم واللحم، وأنّ كلّ وجودٍ خصْبٌ بقدر ما يحدوه من حبّ.

* *

ما أسعد من يقدرون أن يرَوا هؤلاء الرجال والنساء،

تلك القلوب المرحِّبة بأتراح العالم وأفراحه،

جماعات الساهرين، والإخوة المجتمعين،

المستسلمين للحبّ، والمنشدي الشكر،

المتأمّلين أحدًا، حضورًا غير مرئيّ،
أحدًا هو *الله*، واسمه، الحبّ!
وما أسعد الذين يقدرون أن يدركوا
أنّه، إن كان *الله* هو *الله*،
فمن العدل أن يكون متطوّعون،
أجسادهم، وقلوبهم، وأذهانهم مصونةٌ وخاشعةٌ بأكملها،
يعيشون من أجله، باذلين حياتهم مجّانًا،
لأنّه هو حاضرٌ، مجّانًا، من أجلنا.

* *

ولحظت الحكيم يصلّي. وإثر فترةٍ طويلة، تمتم، أيضًا: «يا صغيري، ما عسانا نفعل غدًا، إن افتقدنا، في ما بيننا، هؤلاء الرجال والنساء الملبّين دعوة الروح، والذين يغدون لنا ***إشاراتٍ*** تُثبت أنّ الحبّ يتخطّى ***الحبّ*** بما لا يقاس، وأنّه مجّانيّ؟...»

ثمّ عاد فاستغرق في صمتٍ سحيق.

كنتُ ساكن النفس، عميق السعادة، وقد أيقنت أنّني بتُّ أفهم، وللمرَّة الأولى، اكتشفت أنّني لم أعد خائفًا. لم يبارحني الشعور بوهني، ولكن اتّضح لي أنّني أمسيت، أخيرًا، متأهّبًا لمحاولة الحبّ.

* *

أمّا الحكيم فكان متعبًا جدًّا،وكان لتعبه أكثر من سببٍ. وعندما كان يتحدّث باستفاضة واندفاع، كانت الكلمات تتدفّق من شفتيه سريعةً كالسيل. وكان تأثّره

من الشدّة، بحيث كنت أندم، أحيانًا، لكوني رفعت، أمامه، كلّ السدود؛ فقد كنت أُقدّر كم هو مُنهِكٌ التحدُّث على هذا النحو. وبتّ اليوم أشدّ ندمًا، من جرّاء نَهَمي الجمّ إلى أقواله....

ولكنّني كنت ظمآن! وتساءلت: أممكن ألاّ آتي إلى صديقي فأرتوي؟

وسمعت ضجّةً في الممرّ تنبئ بقادِمٍ. وكانت هي!

وانتابني، بغتةً، اضطرابٌ وقلق، مثل ولدٍ يُقبَض عليه متلبّسًا بخطأ. وخمّن الحكيم اضطرابي، وبصفته متواطئًا مخلصًا، امتلك القدرة على البسمة قائلاً: «وما همّ ذلك، فهذه هي المرَّة الأخيرة...» غير أنّه تنهّد، بغتةً، متجهّمًا؛ وقال: «كم كان لدينا، بعدُ، من أقوال!».

* *

ودخلتْ، رشيقةً، مضيئةً، مثل شعاع شمس، وخاطبت الحكيم مباشرةً: «كيف حالك؟ أما زلت تعاني من بعض تعب؟»

كان صوتها يُغنّي، ولم يسبق لي أن لحظت ذلك. وردّ الحكيم:

«إنّني على أحسن حال، وقد تحدّثنا، صديقي وأنا».

فرمقتني بنظرةٍ خَلَت، هذه المرّة، من اللوم، وقالت: «إنّني أرى ذلك».

وسرعان ما استأنفت، وكأنّها متحرّقة إلى الانعتاق من قلقٍ مبهم، وقالت لي:

– أَرجو ألاّ تكون ناقمًا عليّ.

– علامَ؟

– بسبب الرسالة. لم أعرف كيف أعبّر، فنحن لا يعرف أحدنا الآخر».

ولحظت في صوتها ندمًا راقني... فيما كان ندمٌ مماثل يولد في قلبي؛ وسارعتُ إلى الردّ:

-«لا عليك. فكلّ ما خطر لي هو أنّني كنت سأتصرّف مثلك، لو كنت مكانك».

وابتسمتْ لي، وقد شاع فيها الاطمئنان. وحدّثتُ نفسي بأنّ هذه الممرّضة أرقّ كثيرًا ممّا ظننتُ، وكان بودّي مواصلة الحوار، ولكنّها عادت فخاطبت الحكيم:

- «سأُعدّ الأدوية للّيل؛ وسأعود في نحو الساعة العاشرة، وسأرقد هنا، على المقعد؛ ولا تخشَ شيئًا، فنومي خفيف، ولن أُغفل أيَّةً من توصيات الطبيب».

وهكذا أدركتُ أنّها كانت تعتزم السهر على الحكيم طوال الليل.. وفجأةً خطر لي: «لمَ لا أقوم أنا بالمهمّة، فمكاني هو إلى جانب صديقي؟». وصارحتها بفكرتي، فلم تُحِرْ جوابًا، واكتفت برمق الحكيم، الذي أعرب عن موافقته بإيماءةٍ رقيقة من رأسه. ودهشتُ جدًّا عندما سارعتْ إلى القول:

«تعالَ فأريك ما يترتّب عليك إعطاؤه من أدوية. وسأعود غدًا، فجرًا، لكي أُعطيه حقنةً.... ثمّ سينأى صديقنا. فسيأتون لاصطحابه، باكرًا جدًّا، إذ سيكون المشوار طويلاً».

مع حزني العميق، كنت سعيدًا جدًّا بقضاء هذه الليلة بصحبة صديقي، ولا سيّما وقد أدركت، من نظرته، أنّه، هو أيضًا، كان سعيدًا.

وشكرت الممرّضة بابتسامة، فردّت بمثلها، وقد غدونا، نحن أيضًا، صديقَيْن.

(٣٩)

كنتُ جالسًا في مقعد الحكيم، الذي أَدنيته من سريره كي أستطيع مراقبته عن كَثَب، وكان نظري يداعبُ، على وجههِ، أثلامَ الغضون من حيث تنبعث موسيقى القلب. كان جميلاً ذلك الوجه الذي يغنّي، صامتًا، وكنت أُنصت إليه.

كان نائمًا، وأنا ساهر، فخورًا بسهري عليه. وبغتةً فكّرت بأولئك الرجال والنساء الذين كنّا نتحدّث عنهم في الأمس: الساهرين، عبر العالم، قلوبًا تخفق أَمام الله، فيما آخرون نيام. إنّهم ماثلون، من «أَجله»، حبًّا صافيًا. وأنا كنت هنا من أجل صديقي، ليلةً مجّانية.

كنت أُحبّه، وراودتني الرغبة في التصريح له بحبّي، ولكنّه كان نائمًا، وكان ذلك أفضل.

واتّحدتُ بكلّ أولئك الساهرين المجهولين، مندفعًا في ذلك التيّار الجمّ، تيّار الحبّ والحياة الذي يغمر العالم. وأدهشني أن يستطيع المرء أن يحبّ هكذا، جامدًا، بلا حراك، وبغفلةٍ عن الناس أجمعين، في مطاوي الليل.

ورحتُ أصلّي.

* *

كنت أُردّد تعليمات الممرّضة: أوّلاً... ثانيًا. كانت تعليمات واضحة، وكانت الأدوية مرتّبة بانتظام في الغرفة المجاورة، ولا سبيل إلى الخطأ.

ما عساه يكون عمر الممرّضة؟ وجهدت في استيضاحه، عادًّا سنوات الدراسة، مضيفًا إليها سنتين، فقد كان الحكيم قد صرّح لي أنّها تمارس منذ سنتين. واستخلصت أنّني لا ريب أكبرها قليلاً.

لم يكن ممكنًا أن يكون فارق السنّ بيننا على هذا القدر من الضآلة، فقد كانت تبدو فتيَّةً جدًّا، وربّما كان شعرها الطويل هو سبب ذلك. كان جميلاً شعرها المتراقص كالموج على كتفيها، لدى كلّ حركةٍ من رأسها. ربّما لو كان أقصر... ولكن لا، فذلك جريمةٌ لن أغفرها لها! وربّما كان السبب هو صفاء عينيها، نور ربيع، لا نور صيف. ونقمت على ذاتي لأنّني وجدت، يومًا، نظرتها قاسية. أين كان رأسي وقلبي آنذاك؟ وهل يمكن أن يتمادى المرء في الخطأ إلى هذا الحدّ؟

وأعدت حساباتي تحقُّقًا من عمرها.

* *

برقّةٍ لمستُ يد الحكيم الذي فتح عينيه، فقلت، وأنا أقدّم له الدواء: «لقد حان موعده»، فشربه، من غير أن يتلفّظ بكلمة، ثمّ ألقى رأسه على الوسادة، وظننت أنّه سيعود إلى النوم، ولكنّه التفت، قليلاً، نحوي، وقال:

– عليّ أن أُخبرك....

– كلاّ، بل أخلد إلى الراحة، فعليك ألاّ تجهد نفسك.

– لم يُتَح لنا سوى الزهيد من الوقت.

– لقد تحدّثنا كثيرًا

– ... فقط عن بعض مظاهر ذلك الحبّ الفريد الذي يحدو حياة البشر،

ولكن لا ينمو قلبٌ، ما لم ينمُ الرأس، والذراعان والأرجل، ولا ينمو الإنسان بالكامل ما لم ينمُ، معهُ، إخوته.

ولا تنمو البشريّة بكاملها إلاّ مرتبطةً بالعالَم، وقد أُحكمت السيطرة على المادّة والحياة المتناسقتين.

والتاريخ يتخبّط إن لم يعرف بشرٌ أحرارٌ ذاك الذي يسير معهم، ويعترفوا بذاك الذي يحرّرهم ممّا يحول دون الحبّ، ويقدّم لهم *حياته* لكي يحبّوا معه.

كلّ شيء متماسك، ولكن ليس هناك سوى طريق واحد ينطلق من الحبّ ويُفضي إلى الحبّ، يواكبه من هو حبّ...

وعلى كلّ فردٍ، أن يكون حاضرًا، محبًّا.

فتجاسرت وسألت أيضًا:

– ولكن أين ينبغي أن يكون حاضرًا؟

– أنا نفسي قد تردّدت وحلمت طويلاً، فيما كان إخوتي ينتظرونني. شعبٌ هائلٌ يسير وقد احتلّ كلٌّ مكانه، وبحثت عن مكاني، وأنا أظنّ، غالبًا، أنّني نافل، إلى أن وجدته عند قدميّ، في فسحة حياتي.

حيث ستكون ستجد. أُنظر: من خلال الحَدث، يُشير الله إليك.

قلت:

– في ما بعد عندما ستعود، سنواصل الحديث.

ولم يُجِر جوابًا.

* *

صحيح أنَّ الله يبعث بإشارة من خلال الحَدث. وكان قد بعث لي بإشارة وكلّمني من خلال لقائي الغريب والرائع بالحكيم..

ولكن هل كان ما حدث لي على هذا القدر من الفرادة؟ أَليس قَدَر كلّ إنسان أن يلتقي إخوةً، هم له «كلمة»، وأن يعيش أحداثًا هي «إشارات»؟ ولكن على المرء أن يسمع، ويشاهد، ويدع هذه الكلمة تولد في قلبه، وهذا النور ينتشر على دربه، ويتيح له أن **يرى**.

ربّما لن أرى صديقي، بعد، وكان ذلك يصيبني بحزنٍ عميق، ولكنّني تبيَّنت، بغتةً، أنَّني سأظلّ أسمع، أبدًا، صوت الحكيم، فمن خلال صوته كنت أسمع صوتًا آخر. وهذا الصوت لن يصمت أبدًا، ولن يكفّ عن مخاطبتي، إن كنت وفيًّا.

وطار تفكيري نحو الممرّضة؛ فهل كان لديها، هي أَيضًا، رسالةٌ لي؟ لا ريب في ذلك.

ولكن لم يكن لأحدنا معرفةٌ بالآخر، وكان أَسفها على ذلك بيّنًا.

لم أُنصت إليها، ولم أُحدّق إليها، سوى القليل. فعلامَ حرمتُها تلك النظرة التي تدعو، وتتيح للآخر أن يخرج من مكمنه؟ وما عسى كان قلبها سيقول من خلال كلماتها؟ كنت واثقًا أنّ بعض تلك الكلمات، كانت تترقّب، كي تُقال، من يصغي لها. وندمت، ندمًا شديدًا، على عدم اهتمامي.

قال الحكيم:

– ما الذي يجول بخاطرك؟

وبوغِتُّ، فلم أكن قد لحظت أنّ صديقي كان مستيقظًا، وأنَّه كان يراقبني باهتمام.

وضرّج الاضطراب وجنتيّ خجلاً، وزادني خجلي خجلاً، لم آلف مثله من قبل. لحسن طالعي كان وجهي غارقًا في شبه ظلمة، ولكنّني بدوت مضحكًا، عندما جبنت عن الإجابة.

وعقب فترة صمتٍ طويلة، كان هو مَنْ همس:

– إنّها جميلة، أليس كذلك؟

... وهذه المرّة قلت: «نَعَم».

وأغمض عينيه على بسمة، وأضاف: «ولكنّها أيضًا جميلةٌ في قلبها....! وأنت، كذلك، جميلٌ في قلبك»! ثمّ أدار رأسه، وأدركت أنّه لن يقول، بعدُ، شيئًا.

* *

كنت قد غفوت، مرتاح الضمير، فقد نفّذتُ، بدقّة، تعليمات الطبيب.

وكان الحكيم مستيقظًا، فقلت له:

– إنّك لا تنام، وهذا لا يسوغ.

– لقد نمت، وينبغي ألاّ نظلّ نيامًا.

إِسمع، عليّ أن أَستغفرك... لا تعترض، أرجوك، بل دعني أُكمل قولي....

«لقد أَعملت الفكر، واتّضح لي أنّني لم أقل لك، بقدرٍ كافٍ، أنّ الحبّ **فرح**. هكذا شاءه اللّه. فعندما يلتقي كائنان، ويوحّدان قلبيهما، وجسديهما، وحياتهما كلّها، تولد فيهما سعادةٌ جمّة، لن تقوى محنةٌ في العالم على النيل منها، طالما كان حبّهما صادقًا.

الحبّ الصادق هو الدخول في **فرح** اللّه اللامحدود

إِغفر لي ولكن افهمني؛ كم التقيت من شبّان كانوا يتخيّلون أنّ الحبّ أمرٌ يسير، ثمّ لقيتهم هاوين على الأَرض، يبكون ويلعنون أطلال أحلامهم المحطّمة! لقد أردت أن أُظهر لك أنّ الحبّ جميل، غير أنّه عسير المنال... ثمّ إنّك على علمٍ بتجربتي القاسية. فغالبًا ما كان الحبّ لي «ألـمًا».

قلت :

ـ إنّني أفهم. وعليّ أن أستغفرك. فلا ريب أنّني آلمتك عندما حملتك على التحدّث عن الحبّ.

– أنا لست نادمًا على شيء.

– لقد تألّمتَ كثيرًا، غير أنّك أحببتَ كثيرًا.

– لم أُحبّ بالقدر الكافي. ولا أحد يحبّ بالقدر الكافي.

– أقلقٌ أنت؟

– كلاّ، بل سعيدٌ وفي سلام، لأنّني أعلم أنَّ مَنْ هو ***الحبّ*** يحبّني.

* *

وكانت تقترب الساعة التي يتعيّن عليّ فيها مغادرة الحكيم، بلا رجعة. ولن يُكتب لنا، بعد، أن نتحدّث. من المحقَّق أنّني سأنهل من معين أقواله، من «الكتاب»؛ بيد أنّني في حاجةٍ، كي أُحبّ، إلى وجهٍ، وكي أشعر أنّني محبوب، إلى يدٍ تمتدّ وتضغط على يدي..

ثمّ كم كنت أودّ أن يعرف صديقي تلك التي ستشاركني حياتي!

كان قد قال لي إنّها موجودة... «يا حبّي المجهول».....!

وبغتةً تفجّر، في أعماقي، سؤالٌ لم أقوَ على حبسه، فملت صوب الحكيم، وكان ما انفكّ مستيقظًا، وقلت له بصوتٍ خافت:

– قلت لي إنّ الربّ لا يختار لنا رفيقتنا بالنيابة عنّا... ولكنّه يعرف مسبّقًا تلك التي سنختارها.

– إنّ اللّه أبٌ، يا صغيري. ويرى كلّ أبنائه. وقد يرغب في أن يلتقي هذا وتلك، ويتعارفا. أحيانًا الوالدون الأرضيّون، والمحبّون، يحلمون على هذا النحو، وقد يخطئون، ولكنّه، هو، لا يخطئ أبدًا، لأنّ حبّه كامل، لأنّه يعرف أين تكمن سعادتهما. بين حينٍ وحين، يطلق «إشارة» متكتّمة، من خلال الأشخاص والأَحداث.... ولكنّ كلّ إنسانٍ حرّ.

وإن كان الأبناء متنبّهين وأَمينين، التقت رغبتهم رغبة اللّه، وحينئذٍ يتفجَّر الفرح، فرحهم في ***فرحه***. ويا للروعة!

* *

كنت قد أعطيت الحكيم دواءَه الأخير، وقد استسلم للراحة. وأظنّ أنّه كان نائمًا؛ وكان النهار يطلع بتؤدة، وبدا الطقس صحوًا مؤذنًا بنهارٍ مشرق، وتفقّدت الساعة، فإذا بها الساعة الأخيرة، التي كانت تنساب بطيئةً، شديدة البطء. علامَ كانت تبدو لي هذه الساعة أطول من الساعات السابقة؟ أبسبب التعب؟ كلاّ، فقد كنت متيقّظًا، صافي البال، وسعيدًا سعادةً مبهمةً. وكنت آخذ على نفسي هذا الفرح، فقد كان فراقنا، صديقي وأنا، وشيكًا. كيف، والحالة هذه، كان لشعور الفرح أن يجد مكانًا في قلبي؟ لم أكن حزينًا، بل نافد الصبر.

كنت أترقَّب، ولكن ماذا؟...

بغتةً أدركت أنّني كنت أنتظر «أحدًا». «هي» قالت إنّها ستقدم مع الفجر، ***وكنت أنتظرها***. هذا اليقين الذي ظلّ، طويلاً، حبيسًا في صدري، تفجّر أخيرًا، مفجّرًا معه فرحًا جمًّا لم أَتعرَّفه لأنّني لم أَعهده، قطّ. وكدت أُوقظ الحكيم لكي أعلن له عن سرّي، ولكنّه كان مستغرقًا في سباتٍ عميق. وأجلت نظري في الغرفة التي غدت تنيرها، برقّة، أولى أضواء النهار. كلّ شيءٍ كان ساكنًا، والصمت ما انفكّ مخيّمًا. وعجبت من أنّ لا شيء من حولي قد تغيّر. حينئذٍ انبثق فيّ قلقٌ مبهم، مثل غيمةٍ فوق فرحي الوليد. ألم يكن ذلك حلمًا؟ واحدًا من سرابات رغباتي التي طالما وقعتُ ضحيّتها؟

وأغمضت عينيّ لكي أراها، في داخلي، على نحوٍ أفضل. وحدّقت إليها. أجل، كانت جميلةً، وأسعدني أنّ نظري الذي حطّ برقّةٍ عليها، لم ينل من أَلَقها.

ورحت أبحث عن براهين أخرى على صدق مشاعري. وتخيّلت، لحظةً، أنّ ثمّة من يريد بها سوءًا، فقفزتُ، في الحال: لن أرتضي ذلك أبدًا، وسأفعل كلّ شيء كي أضمن سعادتها التي تستحقّها. ومجرّد تفكيري على هذا النحو أشاع فيّ الطمأنينة. ولكنّني لم أكن أعرفها....! ربّما كان كلّ ذلك حمقًا منّي. غير أنّني كنت واثقًا!

وحدّقت إلى الحكيم الذي ما برح نائمًا. وظللت أَنتظر.

* *

إنتظرت، وفكَّرت. سأقول له إنّنا ربّما سنتعارف.... وإنّنا سنخرج معًا إن هي شاءت، وإنّ... ولكن ما جدوى الحلم؟ وأنا لن أجسر على الكلام. فأنا الذي أَلِف الجرأة أمام الفتيات، اكتشفت أنّني في مثل خجل الأولاد.

وبغتةً انبعثتْ، من الممرّ، ضجّةٌ تحاكي تلك التي سمعتها البارحة. وتعرَّفت وقع خطواتها، وكنت واثقًا أنّها هي.

وفتحَتِ الباب برقّة، ووضعت إِصبعًا أمام فمها مشيرةً لي بالتزام الصمت، لكيلا نوقظ الحكيم، ولكنّه سمعها، وقال بصوتٍ خافت: أزفت الساعة، أليس كذلك؟

فقالت: «نعم» ثمّ التفتت نحوي، وأضافت برقّة: «عليك الآن أن تغادر، فينبغي أن أعطي صديقنا حقنة دواء، وأُعدّه.»

ولم أقوَ على الرحيل، فقد كنت ملتصقًا بمكاني أرقب الحكيم، وكان، هو أَيضًا، يرقبنا، الواحد تلو الآخر، مبتسمًا.

كان يبدو سعيدًا، وتمتم:

– «ما أجمل نهارًا جديدًا يشرق! نهارًا قشيبًا بين أيدينا».

ثمّ أخذني من ذراعي وأضاف: «هيّا، يا صغيري، آخرج بضع لحظات، فالأمر لن يستغرق وقتًا طويلاً، ولكن عُدْ من أجلها... فالشوارع ما زالت مقفرة، ولن تدعها تمضي وحيدة!» وكانت بسمته الماكرة تخفي، بصعوبة، سعادته بإعداد شرْكٍ لي.

كنت محرجًا، ولكن سعيدًا، عندما أدركت أنّه كان قد سمع غناء قلبي، قبل أن أسمعه أنا، وعاد إليّ الفرح طاردًا الغيوم.

.... ولكن ماذا «عنها»؟

وتجاسرت، أخيرًا، على التحديق إليها؛ كنت أَودُّ التكلّم، غير أنّني تلعثمت، ولم تتخطّ لفظةٌ شفتيّ، ولم تكن هي أكثر توفيقًا في محاولتها، ولكنّها كانت تمتلك كلمات بسمتها، وبسمتها قالت لي: نعم.

* *

لـمّا عدت، كان الحكيم جاهزًا، مستلقيًا على سريره، ينتظر في هدوءٍ وسلام. ولستُ أدري ما الذي جعل نظري يتوقّف عند الحقيبة الصغيرة الجاثمة على المقعد. وجال بخاطري أنّها حقيبةٌ مفرطة الصغر قياسًا إلى سفرٍ طويل! ورآني أحدّق إليها، فقال:

«لا يحتاج المضيّ في دروب الحياة إلى متاعٍ كثير. فالحبّ كافٍ.»

ثمَّ، من جديد، رمقنا، كلينا، بنظرةٍ طويلةٍ مفعمةٍ ودًّا.

وإثر صمتٍ متمادٍ أعلن بصوتٍ حازم: «هيّا يا أولادي، لقد حان وقت الرحيل». وكان جليًّا أنّه كان يستعجل الوداع..

ودنت هي منه، أوّلاً، وقبّلته؛ فاقتصر على القول: «كوني سعيدة» وانحنيت لأُقبّله، بدوري، وقلت:

– شكرًا، أبتاه، فقد وهبتني الحياة.

– وداعًا يا ابني العزيز.

وخالطت بسمته الدموع، وكذلك كان أمرنا.

مرَّةً أُخرى، ظللت جامدًا أمامه، عاجزًا عن انتزاع نظري عن ذلك الوجه الجميل، وحينئذٍ أقبلتْ هي نحوي، ومدّت يدها، فأمسكت بيدي قبل أن أمدّها.

وكانت يدي في يدها مثل عصفورٍ مرتجف. وقالت: «تعالَ»، واجتذبتني.

عند عتبة الباب حدّقنا، للمرّة الأخيرة، بصديقنا. كانت عيناه مغمضتين، غير أنَّ شفتيه كانتا تتحرّكان، وسمعناه يكرّر، بوضوحٍ، قوله: «***لا نحتاج، من أجل المضيّ على درب الحياة، إلى متاع كثير. بل حَسْبنا أن نحبّ***».

* *

في الخارج، في نهاية الشارع، كانت الشمس تشـــرق.

الفهرس

الصفحة

تمهيد	٥
مقدّمة الكتاب	٧
الجزء الأوّل: الحياة هي الحبّ	١٣
الجزء الثاني: عندما يتّخذ الحبُّ وجهًا	٩٧
الفهرس	٢٧١

ظهر في سلسلة «الشباب مستقبل الغد»

١ – جبرائيل برير: **فجر جديد لخلق أجيال جديدة**

٢ – جبرائيل برير: **إلى النور إلى الحياة إلى السعادة**

٣ – الأب إميل الحاجّ البولسيّ **الشبيبةُ مع المسيح**

٤ – الأب إميل الحاجّ البولسيّ **تأمُّلاتٌ للشَباب**

أنجزت المطبعة البولسيّة

جونيه – لبنان

طبع هذا الكتاب

في ٢٠ تـمّوز سنة ٢٠٠٥